

دكتور
احمد مطلوب

تأليف المرحوم
دكتور خطاب العسر

١٤٧

الأدب
العربي

فنون بلاغية

البيان - البديع

فنون بلاغية
البيان - البديع

دار البحوث العلمية



الكتاب من مقتنيات
مكتبة جامعة القاهرة

قانون الجناح بالاعتماد
على

البيان - البديع

١٣٩٥ هـ - ١٤١٥ م

الكتاب من مقتنيات
مكتبة جامعة القاهرة

الكتاب من مقتنيات
مكتبة جامعة القاهرة

قانون الجناح بالاعتماد
على

الكتاب من مقتنيات
مكتبة جامعة القاهرة



لواء العزیز وکرنو - احمد نواز

مع التیہ .

۱۰
۱۷۱/۱۴/۴۴

قَبُولُ بِالْإِغْتِمَاعِ

الشیان - السدیج



الدكتور أحمد مطلوب
أستاذ في جامعة بغداد - كلية الآداب

فَنُونٌ بِالْأَغْنِيَةِ

البَيَان - البَدِيع

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

مركز البحوث العلمية

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع
شارع فهم المسالم - عمارة الشرق الأوسط
ص. ب ٣٨٥٧ - هاتف ٤٣١٩٨٢ الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذه محاضرات في بعض فنون البيان والبدع أريد بها أن تكون مقدمة لمن يدرس البلاغة العربية وتطور فنونها واختلاف وجهات النظر فيها على تعاقب الأجيال وتفاوت البيئات . وهي محاضرات أعدت من القديم لحلولها ، واعتمدت على السابقين في فصولها ، ولم ترجع إلى ما أثير في هذه الأيام إلا قليلاً ولم تحذف عنه إلا ما لمأماً ، لأن الهدف ليس تجديد البلاغة وإنما تقديم ما عند القدماء بأسلوب يجمع بين عباراتهم وينسج آرائهم ، لتكون منطلقاً إلى التجديد .

وليس من السهل السير أن تنهض حركة التجديد والتطوير من غير فهم واع وإدراك عميق لما بدأه السابقون . ولن يقدر على ذلك إلا من " وطن نفسه لهذا الهدف وأخلص لما يسعى إليه . ومن هنا كانت الدعوة إلى التجديد عملاً شاقاً قد يسعى إليه الباحث سنوات من غير أن يصل إليه ، لأن التجديد ليس التلقين بين القديم والجديد ، أو الاستشهاد العابر بشعر معاصر ، أو الركون إلى أقوال الغربيين . وإنما هو عملية خلق كبيرة يقوم بها متدرب ضليع .

وكان القدماء أصدق من المعاصرين في فهمهم للتجديد، ونظرتهم إلى حياتهم . وقد استطاعوا أن يخطوا خطوات واسعة ويتطوروا الفكر تطوراً كبيراً . وما كتب البلاغة والنقد على تعاقب الأجيال إلا مثالاً حيّ يشهد لأولئك بالتفتح ومعاصرة الحياة . وأنه لما بلغت النظر أن يظهر يدعي متأخر كابن حجة الحموي يستوعب شعر عصره ويتخلله مدار دراسته في حين لم يقدر أحد من المعاصرين أن يتخذ الموقف نفسه ويمثل العصر ويتخذ مما فيه منهجاً وأسواً . وفي هذا ما يدعو إلى التأمل في عهد كثر فيه الدعاة إلى التجديد والزهو بأنهم يمثلون عصرهم من غير أن يقدموا نظرية جديدة . وليس ما يأخذونه عن الغرب بالجديد وإنما هو تقليد قد يكون محسناً أكثر من تقليدهم لسانيقون .

من هذه النظرة كان الانطلاق في هذه المحاضرات التي هي بداية الطريق لمن يريد أن يعرف ما ترك القدماء . ولذلك كانت العناية كبيرة بالتطور التاريخي لمصطلح فنون وعرض آراء البلاغيين والأخذ بعبارةهم لتكتمل الصورة القديمة ، أما الجديد فموضعه كتاب « مناهج بلاغية » وكتاب آخر قد يفتح الله به ليصور الجديد كما يجليه العصر وما يسعى إليه المطلعون . وهناك تكون الخطبة من كل ما لا يقع والتحلية بكل ما يدفع الأدب ويطور الحياة النقدية .

وقد اقتضى المقرر الذي ينبغي أن يلم به طالب العربية في مرحلة دراسته الجامعية الأولى أن يكون لأهم فنون البيان واليدع نصيب في هذه المحاضرات التي انقسمت إلى كتابين :

الأول : فنون البيان . وهي كما عرفت كتاب البلاغة المتأخرة : التشبيه ، والمجاز ، والكتابة . ولكي تكون الصورة واضحة كان تحديد مصطلح « البيان » في فترته التي سبقت تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة . وفترته التي ظلت ملازمة له حتى اليوم ، أول فصول هذا الكتاب ، ثم كان الحديث بعد ذلك عن فنون البيان .

الثاني : فنون البديع . وهي المحسنات اللفظية والمعنوية ، وقد سبق هذين اللونين تحديد لمصطلح « البديع » في فترتيه ، والوقوف على « البديعيات » التي رافقت الحياة الأدبية في الفترة المتأخرة . ولم يكن الأهل بدراسة فنون البديع كلها مما يفتق ، لأن الكثير منها لا يؤثر في جودة الكلام وروعته . ولذلك كان الوقوف على ما كثر استعماله في كتاب الله وكلام العرب .

وصارت الفنون كلها في اتجاه واحد يتضح في :

- ١ - مقدمة عن الفن البلاغي تأتي ضمواً عليه وتكون مدخلاً للتعريف به .
- ٢ - تعريف للفن يعتمد على التطور التاريخي ليأخذ موضوعه في كل فترة ، ويرتبط بصاحبه من خلال عرضه .
- ٣ - تقسيم للفن كما جاء في الكتب المتأخرة . مع الأخذ في بعض الأحيان بما ذكره الأسبقون لتكامل صورة التقسيم .
- ٤ - ذكر للأمثلة كما جاءت في كتب البلاغة القديمة من غير إضافة جديدة كما فعل بعض المعاصرين . لأن في ذلك ابتعاداً عن منهج دراسة القديم ، وتجنباً على الأدب الحديث الذي لا ينظر إليه هذه النظرة العابرة بعد أن دخلت فيه أحياء وصور جديدة تحتاج إلى تأمل عميق ووقف طويلاً لا ينبغي عنها التخليق .
- ٥ - تعليق يسير على الأمثلة . وفي كثير من الأحيان تذكر الأمثلة وحدها ليتصرف فيها المتلقي ويتناول فهمها ومعرفة الشاهد فيها . وهذا خلاف ما يلحأ إليه بعضهم من الكلام الذي لا يخرج عن زخرف القول . وعن الجمل التي لا ترتبط فيما بينها إلا بأوهى الخيوط . وما ذلك إلا لأن هؤلاء فهموا التجديد فهماً يقوم على العبارة المفضلة . طناً منهم أن في ذلك فتحاً مبيتاً وتجديداً عظيمياً .
- ٦ - عرض لوجهات النظر في التعريف أو التقسيم أو الأمثلة لتكون أهم قضايا

القديم واضحة جلية وموضوعة حيث ينبغي أن توضع . ولم يكن الخروج
على هذه القاعدة إلا في مواضع قليلة حينما كان الحديث يدفع إلى
ذلك دفعاً .

هذه ملامح مهاجرات « فنون بلاغية » جاءت كما بناها القدماء ليعرف
الجيل ما كان من هذا العلم الذي لم ينتج ولم يحرق ، ولكون مقدمة لمن
يريد أن يخطو بانزاً في طريق الشجيد .

ومن الله العون والتوفيق

الكويت ٩ ربيع الآخر ١٣٩٤ هـ
الأول من مايس ١٩٧٤ م

الدكتور احمد مطلوب
استاذ في جامعتي بغداد والكويت

البَيَان

اَلْكِتَابُ الْاَوَّلُ



الفصل الأول

البَيَان

١

في اللغة :

جاء في لسان العرب : « البيان : ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها .
وبان الشيء : أفضح . فهو بَيِّن . واستبان الشيء : ظهر . والبيان : القصاحة
والحسن . وكلام بَيِّن : فصيح . والبيان : الاقصاد مع ذكاء ، والبيِّن
من الرجال : الفصيح ، والسمح اللسان . الفصيح : الظريف العالي الكلام .
وفلان أَرَب من فلان : أي أفصح منه وأوضح كلاماً . ورجل بَيِّن : فصيح ،
واجمع : أَيْبَن . البيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ . وهو من حسن الفهم
وذكاء القلب مع اللسان . وأصله : الكشف والظهور » .

وفي هذا النص إشارة إلى المعنى المعرفي لكلمة « البيان » وهو الظهور ،
والذي المعنى الذي يقرب من الاصطلاح البلاغي . غير أنه ليس واضحاً ، لأن
« البيان » لم يأخذ صورته الأخيرة إلا في القرن السابع للهجرة على يد السكاكي
(٦٢٦ هـ) ، ولأن المعاجم لا تدعى إلا بدلالة الألفاظ الوضعية في كثير من
الأحيان .

في القرآن الكريم :

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى « البيان » منها قوله تعالى : « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »^(١) ، والبيان هنا الإيضاح ، يقول جابر الله الزخري : « هذا بيان للناس : إيضاح لسوء عاقبة ما هم عليه من التكذيب ، يعني : حثهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم ، والاعتبار بما يعانون من آثار هلاكهم »^(٢) .

وقوله تعالى : « الرحمن » . علم القرآن . خلق الإنسان . علمته البيان »^(٣) ، والبيان هنا المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير ، يقول الزخري : « ثم ذكر ما يتميز به من سائر الخيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير »^(٤) .

في الحديث الشريف :

وفي الحديث النبوي الشريف : « إنَّ من البيان لسحراً » . وإنَّ من الشعر لحكمة ، والبيان هنا إظهار القصد بأبلغ لفظ وهو من القهم وذكراء القلب . وقيل : معناه أن الرجل يكون عليه الحق وهو أقوم بجمته من خصمه فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه ، لأن معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان وليس بقلب الأعيان . ألا ترى أن البليغ يمدح السائرا حتى يصرف قلوب السامعين إلى حبه . ثم يلجمه حتى يصرفها إلى بغضه »^(٥) .

ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : « البلاء والبيان شعبتان من النفاق ، أراد أنهما خصلتان منشؤهما النفاق ، أما البلاء - وهو الفجش - فظاهر ، وأما البيان فأنما أراد منه بالدم التعش في التعلق والتفاحش وإظهار التقدم فيه على

(١) آل عمران ١٣٨ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٣٩١ .

(٣) الرحمن الآيات ١ - ٤ .

(٤) الكشف ج ١ ص ٣٥٣ .

(٥) النهاية في غريب الحديث والآثار ج ١ ص ١٧٤ .

الناس وكأنه نوع من العجب والكبر ، ولذلك قال في رواية أخرى : « البدء وبعض البيان » ، لأنه ليس كل البيان مضموماً^(١) .

وظلت كلمة « البيان » تحمل هذه المعاني العامة حتى إذا ما جاء العصر العباسي دخلت الدراسات البلاغية واستعملت استعمالاً ذا دلالة خاصة . ولم يبق معناها ثابتاً عند علماء البلاغة على اختلاف ثقافتهم وعصورهم وإنما تطور بتطور بحوثها حتى استقرت على يد السكاكي ومن سار على منهجه ، فكان لها دلالة اصطلاحية لا يتصرف اللحن حينئذ تذكر إلا إليها .

الملاحظ :

وأول ما تصادفنا كلمة « البيان » عند الملاحظ ، فقد وردت في آثاره وسمى أحدها « البيان والبيان » وجمع فيه كثيراً من الأقوال وتحدث عن البيان . ولعل تعريف جعفر بن يحيى (- ١٨٧ هـ) الذي ذكره الملاحظ كان من أقدم ما دون . يقول : « وقال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويحلي عن معراك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة . والذي لا بد منه أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً من الصنعة . بريئاً من التعقد . غنياً عن التلويل . وهذا هو تلويل قول الأصمعي : « البليغ من طُبِّحَ المفصل وأغثاك عن المفسر »^(٢) .

والبيان عند الملاحظ واسع المعنى ، وهو الكشف والإيضاح والفهم والألفهام . ويحتاج إلى تمييز وسياسة . وتمام الآلة . وإحكام الصنعة ، وسهولة المخرج . وجهارة المنطق . وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن . يقول : « البيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهناك الحجاب دون التفسير حتى يضيئ السامع إلى حقيقته ويهجم على محسوله كاتباً ما كان ذلك

(١) النهاية ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) البيان والبيان ج ١ ص ١٠٦ . وينظر عون الأخبار ج ٢ ص ١٧٣ . والمنهاج ج ١ ص ٢٤٩ .

البيان ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو التهم والافهام . فبأي شيء بلغت الافهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع ^(١) .

وتحدث عن الدلالات على المعاني من لفظ وغير اللفظ وهي خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولاً اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى لُصْبَةً ، والنصبية هي الحال البدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تنصرف عن تلك الدلالات . ولكل واحد من هذه الخمسة صورة ثلاثة من صورة صاحبها وحلية مخالفة لحلية أختها . وهي التي تكشف عن أعيان المعاني في الجملة ثم عن حقائقها في التفسير . وعن أجناسها وأقذارها ، وعن خاصها وعامها . وعن طبقاتها في السار والظاهر . وعما يكون منها لغواً يهربها وساقطاً مطروحاً .

والدلالة باللفظ معروفة . فلما الدلالة بالإشارة لباليد والرأس والعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان . وبالثوب وبالسيف ، وقد يتهدد رافع السياف والسرط فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً .

وأما القول في العقد وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على فضيله وعظم قدر الانتفاع به قول الله - عز وجل - : « قالنّ الأصباح وجعلنّ الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً » ، ذلك تقدير العزيز العليم ^(٢) . والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة . ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله - عز وجل - معنى الحساب في الآخرة .

وأما الخط فعمما ذكر الله - عز وجل - في كتابه من فضيله والانتفاع بمنافع الكتاب قوله - عليه السلام - : « إقرأ وربك الأكرم » ، الذي علم

(١) البازح ١ ص ٧٦ .

(٢) الأنعام ٩٦ .

لَقَلَّمُوا . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(١) . وأقسم به في كتابه المنزل
 على نبيه المرسل فقال : « ن . وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ^(٢) » ولذلك قالوا :
 « القلم أحد اللسانين » كما قالوا : « قلة العيال أحد البسارين » وقالوا :
 « القلم أبى أثرأ . واللسان أكثر خفراً » .

وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد . فساد جلّ النعم ، وقندان
 جمهور النافع ، واختلال كل ما جعله الله — عز وجل — لنا قواماً ومصلحة
 ونظاماً .

وأما النصبية فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيئة بغير اليد . وذلك
 ظاهر في خلق السماوات والأرض ، وفي كل صامت وناطق . وجامد
 وناعم . ومقيم وعاطن . وزائد وناقص . فالدلالة التي في الموات الجامد
 كاللدالة التي في الحيوان الناطق . فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء
 معربة من جهة البرهان . ولذلك قال الأول : « سكر الأرض فقل : مَنْ
 شقّ أنهارك ، وغرس أشجارك . وجنى ثمارك ؟ فان لم تجبك حواراً أجابك
 اعتباراً^(٣) » .

ابن وهب :

وهذه الصور الخمس هي رأيي الخاطئ في البيان لذلك جاء مفهومه عنده
 واسعاً . وقد تابعه صاحب كتاب « البرهان في وجوه البيان » فيما ذهب إليه من
 دلالات . وهي عنده أربعة أوجه :

الأول : بيان الأشياء ببنائها وإن لم تكن بلغاتها . وهو ما يسمى لسان
 الحال ، فالأشياء تبين لناظر المتوسم والعقل المتبين ببنائها وبمعجب
 تركيب الله فيها وآثار صنعته .

(١) العلم الآيات ٢ - ٥ .

(٢) القلم ١ .

(٣) البيان ج ١ ص ٧٦ وما بعدها .

الثاني : بيان الاعتقاد وهو الذي يحصل في القلب عن إعداد الفكر واللب
فيصير صاحبه عالماً بالأشياء مستيقناً بها .

الثالث : بيان العبارة وهو النطق باللسان للاخبار عما في النفس من الحكمة
المستفادة والمعرفة المكتسبة .

الرابع : البيان بالكتاب ليبلغ من بعد لو غاب ، لأن بيان الحسان مقصور
على الحاضر دون الغائب ، وهو والذي قبله يتغيران بتغير اللغات ،
ويتباينان بتباين الاصطلاحات .

ولو نظرنا إلى هذه الأوجه الأربعة لرأيناها قريبة الصلة بما ذكره الجاحظ ،
فإن النصب عند الجاحظ هي بيان الاعتبار ويمكن أن ندخل فيها بيان الاعتقاد ،
لأنه ثمرة بيان الاعتبار ونتيجته في القلب . ودلالة الخط هي البيان الثالث ،
ودلالة الخط هي البيان الرابع ^(١) .

والبيان الثالث « العبارة » هو الذي يتصل بالبيان بمعناه الاصطلاحي ،
فقد تحدث المؤلف عن موضوعات بلاغية كثيرة كالخبر والعطف ، والاشتقاق ،
والتشبيه ، والمجن ، والرمز ، والوحي ، والاستعارة ، والأمثال ، والغز ،
والخذف ، والصرف ، والمبالغة ، والقطع والعطف ، والتقديم والتأخير ،
والاختراع ، ثم تحدث عن الشعر وأقسامه والنثر وأساليبه . وهذه هي موضوعات
« البيان » المعروفة في ذلك العهد ، وهي بالتالي تمثل فنون البلاغة وما يتصل بها
من دراسات نقدية .

الرماني :

والبيان عند الرماني (- ٣٨٦ هـ) الاحضار لما يظهر به تميز الشيء من
غيره من الإدراك ^(٢) ، وأقسامه أربعة : كلام ، وحال ، وإشارة ، وعلامة ،
والكلام على وجهين : كلام يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان ، وكلام لا

(١) تنظر مقدمات كتاب البرهان ص ٣٦ .

(٢) التكت في أصحار الفكر (ثلاث رسائل في أصحار الفكر) ص ٩٨ .

يظهر به تميز الشيء . فليس ببيان كالالكلام المخاط والمحال الذي لا يفهم به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد حسناً من قبل الله قد يكون على حي وفساد . وليس يحسن أن يطلق اسم « بيان » على ما قبح من الكلام ، لأن الله قد مدح البيان واعتد به في أياديه الجسام ، فقال : « الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان » ، ولكن إذا قيّد بما يدل على أنه يعني ببيان الفهم المراد ، جاز .

وحسن البيان في الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن في العبارة من تعديّل النظم حتى يحسن في السمع ويسهل على الفهم وتتقبله النفس قليل اليرد . وحتى يأتي على مقدار الحاجة فيها هو حقه من المرتبة .

إن البيان عند الرماني غير محدد ، ويلتقي بالمعنى الذي روى إليه الجاحظ وصاحب كتاب « البرهان » ، وتقسيمه إلى أربعة أقسام عمدة إلى دلالات الجاحظ .

ابن رشيق :

وقال ابن رشيق القيرواني (- 1163 هـ) تعريف الرماني ، ولكنه لم يقف عنده أو يرفضه بل ذكر تعريفاً آخر وهو : « البيان : الكشف عن المعنى حتى تمرّك النفس من غير عطفة ، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتي التعطيل في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم البيان » .^(١)

والغريب أن ابن رشيق لا يطلق « البيان » على البلاغة ، وإنما هو عنده فن من فنونها كاللجاز والاستعارة والتشبيه والاشارة والتجنيس . ولعل هذا الفهم هو الذي ضيقت نطاق بحثه وحصره في الفصل الذي عنده وذكر فيه بعض الأقوال البليغة كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحراً » وقول أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - : « وليت أموركم ولست

(١) التبيان ج ١ ص ٢٤٤ .

بألفاتها . واستولى الخفاء على جعلتها . إلى فوائده لا يدركها الإحصاء وعلمنا
لا ينحصرها الاستقصاء ^(١) . وليس في هذا القول تعريف للبيان وتحديد
لموضوعاته . وإنما هو لفظة أطلقها عبد القاهر ليعبر عن أهمية « البيان » وقيمته
في التعبير .

البيان الأثير :

وأخذ البيان عند علماء الدين بن الأثير (- ٦٣٧ هـ) معنى واسعاً . وهو
تأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام وأداة الاحكام . ومداره على
حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم . وموضوعه القصاحة
والبلاغة . وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية . وهو والنحوي
يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الالفاظ على المعاني من جهة الوضع
المعنوي وتلك دلالة عامة . وصاحب علم البيان ينظر في فضيلة تلك الأدلة
وهي دلالة خاصة . والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن .
وذلك أمر وراء النحو والأعراب .

وصناعة تأليف الكلام من المنظوم والمثور تنفرد إلى آلات كثيرة .
وقد قيل : « ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم » حتى قيل : كل ذي علم
يسوغ له أن ينسب نفسه إليه فيقول : فلان النحوي . وفلان الفقيه . وفلان
المكلم . ولا يسوغ له أن ينسب نفسه إلى الكتابة فيقول : « فلان الكاتب » .
وذلك لما ينفرد إليه من الخوض في كل فن .

وملاك هذا كله الطبع . فانه إذا لم يكن ثم طبع فانه لا تغني تلك
الآلات شيئاً . ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزناد والحديدية التي يندرج
بها . ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزناد نار لا تعيد تلك الحديدية شيئاً ؟ وإذا
كتب الله في الإنسان طبعاً قالوا : « لهذا الفن فينفرد حيث لا ثمانية أنواع من
الآلات هي : معرفة علم العربية من النحو والتصريف . ومعرفة ما يحتاج إليه

(١) دليل المتعلم ص ٤ - ٥ .

من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام . ومعرفة أمثال العرب وأيامهم . والإحاطة على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منها والنثورة . والحفظ لكثير منه . ومعرفة الاحكام السلطانية . وحفظ القرآن الكريم . وحفظ ما يحتاج اليه من الأخبار الواردة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - . ومعرفة علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر . ثم قال بعد أن ذكر هذه الأدوات : « فإنا أكل صاحب هذه الصناعة معرفة هذه الآلات . وكان لما طبع حبيب وقرينة مواتية ، فعليه بالنظر في كتابنا حبا والتصليح لما أودعناه من جمالي علم البيان وتبناها عليه من أصول ذلك وفروعه . على أن الذي ذكرناه من هذه الآلات الشاذي هو كالأصل لما يحتاج اليه الخطيب والشاعر ومعرفة ضرورية لا بد منها . وهما أشياء أحرر هي كالتواضع والروادف . وبالجملة فإن صاحب هذه الصناعة يحتاج إلى تثبيت بكل فن من الفنون » .^(١)

إن « البيان » عند هؤلاء أخذ معنى واسعاً يدل على البلاغة كلها . ويكاد كلهم يتجهون على أن البيان هو الإفصاح عما في النفس من المعاني والاحاسيس . وهذا معنى أدبي جميل أعطى البلاغة حياة وأكسبها رونقاً ، وفتح أمامها السبل لتخوض في موضوعات أدبية بدعة وتكون للمؤلفين آراء نقدية طريفة .

٢

السكاكي :

ولم يبق هذا المفهوم الواسع للبيان . فقد ظهر في حوارزم السكاكي (٦٢٦ هـ) الذي وضع لبلاغة قواعدها المنطقية وقسمها إلى المعاني والبيان وأثنى بهما الحسنات . ووضع لكل قسم تعريفاً دقيقاً وحداه مباحثه وفوائده . وقال في تعريف البيان : « أما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في

(١) الملل السراج ١ ص ٣٦ .

طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالتقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه ، (١)

وأدخل الدلالات في تقسيم موضوعاته وأقسامها إجمالاً ، ورأى أن "لصاحب هذا العلم فضل احتياج إلى التعرض لأنواع الدلالات ، يقول : « لا شبهة في أن الأنظمة متى كانت موضوعاً للمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان إن حكم الوضع . وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية . ومتى كان مفهومها ذلك -- ونسبه أصلياً -- تعلق بمفهوم آخر أمكن أن تدل عليه ببساطة ذلك التعلق بحكم العقلي سواء كان ذلك المفهوم الآخر داخلياً في مفهومها الأصلي كالسقف -- مثلاً -- في مفهوم البيت -- ويسمى هذا دلالة التضمن ودلالة عقلية أيضاً -- أو خارجاً عنه كالحائط عن مفهوم السقف وتسمى هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضاً » . (٢)

فالدلالات التي تحدث عنها السكاكي وذكرها في بحث البيان هي :

- ١ -- دلالة اللفظ على تمام ما وضع له .
 - ٢ -- دلالة التضمن وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه .
 - ٣ -- دلالة الالتزام وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه ، لازم له .
- وتسمى دلالة المطابقة دلالة وضعية ، لأن السبب في ذلك حصراً عند سماع اللفظ أو تذكره . وهو معرفة الوضع دون حاجة إلى شيء آخر . أما دلالة التضمن والالتزام فتسميان دلالتين عقليتين ، لأن حصولهما بانتقال العقل من الكل إلى الجزء في الأولى ، ومن الملازم إلى اللزام في الثانية . بمعنى

(١) منطق معلوم ص ٥٧ .

(٢) منطق معلوم ص ٥٨ .

ان الواضع وضع اللفظ ليقيد جميع المعنى غير ان العقل اقتضى ان الشيء لا يوجد بغير جزئه أو لازمه^(١) .

وبنى السكالي تقسيم البيان على هذه الدلالات فأخرج التشبيه « لان دلالة وضعية ، والدلالة الوضعية لا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، وأثبت ذلك بقوله : « فانك إذا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلاً » وقلت : « خد يشبه الورد » اعنته ان يكون كلام مؤيد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية . أكل منه في الوضوح لو أنقص فانك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما إيرادها فالسامع ان كان عالماً بكونها موضوعة لتلك المفاهيم كان فهمه منها كفهمة من تلك من غير تفاوت في الوضوح وإلا لم يفهم شيئاً أصلاً وإنما يمكن ذلك في الدلالات العقلية مثل أن يكون لشيء تعلق بالآخر ولثان وثالث . فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به . فتى تفاوتت تلك الثلاثة في وضوح التعلق وخفاته صح في طريق إعادته الوضوح والخفاء » .^(٢)

أما الموضوعات الأخرى فقال في حصرها : « وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا ينافي إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كالزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ظهر لك ان علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني . ثم إذا عرفت أن المزوم إذا تصور بين الشئين فلما أن يكون من الخالين كالذي بين الامام والخلف بحكم العقل أو بين طول القامة وطول النجاد بحكم الاعتقاد أو من جانب واحد كالذي بين العام والحياة بحكم العقل أو بين الاسد والجرأة . بحكم الاعتقاد . ظهر لك أن مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين : جهة الانتقال من مزوم إلى لازم ، وجهة الانتقال من لازم إلى مزوم . ولا يربك

(١) لمعرفة هذه الدلالات بالتفصيل انظر الفهرست ج ١ ص ٢١ - ٢٩ ، وفي التمهيد ج ١ ص ٢٠ وما يتعلق به .

(٢) منطق العام ص ١٤٦ .

بظاهرة الانتقال من أحد لآزمي الشيء إلى الآخر ما إذا انتقل من بياض الثلج إلى البرودة فمرجه ما ذكر ينتقل من البياض إلى الثلج ثم من الثلج إلى البرودة فتأمل .

ولذا ظهر أن مرجع البيان هاتان الجهتان . علمت النصاب علم البيان إلى التعرض للمجاز والكتابة . فإن المجاز ينتقل فيه من المازوم إلى اللازم كما تقول : « رغبنا غيتاً » والمراد لازمه وهو البيت . وقد سبق أن لازم لا يجب أن يكون حقلياً بل أن كان اعتقاديّاً إما لعرف أو لغير عرف ، صحيح البناء عليه . ولما أحرر قولك : « أظفرت السماء نباتاً » أي غيتاً من المجازات المنتقلة فيها عن اللازم إلى المازوم فدخلت في سلك « رغبنا غيت » . وإن الكتابة ينتقل فيها من اللازم إلى المازوم كما تقول : « فلان طويل النجاد » فلا يصار إلى جعل النجاد «طويلاً» أو «قصيراً» إلا لكون القائمة طويلة أو قصيرة . فلاحظنا أن نستخدمنا أصليين ^(١) .

لقد حصر السكاكي بهذه الطريقة البعيدة عن دراسة الأدب ومقاييس علم البيان في بحثين هما : المجاز والكتابة . لأن دلالتهم عقلية . والدلالة العقلية هي التي يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه . أما التشبيه فقد أخرجه بهذا الحصر من البيان . لأن دلالاته وضعية والدلالة الوضعية لا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة . لأن السامع إن كان عالماً بوضع اللفاظ لم يكن بعضها أوضح دلالة من بعض وإلا لم يكن كل منها دالاً عليها . ولكنه لم يستطع أن يجعل بحثه مع تصريحه بأن دلالاته وضعية . وأنتى له أن يترجمه وهو يعلم أنه باب واسع في اللغة وأنه كثير الاستعمال . وإن له مزاياء تورث الكلام حسناً وجمالاً ؟ ولكن كيف يفهم إلى مباحث علم البيان ؟

(١) - معجم «توضيح» ص ١٤٧ .

لقد اصطنع أسلوباً فيه تكلف وتعتف، وقال : « ثم إن المجاز - أعني الاستعارة - من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من المألوم إلى اللازم ، بل لا بد فيها من قطعة تشبيه شيء بذلك المألوم في لازم له تستدعي تقديم التعرض للتشبيه فلا بد من أن نأخذ أصلًا ثالثاً ونقلعه ، فهو الشيء إذا ظهرت فيه ملكة زعماء التنوير في فنون السحر البياني » .^(١)

وليس التشبيه فناً طارئاً - كما زعم - وإنما هو كثير الدوران في كلام العرب ، يقول الميرد : « والتشبيه جارٍ في كثير من الكلام - أعني كلام العرب - حتى لو قال قائل إنه أكثر كلامهم لم يبعد » .^(٢)

ولا ينبغي لماذا أسرف السكاكي في اصطناع هذا الاصواب وهو يعرف بأن الإنسان إذا مهر في التشبيه ملك زعماء التنوير في فنون السحر البياني ؟ .

ولم يكن السكاكي أول من اضطرب في اعتبار التشبيه من مباحث البيان فمعاصره المفترزي كان يحس بأهميته ، ولكن كيف يتكلم عليه وهو ليس من المجاز ؟ وكيف يستطيع أن يورده في بحث البيان ؟ لقد اصطنع ما اصطنعه السكاكي فقال وهو يتحدث عنه : « والتشبيه - وإن لم يكن من باب المجاز في شيء - إلا أنني لأوردته لأمرين :

أحدهما : أن يكون نواة لمن يسلك سبيل الاستعارة والتعميل ، لأنه كالأصل لما وهما كالفرع له .

والثاني : إنه ركن من أركان البلاغة لاخراج الخلق إلى الخلق وإدخاله البعيد من القريب » .^(٣)

ولكن البلاغيين بحثوه في علم البيان واعتبروه من أهم مباحثه بل اعتبره

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

(٢) التكميل ج ٣ ص ٥١٨ .

(٣) الاصطلاح في شرح مقامات الحريري ص ٥ .

السكاكي أصلاً" ثالثاً من أصول البيان وقادّمه على جميع الأصول . وحدل المولى عصام غايه فقال : « إن ما قرره السكاكي يستلزم تقديم التشبيه على الاستعارة وجوباً وعلى المجاز استحساناً كي لا يقع الفصل به بين أنواع المجاز . ولما أخذ أصلاً" ثالثاً فلا يستدعيه أصلاً" . بل الواجب أن يجعله مقبلة خارجة عن مقاصد هذا الفن » . وساق غيره قائلا : « بانه — وإن كان في الحقيقة مقدمة خارجة — ولكنه لكثرة مباحته وأقسامه وصيوع تفاصيله وأحكامه وتشعب فروعه وقوة تنمعه في الخيال البيانية قد ارتضى عن أن يجعل مقدمة . فلهذه الضرورة قد اتخذ أصلاً" ادعائياً لا حقيقياً . ولا يلزم عليك أن" في جعل التشبيه أصلاً" ثالثاً من البيان بهذا القدر تكلفاً بارداً أراد السكاكي ترويضه بالمبالغة في العبارة حيث قال هناك : « فلا بد أن نأخذ أصلاً" ثالثاً ، مع أنه قال في الاصول الحقيقية المجاز والكتابة : « فلا علينا أن نتخذ هذا أصلياً »^(١) وهذا التقسيم لا يستقيم للبالغين ما داموا يعرفون بأن التشبيه مقصد أساسي في البيان والله وسيلة لبعض أنواع المجاز .

وهكذا حدد السكاكي فنون البلاغة وضبط أصولها . ولكن كيف أبرزها ؟ إن الاستعارة تعتمد على التشبيه فلا بد أن يقدمه ، لأنه « إذا مهتت فيه ملكت زمام التدرج في فنون السحر البياني » . ولما كان طريق الانتقال من المألوم إلى اللازم واضحاً بفسه . ووضح طريق الانتقال من اللازم إلى المألوم إنما هو بالغير وهو العلم بكون اللازم مساوياً للمألوم أو أحسن منه — قدّم السكاكي الاستعارة وأخّر الكتابة ، لأنها بالنظر إلى هذه الجهة تآزلة من المجاز منزلة المركب من المفرد . وبذلك كانت مباحث علم البيان عنده : التشبيه والمجاز والكتابة . وشعر بهذا التكلف في حصر مباحثه فقال : « والظلوب بهذا التكلف هو الضبط فاعلم » .^(٢)

(١) طرح الفوائد المتأخرة ص ٩٥ . نقلاً عن عن النسخة ص ٢٥ .

(٢) منتجع العلوم ص ١٤٧ ، ويظهر كذلك : البلاغة عند السكاكي ص ١٤٧ وما بعدها .

القزويني :

ولما جاء الخطيب القزويني (- ٧٣٩ هـ) وجد الطريق معبداً ، ووجد فنون البيان قد انحصرت واستقرت ، فسار على هدى السكاكي وعرف البيان بقوله : « هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضح الدلالة عليه » ^(١) . وكان قوله : « بطرق مختلفة في وضح الدلالة عليه » مدعاةً للكلام في الدلالات والحديث عن شروط دلالة الالتزام . وذكر أن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة لا يتأتى بالدلالة الوضعية ، لأن السامع إن كان عالماً بوضع اللفاظ لم يكن بعضها أوضح " دلالة " من بعض ، وإلا لم يكن كل واحد منها دالاً . وإنما يتأتى بالدلالات العقلية بفوارز أن يكون للشيء لوازم بعضها أوضح لزوماً من بعض ^(٢) . وظن بعض شراح « التلخيص » أن دلالة التضمن ليست كدلالة الالتزام ، ولذلك قال بهاء الدين السيكي : « وليس الأمر كذلك بل الذي يظهر أنها تتأتى بالدلالة العقلية تضمناً كانت أم التزاماً » ^(٣) .

وقسم القزويني البيان كما قسمه السكاكي ، لأن اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز وإلا فهو كتابة . ثم المجاز منه الاستعارة وهي ما تبنى على التشبيه فتعبر عن التعرض له . فالتعريض المقصود في التشبيه والمجاز والكتابة . وقدم التشبيه على المجاز لإيتاء الاستعارة عليه . وقدم المجاز على الكتابة لزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل . ولعل هذا سبب إدخال الكتابة في البيان ، لأنها تحتاج إلى قرينة تدل على المعنى المراد منها كما أن المجاز يحتاج إلى هذه القرينة . غير أن قرينة المجاز تمنع من إرادة المعنى الأصلي وقرينتها لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي .

وأعد البيان عند السكاكي والقزويني طابعاً علمياً وأصبح يدل على التشبيه والمجاز والكتابة بعد أن كان يشمل فنون البلاغة كلها عند المتقدمين .

(١) الألفاظ ص ٢١٢ .

(٢) ينظر مقدمة القزويني وشروح التلخيص ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٣) عروض الأراج (شروح التلخيص) ج ٩ ص ٢٧٩ .

الفصل الثاني

التشبيه

التشبيه من أقدم صور البيان ووسائل الخيال - وأقربها إلى الفهم والأذهان ،
ولذلك اعتبره بعضهم من الفنون التي تمثل المراحل الأولى من التصوير الأدبي
والربط بين الأشياء لتقريبها أو توحيدها أو إخفاء مسحة من الجمال .

وهذا الفن كغيره من المراحل كثيرة التطور فيها وأصبح من أهم وسائل
البيان عند العرب بعد أن تألفوا ودخلت الرفق حياثلهم وصاروا يرون ما لم يروه
في حياتهم الصحراوية .

وأذا نظرنا في عصور الأدب المختلفة وجدنا التشبيه أوضح الفنون وأكثرها
تعبيراً عن البيئة - وفي الشعر الجاهلي والإسلامي كثير من صوره وألوانه ،
وفي كتاب الله كثير من أنواعه جاءت لتصور المعنى بأبلغ تصوير - وهي صور
لم تأت حلية أو زينة لتضاف إلى التعبير وإنما هي جزء منه .

وكان تشبيهات القرآن أثر في كلام العرب فأغارها الشعراء في قصائدهم
وأخذها الكتاب أساساً لتصويرهم . وكانت - أيضاً - عمدة البلاغيين في
ضرب الأمثلة والموازنة بين فنون البيان . ولا يكاد كتاب في اعجاز القرآن أو

البلاغة والتقد ينحدر من الحديث عن تشبيهات القرآن . بل ذهب بعضهم إلى أنه من ذلك فألف الكتب الخاصة كأمين نالقا البغدادي (- ٤٨٥ هـ) صاحب « الجمال في تشبيهات القرآن » . وهو أول كتاب يصنع الآيات القرآنية التي توسعت بهذا الفن . ويدرسها دراسة فيها أصالة وذوق سليم ^(١) .

وزخرت أحاديث النبي - عليه السلام - بكثير من التشبيهات البديعة . ومعظمها يرجع إلى روح القرآن وصوره البانية التي أعجزت العالمين . ولكن هذا الفن أصبح عددا الشعراء في العصر العباسي وأخذوا يسرفون في استعماله ويكثرُونَ من صورهِ المحسوسة والمعلولة . وكان ابن المعتز على رأس هؤلاء الشعراء حتى اشتهر به وقال عنه عبد القاهر : « ابن المعتز حسن التشبيهات بديعها » ^(٢) . وحكي عن ابن الرومي أن لائماً لأمه فقال : ليم ! لم ! تشبه تشبه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزني في مثله . فأنشده في وصف الخلال :

فانظرُ اليه كزورقٍ من فِضةٍ قد أثقلته حمولةٌ من عُنُشُرٍ
فقال : زدني . فأنشده :

كـأنَّ أَقْربَوتَها والشمسُ فيه كـاليه
مـداهنُ من فِضةٍ فيها بَقايا غاليه ^(٣)

فصاح : وأتولاه . يا لله . لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وذلك إنما يصف ما عون بينه لانه ابن الخلفاء . وأنا أي شيء أصب ؟ ولكن انظروا إذا وصلت ما أعرف أين يقع الناس كلهم مني ؟ هل قال أحد قط أولع من قولي في قوس الغمام :

(١) انظر تعليقات كتاب الجمال في تشبيهات القرآن .

(٢) أمراء البلاغة ص ١٥ .

(٣) الأديبون : زهر أصغر .

وقد نشرت أبي السحاب وطارفاً
 على الجمر دُكتناً وهي خُصترُ على الأرض
 بطرزاها قوس الغمام بأفسر
 على أخضر في أخضر ومسط مبيض
 كأذيال حنود أقيان في غدا السمر
 مصبغة والبعض أقصر من بعض
 وقولي في قصيدة في صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس حيازاً مورت به
 ينحو الرقاقة مثل الملح بالهتتر
 ما ين رويتها في كتفه كسرة
 وبين رويتها زهراء كالقمر
 لا يفسد ما تداح بالسرة
 في صفحة لاء يرمى فيه بالحجر (١)

وأختم للدارسون بالتشبيه وأفردوا له الكتب كابن تقي البغدادي وابن أبي
 عون والكتاني الطيب وعلي الهندي وغيرهم من القدماء والمحدثين . ونظر
 إليه المعاصرون نظرة تختلف كثيراً عن نظرية السابقين . وكان عباس محمود العقاد
 من أوائل الذين نهوا إلى ما في نظرية القدماء من تمسك بالعقل في عقد الصلة
 بين أركان التشبيه مما أفسد الكثير من صورهم . وقد نسوا أن لهذا الفن تأثيراً
 نفسياً قبل تأثيره العقلي أو صحة أركانه وما بينها من ارتباط . وفي نقده لتشبيهات
 أحمد شوقي ثورة على الصور القديمة ، ودعوة إلى التجديد وخلق صور تقوم
 على التأثير النفسي . لأن التشبيه أن تطيع في وجدان سامعك وفكره صورة
 واضحة مما القطع في ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الاشكال والالوان

(١) ينظر مقدمة ج ٢ ص ٢٢٦ . ونظر الأديب ص ٤ .

فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بلداً كما تراها . وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبفوة الشعور وتيقظه وعمقه والسمع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يختار الشاعر على سواه^(١).

تعريفه :

جاء في لسان العرب : « الشَّبْهَة والشَّبَنَة والشَّبِيَة : المِثْل . والجمع أشباه . وأشبه الشيء الشيء » : مثله . ولشبهته فلاناً وشأبهته وأشبهه علي . وتشابه الشيطان والشيطان : أشبه كل واحد منهما صاحبه وشبهه إياه وشبهه به مثله . والتشبيه : التمثيل .

وجاء في مادة « مثل » : « مثل : كلمة تدل على . يقال : هذا مثله ومثله . كما يقال : شبيهه وشبهته بمعنى . قال ابن بري : الفرق بين المماثلة والمساواة تكون بين المختلفين في الجنس والتفريق ، لأن الصاوي هو التكافؤ في القدر لا يزيد ولا ينقص . فلا تكون إلا في المتفقين . تقول : نحوه كنحوه . وفقهه كلفظه . ولونه كألونه . وطعمه كطعمه . فإذا قيل : هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يساوي مثله . وإذا قيل هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة . والمثل : الشبه . يقال : مثل ومثل وشبهه وشبهته بمعنى واحد .

إن المعاجم المعروفة لم تحدد معنى التشبيه اصطلاحاً ، وإنما حددته لغة^(٢) ، ولم تفصل بينه وبين التمثيل بل نصت على أنهما شيء واحد . وإلى ذلك ذهب الزمخشري صاحب « الكشاف » وابن الأثير الذي نعى على العلماء السابقين الذين فرقوا بينهما وعقدوا لكل منهما باباً مع أنهما شيء واحد ، لأنه لا فرق

(١) الأبرار ص ٢١ . وينظر أصول من ألفه عند القدماء ص ٢٩ .

بينهما في أصل الوضع اللغوي . يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء . كما يقال : مثله به .^(١)

ولكن علماء البلاغة الآخرين ميزوا بين المصطلحين ، واعتدوا بتعريف التشبيه اعتماداً كبيراً وان كانت معظم تعريفاتهم متفقة في معناه وان اختلفت طرائق التعبير .

قال المراد : « واعلم ان التشبيه حاداً . فالأشياء تتشابه من وجوه وتباين من وجوه . وانما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع » .^(٢)

وقال قدامة بن جعفر : « إن الشيء لا يشبه نفسه ولا يغيره من كل الجهات . إذ كان الشيطان إذا تشابه من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة أحداً قصار الأكتان واحداً فيقي أن يكون التشبيه انما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معانٍ لعمهما وبوصفان بها . واقتراق في أشياء يتفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها . وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشريئين اشتراكهما في الصفات أكثر من افتراقهما فيها حتى يثني بهما إلى حال الاتحاد » .^(٣)

وقال الزماني : « التشبيه هو العقد على أن أحد الشيئين يسدّد مبدأ الآخر في حسن أو عقل . ولا يحكم التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس »^(٤) .

وقال أبو هلال العسكري : « التشبيه : الوصف بأن أحد الموصوفين

(١) الفكر السراج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) الكلام ٢ ص ٧٦٠ .

(٣) نقد الشعر ص ١٤٤ .

(٤) النكتة في أصول الكلام ص ٧٥ .

بنزوب مناب الآخر بأداة التشبيه (١٦) .

وقال الياقوتي : « وأما التشبيه : فهو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل » (١٧) .

وقال ابن رشيح القيرواني : « التشبيه : صفة الشيء بما قاربه وشأ كله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته » لأنه لو نسبته مناسبة كلية لكان إياه » (١٨) .

وقال السكاكي : « إن التشبيه مستدعٍ طرفين متشبهين ومتشبهاً به والمشتراك بينهما من وجه واقتراحاً من آخر » (١٩) ونقله ابن مالك في مصباحه (٢٠) .
وقال ابن الأثير : « التشبيه : هو أن يثبت للشيء حكماً من أحكام الشيء به » (٢١) .

وقال ابن أبي الأصميصي المصري : « التشبيه : عبارة عن العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال أو عقد » هكذا حد الرماني . وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره .

وحد التشبيه البليغ : إخراج الاختصاص إلى الاقتران بالتشبيه مع حسن التأليف » (٢٢) .

وقال الخطيب القزويني : « التشبيه : الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى » (٢٣) .

(١٦) كتاب الغنائين ص ٢٢٩ .

(٢٧) هذا تعريف الرماني السابق . نقله في يشر إليه . ينظر أجناس القرآن ص ٢٩٩ .

(٢٨) المصباح ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢٩) مفتاح العلوم ص ١٥٧ .

(٣٠) المصباح ص ٥١ .

(٣١) أمثل السائر ج ١ ص ٢٨٥ ، والجامع الكبير ص ٩٠ .

(٣٢) تحرير المعبر ص ١٥٩ ، وفتح القرآن ص ٤٥ .

(٣٣) الايضاح ص ٢١٢ .

وقال يحيى بن حمزة العلوي بعد أن ذكر تعريف المطرزي والسكاكي:
« التعريف الثالث وهو المختار أن يقال : هو الجمع بين الشئين أو الأشياء بمعنى
ما بواسطة الكاف ونحوها (١) » .

وقال الزركشي : « هو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه . وقيل : أن
تثبت للمشييه حكماً من أحكام المشبه به . وقيل : الدلالة على اشتراك شئين في
وصف هو من أوصاف الشيء الواحد كالطلب في الملك والقبض في الشمس
والنور في القمر . وهو حكم إضافي لا يرد إلا بين الشئين بخلاف الاستعارة (٢) » .

وهذه التعريفات كلها تؤدي إلى معنى واحد هو أن التشبيه ربط بين
شئين أو أكثر في صفة من الصفات أو أكثر . ولكن البلاغيين اختلفوا في
هذه الصفة أو الصفات ومقدار اتفاقها واختلافها ، فذهب قدماء بن جعفر إلى
أن أحسن التشبيه ما وقع بين الشئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفراطهما
فيها حتى يدنو بهما التشبيه إلى حال الاتحاد . وإن ذلك ذهب ابن رشيق ، لأن
المشبه لو ناسب المشبه به مناسبة كلية لكان إياه ، وقال ابن سنان : « وإنما
الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه ،
وبالفضل حتى يكون رديء التشبيه ما قلَّ شبهه بالمشبه به (٣) » .

ويرى بعضهم أن التشبيه يكون أحسن إذا كثرت جهات الاختلاف ،
ليكون مجال التخيل والتصور أبعد مدى ، وهذا حسن على أن لا يكون ذلك
الاختلاف عميقاً لئلا يكون التشبيه عامضاً يحتاج إلى وقفة طويلة وتأمل عميق من
غير حاجة يقدمها ذلك الإغراب . ولذلك ينبغي أن يكون الأديب دقيقاً في تشبيهاته
وأن يحسن الربط وعقد الصلة بين الأشياء ليؤدي معانيه على أحسن وجه
ويصور تخيلاتة تصويراً بديعاً .

(١) الفراء ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٤١٤ .

(٣) سر الصناعة ص ٢٩٠ .

التشبيه والمجاز :

واختلصنا في موقع هذا الفن من علم البيان ومبادئه بالمجاز . فمصدره السكّاكي لا يعتبره من علم البيان وإن بحثه فيه . لأن دلالته وضعية . وأعتبره كثير من البلاغيين ركناً أساسياً في بعث البيان . وذكر بعض من دار في فلك السكّاكي أن الاختلاف في فصوص الدلالة واختلافها موجود في التشبيه . ولذلك فهو فن مستقل في علم البيان قصد أن توقف عليه بعض أبوابه ، لأن توقف بعض الأبواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقادعة للفن (١) .

وحاولوا أن يعلموا سبب تولد مقصداً لا مقصداً للاستعار . غير أنهم لم يدعوه فيه . وكان من الأحسن أن يعتبروه فناً مستقلاً من فنون البلاغة وبذلك يرتعون أنفسهم من غناء الخطيب .

لما اعتبره مجازاً أو غير مجاز فقد اختلصوا فيه . وذهب بعضهم إلى أنه ليس مجازاً . ولعل عبد القاهر الجرجاني كان من أوائل الذين صرحوا بذلك فقال : « إن كل متعاضد تشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى فرضه . فإذا قلت : « زيد كالأسد » . وهذا الخبر كالتشبيص في الشهرة » . (٢) أي كالسيف في القضاء . لم يكن نقل اللفظ عن موضوعه . ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون في القلبي تشبيه إلا وهو مجاز وهو محال . لأن التشبيه معنى من المعاني وله حروف وأسماء تدل عليه فإذا صرح بذكر ما هو موضوع الدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالتشبيص في سائر المعاني فاعرفه (٣) . . وثبته في هذا الرأي فخر الدين الرازي والمطرزي والسكّاكي وابن الزمكاني والمزوي وشراخ النخعي . وإن ذلك أشار ابن قتيبة الجوزية بقوله : « وذهب المحققون من الأئمة علماء هذه الصناعات وحذاقها إلى أن التشبيه ليس من المجاز . لأنه معنى من المعاني وله حروف

(١) مذهب الفلاح : حاشية السامي (الروح المنطوق) ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٢) في الزمكاني ص ٢٢١ .

وألفاظ تدل عليه ^(١) . وقال الرذكشي : « والمحققون على أنه حقيقة . قال
الترغاثي في المعيار : « التشبيه ليس بمجاز ، لأنه معنى من المعاني وله ألفاظ
تدل عليه وضعا . فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه ، وإنما هو توطئة لمن
سلك سبيل الاستعارة والتشثيل . لأنه كالأصل فما وهذا كالفرع له . والذي
ينبع منه في حيز المجاز عند البيهقي هو الذي ينبغي ، على حد الاستعارة .
وتوسط الشيخ عز الدين فقال : « إن كان يحرف فهو حقيقة ، أو يحذف فهو
مجاز . بناء على أن الحذف من باب المجاز ^(٢) » .

وذهب بعضهم إلى أن التشبيه مجاز ، وإن ذلك أشار ابن قيم الجوزية
إليه : « والذي عجز جمهور أهل الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز
وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير إليه ^(٣) » . ولعل ابن رشيق أشهر من
صرح بذلك فقال : « وأما كون التشبيه داخلًا تحت المجاز فلان التشابيهين في
أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقارنة على المساعدة والاصطلاح لا على الحقيقة ^(٤) .
وقرر ابن الأثير أن الذي انكشف له بالنظر الصحيح أن المجاز ينقسم قسمين :
توسع في الكلام وتشبيه . والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف وهو
الاستعارة . ثم قال : « وإن شئت قلت : إن المجاز ينقسم إلى توسع في الكلام
وتشبيه واستعارة . ولا يفرح عن أحد هذه الأقسام الثلاثة فأين وجد كان
مجازاً » . ثم قال : « ألا ترى أنه إذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً ^(٥) » .

وحسم العاوي الموضوع بعد أن تحدث عن التشبيه فقال : « والمختار عندنا
كونه معنوداً في علوم البلاغة لما فيه من الدقة والطلاقة ولا يكتسب به اللفظ

(١) الفوائد ص ٤٥ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٤١٥ .

(٣) الفوائد ص ٥٤ .

(٤) العمدة ج ١ ص ٢٦٦ .

(٥) اللؤلؤ ج ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

من الروني والرشاقة ، ولاشتماله على إخراج الخفي إلى البلي وإدخاله البعيد من القريب ، فأما كونه معدوداً في المجاز أو غير معدود ، فالأمر فيه قريب من قريب بعد كونه من أبلغ قواعد البلاغة وليس يتعلق به كثير فائدة ^{١١} .

والحق أن التشبيه مجاز لأنه يعتمد على عقد الصلة بين شيئين أو أشياء لا يمكن أن نفسر على الحقيقة ، ولو فسرت كذلك لأصبح كلفاً ، وهو الفن الكثير الاستعمال في كلام العرب . ويبدو أن عدم الانتقال فيه من معنى إلى آخر كما في الاستعارة دعاهم إلى إخراجهم من المجاز الذي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له أو استناد أمر إلى آخر لم تكن له صلة به .

أركانها :

للتشبيه أربعة أركان هي :

١ - المشبه

٢ - المشبه به

٣ - أداة التشبيه

٤ - وجه التشبيه .



طرفا التشبيه :

يطلق على المشبه والمشبه به اسم « طرفي التشبيه » وهما الركنان الأساسيان في التشبيه . وينقسم باعتبارهما إلى أربعة أقسام :

الاول : أن يكونا حسيين ، والمراد بالحسي ما يدرك هو أو مادته بأحدى الحواس الخمس : الظاهرة - البصر والسمع والشم والذوق واللمس - .

(١) الخليل ج ١ ص ٢٩٦ .

ومثال الاشتراك في الصفة البصرة قوله تعالى : « وَعَبُدْنَاهُمْ فَأَصْبَحَتِ
الْأَرْضُ عَمِينَ ». كأنهم "بَيْضٌ مَكْتُونٌ" (١) . ولعمري تشبيه اخذ بالورد
في البياض المشرب بالحمرة ، والشعر باللؤلؤ في سواده .

ومنه قول الشاعر :

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاءِ أَوَامِعاً
دُرٌّ نُشْرٌ عَلَى يَسَاطِرِ لُزْزِقٍ

فشيء آدم السماء في صفاء زرقته وبياض النجوم ، بدرر مثورة على
يساط أزرق .

ومثال الاشتراك في الصفة المسوعة تشبيه الأصوات الطيبة في قراءة القرآن
الكريم بالزمامير .

ومثال الاشتراك في الصفة اللذوقة قول الشاعر :

كَأَنَّ السَّادَمَ وَصَوْبَ الغَمَا
مِزْجَ وَرِيحِ الْخَزَالِي وَذَوْبِ الْعَتَسَلِ
يُغْلَى بِهِ بَسْرُهُ أَيْاهِهَا
إِذَا النُّجُومُ وَسَّطَتْ السَّمَاءَ اعْتَدَلِ

ومثال الاشتراك في الصفة المشمومة تشبيه النكهة بالعبر . وتشبيه الاخلاق
الكريمة بالعطر .

ومثال الاشتراك في الصفة اللاموسة تشبيه الجسم بالحرير . وحين السوائل
بالديباج . ومنه قول الشاعر :

هَذَا بَشَرٌ مِثْلَ الْحَرِيرِ وَمَنْطَقٌ
رَحِيمٌ الْخَوَاشِي لَا هَرَاءُ وَلَا نَزْزُ

(١) العنات ٤٨ و ٤٩ .

الثاني : أن يكونا عقليين لا يدرك واحد منهما بالآخر بل بالعقل . كتنبيه العلم بالحياة . والجهل بالوُت . والفقر بالكفر .

الثالث : تشبيه العقول بالحواس . كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ ﴾^(١) . وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْيُنُهُمْ كَتَمَتْهُمْ أَتَنَبَّهُمْ بِرَبِّهِمْ أَوْفَعُ الْبَصَرِ ﴾^(٢) . وقت تشبيه الحجة بالدور .

الزاج : تشبيه المحسوس بالعقول - ومنعه بعضهم لأن العقل مستفاد من الحس . قال قراشي : « إنه غير جائز لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها ولذلك قيل : « من قد حساً فقد فكّر » علماً » . وإذا كان المحسوس أصلاً للعقول فنشبيهه به يكون جعلاً للفرع أصلاً وللأصل فرعاً ، وهو غير جائز . ولذلك لو حاول محاول المبالغة في وصف الشمس بالظهور والملك الغيب فقال : « الشمس كالخجة في الظهور » و « الملك كالأعلا في فلان في الغيب » كان سخيلاً من القول (١٣) .

وأما ما ذكره بعضهم ، ومن أمثله قول القاصي التميمي :

وَكَيْفَ تَتَذَكَّرُ إِذْ أُولُو الْأَرْحَامِ يُخَالِفُونَ مَا يُغَايِبُ عَنْكُمُ الْمُفَكِّكُ الْمُنْكَرُ

وقول أبي طالب الرئي :

وَلَقَدْ ذَكَرْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ

يَوْمَ الْحُكْمِ يُنَادِي بِصَوْتٍ عَظِيمٍ

ويقول العلوي الأصمعي :

$$= 2\lambda \frac{d}{dt} \ln \Gamma(\lambda)$$
 $\cdot \text{ i.e. } \frac{1}{\sqrt{2}} \frac{1}{\sqrt{2}} (1)$

(٥) نسبة المأخوذ من ٢٩ . ويظهر الجدول في علوم القرآن ج ٢ ص ٤٦٠ .

كأنَّ القصدَ الدَّارَ من تَحْتِ غِيَمِهِ
فَإِذَا مِنَ السَّمَاءِ بَعَثَ وَمَسْبُوحِ
وقول التوحي :

لَمَّا شَرَى الْبَدَنُ قَدْ وَاعَتْهُ عَسَاكِرُهُ
وَعَسَكَزَ آخِرَ كَيْفِ الصَّعَابِ مُتَعَلِّقًا
فَالْكَافُ تَحْتَ غَرِيبِ السَّلَاحِ حَاسِبُهَا
قَدْ أَلَسَتْ حِكْمًا أَوْ غَشِيَتْ وَرَكْبًا
فَانْهَضَ بِهَا إِلَى فَحْمٍ كَأَنَّهُ حَسَا
فِي الْعَيْنِ عَالِمٌ وَالصَّاعِدُ قَدْ انْقَسَا
جَاءَتْ وَتَحْنُ كَلْبُ الْعُصْبِ حِينَ صَلَا
بِرَّةً أَهْضَمْنَا كَلْبُ الْعُصْبِ إِذْ عَشِقَا
وقول الآخر :

رَأَيْتُ لِيْلَ كَسَاءَهُ أَوَّلِي فِي إِنْ يَدْرُحْتُ عَيْنَكَ بِالْخَرَمَانِ
وقول الصاحب بن عباد حين أهدى العطر إلى القاضي الجرجاني :
بِأَلْبَتِ الْقَاضِي الَّذِي لَفِيَ لِسَهُ فِي قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ مُشْتَاقَ
أَعْدَيْتَ عَطَرَ أَمِثَالٍ طِيبَ لِسَانِهِ فَكَأَنَّمَا أَعْدَيْتَ لَهُ إِخْلَاقَهُ^(١)

وعلى الرأزي حمل هذه التشبيهات بقوله : (: واعلم أن الوجه الحسن في
هذه التشبيهات أن يقدر المعقول محسوساً ويُعَلَّ كالأصل في ذلك المحسوس على
طريق المبالغة وحينئذ يصح التشبيه) .^(٢) وهذا اللون يحتاج إلى تعليل أكثر من

(١) انظر هذا البيت في نزهة الأجنال ص ٤٩ - ٥٠ . وراجع ص ٢٢٠ وما بعده . وراجع
الأجنال ص ١٥٣ . وراجع في علوم القرآن ج ١ ص ٤٢٠ .
(٢) نزهة الأجنال ص ٥٠ .

غيره ولذلك نجد له أمثلة كثيرة حينما بدأ الشعراء العباسيون بصورون المعاني تصويراً يعتمد على الخيال . وقد أجاد أبو نواس في قوله :

معتكفة صاغ المزاج لرسها أكاليل دُرٍّ ما لناظفها سلكُ
جبرت حركات الدهر فوق سكونها فلذبت كذوب البير أغلقت له السبكُ
وأدرك منها الفائزون بقرصة من الروح في جسم أضرب به أنفكُ
وقد خفيت من لطفها أو كآتتها بقايا بغير كاد بذهيبه الشكُ

وقوله :

ولدمسان سقيت الراح صرُفها ومسترل الليل مُستدرك السجوفِ
صكت وصكت زجاجتها عليها كغنى دق في ذهن لطيفِ

وقوله :

فتشئت في مفاصيلهم كتمشي البُدء في السقم
والغريب أنهم لم يهتموا بهذا اللون من التشبيهات مع أنه أكثر تحيلاً وإبداعاً . وقالوا إن تشبيه الحسوس بالحسوس هو اللطيف . وفي ذلك تقليل لأهمية التصور والابتداع . وإذا كان تشبيه الحسوس بالمعقول لم يقع في كتاب الله فليس معنى ذلك أن هذا اللون ساقط . لأن القرآن الكريم ليس مستودعاً لجميع الصور والتشبيهات . ولأنه اتخذ هذا الفن وسيلة لتقريب المعاني وتأكيدها وما جاء فيه من صور يغني عن غيرها .

وذكر البلاغيون أوليئ من التشبيه هما : الخيالي والوهمي ، وفرقوا بينهما فقال العلوي : « والفرقة بين الأمور الخيالية والأمور الوهمية هو أن الخيال أكثر ما يكون في الأمور المحسوسة ، فاما الأمور الوهمية فانما تكون في الحسوس ، وغير المحسوس مما يكون حاصلاً في الوهم واختلا فيه ^(١) » .

(١) المزارع ١ ص ٢٧٣ . ولقرئين نظرة أخرى في الخيال والوهم (ينظر الصورة الرمزية ص ٢٨٨ وبعدها) .

وعلى هذا الاساس كان التشبيه الخيالي هو المعلوم الذي فرض مجتمعاً من عدة أمور . كل واحد منها يدرك بالحس ، كقول الشاعر :

«وكان» محمر الشقيق إذا تصوب أو تصعد»

«أعلام» ياقوت شيراز على رماح من زبرجد»

وقول الآخر :

«كلتسا» بإسبط البدر نحو نيلوفر تبدي

«كديساييس» عتجد قشبهما من زبرجد

وأدخلوا هذا النوع في تشبيه الحسي بالحسي لأن أجزاءه مدركة بالحس وإن كانت الصورة كلها غير موجودة .

وكان التشبيه الوهمي هيرما لا وجود له ولا لأجزائه كلها أو بعضها في الخارج . ولو وجد لكان مدركاً بأحدى الحواس . كقوله تعالى : «إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم» . «كلعها كاله رؤوس الشياطين» (١) ، فقد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد كما استقر في نفوسهم من حسن الخور العين ما صار بمنزلة المشاهد . ولذلك ربط سبحانه وتعالى بين شجر الرقود ورؤوس الشياطين .

ومنه قول امرئ القيس :

أيقنتي والمشرق مضاجعي - ومشتونة زرق كآنياب أحوال

وأدخلوا هذا النوع في تشبيه العقلي بالعقلي ، لأنه لا يدرك بشيء من الحواس الخمس الظاهرة مع أنه لو أدرك لم يكن مدركاً إلا بها .

وجوه التشبيه :

ويقع التشبيه أيضاً على وجوه منها :

(١) الصادق ٦٨ و ٦٩ .

الأول : إخراج ما لا تقع عليه الخاسة إلى ما تقع عليه . كقوله تعالى :
 « والذين كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِفِجَةٍ يَبْعَثُهُ الظَّمآنُ مَاءً ^(١) » .
 فأخرج ما لا يُحَسُّ إلى ما يُحَسُّ . والمعنى الذي يصعبهما بطلان المشويع مع
 شدة الحاجة وعظم الفاقة . ولو قال : يصيبه الرائي ماءً . لم يقع موقع قوله :
 « ظمآن » ، لأن الظمآن لشدة فاقته إليه وأعظم حرصاً عليه .

ومعنى قوله تعالى : « مَكَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ^(٢)
 اشْدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَارِفٍ ^(٣) » . والمعنى الخانع بينها بعد التلاقي
 وعدم الانقضاع .

الثاني : إخراج ما لم يُجر به العادة إلى ما جرت به . كقوله تعالى : « إِنَّ
 أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمٍ نَحْشُرُ مُنْقَلَبِ » . فنشُرُ الفاعل
 كأنهم أحتارُ نَحْشُرُ مُنْقَلَبِ ^(٤) » . فأجتمع الامران في قلع الريح فما
 وأهلا كهما والتخوف من تعجيل العقوبة .

الثالث : إخراج ما لا يعرف بالبدنية إلى ما يعرف بها . كقوله تعالى :
 « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء » . « كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ ^(٥)
 بَيْتاً ^(٦) » . والجامع بين الأمر ضعف المعتد . والقاعدة التخيير من حمل
 النفس على التفرير بالعمل على غير أساس .

الرابع : إخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها . كقوله تعالى :
 « وَلَهُ الْخَزَايِرُ السَّيِّدَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ^(٧) » . والجامع بين الأمرين

(١) النور ٢٩ .

(٢) ابراهيم ١٨ .

(٣) القمر ١٩ و ٢٠ .

(٤) العنكبوت ٢٤ .

(٥) ارحس ٢٤ .

العلم ، والملائكة الذين عن القدرة في تسخير الاجسام في أعظم ما يكون من
الطاقة (١).

القاعدة :

وينقسم التشبيه باعتبار طريقه : أيضاً - إلى أربعة أقسام :
الأول : تشبيه المفرد بالمفرد . وهو ما طرفاه مفردان كتشبيه الخلد
بالورد . وقوله تعالى : « هُنَّ لِيَّاسٍ لِّكَمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لِّهِنَّ » (٢)
وقوله : « وَجَعَلْنَا الْمَرْيَةَ لِيَّاسًا » (٣) . فثبه الليل باللياس وذلك أنه يستمر
الباس بعضهم عن بعض لمن أراد هرباً من عدو أو لئلاً لعدو أو إغواءً ما لا
يجب الاطلاع عليه من أمره .

ومنه قول المتنبي :

وإذا اهتز للشهيد كان يحترأ

وإذا اهتز لوعى كان تضلأ

وإذا الأرض اظلمت كان شمساً

وإذا الأرض ائتملت كان وئلاً

وقول الجعري :

لَيْسَ قَمَرٌ وَقَمَرٌ فِي تَدَايٍ وَوَلَحَى

كَالرَّحْدِ وَالْبَرْقِ نَحْتُ الْعَارِضِ الْبَرْدِ

وقوله :

في متحرك غنيبك حال بسه الفتا

بين القادح إذا اتحن ضلوعها

(١) انظر كتاب عهد الدين ص ٢٥٢ . وشرح القوافي ص ٥٥ . والبرهان في علوم القرآن ص ٢٢

ص ٢٢٢ .

(٢) البقرة ١٦٥ .

(٣) البقرة ١٦٠ .

الثاني : تشبيه المركب بالمركب ، وهو ما طرفاه كثرتان مجتمعتان ، كقول أبي تمام :

متعشراً أصبحوا حصون المعالي
ودروع الأحساب والأعراض

فقوله : « حصون المعالي » من التشبيه المركب ، وذاك أنه شبههم في منعهم المعالي أن ينالها أحد سواهم بالحصون في متعتها من بها وحمايتها ، وكذلك قوله : « دروع الأحساب » .

وهذا مما حلفت فيه الأداة ، أما ما جاء منه مظهر الاداة فكقوله تعالى : **وَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَهْوَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ** ^(١) ، تقديره : إن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد نارا في ليلة مظلمة بمقارة فاستضاء بها ما حوله فانقضى ما يخاف وأمن ، فبينما هو كذلك إذ طفت ناره فبقي خالفا متحيراً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتز بعزها وأمن على نفسه وماله وولده ، فإذا مات عاد إلى الخوف وبقي في العذاب والنقمة .

ومنه قول أبي تمام :

خَلَطَ الشَّجَاعَةَ بِالْحَيَاءِ فَأَصْبَحَا
كَالْحُسْنِ شَيْبَ لُحْمٍ بِدَلَالِ

وقول مسلم بن الوليد :

تَلَقَى الْمَيْسَةَ فِي أُمْتَالٍ عَدَّتْهَا
كَالسَّيْلِ بِقُلْفِ جَنْمُودٍ بِجَلْدِ

وقول العباس بن الأحنف :

(١) البقرة ١٧ .

لا جزى الله دمع عيسى خيراً ؟
 وجزى الله كل خير لسانى
 نعم دمعى فليس يكتم شيئاً
 ووَجَدْتُ الآنَ ذا كتمانٍ
 كنت مثل الكتابِ أخفاء طي
 فاستدلوا عليه بالعنوانِ

ومنه قول الحسين بن مطير يرثي معن بن زائدة :

فنى عيش في معروفة بعد موته
 كما كان بعد السيل مجراه مترعاً

الثالث : تشبيه المفرد بالركب ، كقوله تعالى : « الله نور السموات
 والأرض مثل شجرة كسكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ،
 الزجاج في كتف دُرِّي يوقد من شجرة مباركة زينونة لا
 شرقية ولا غربية »^(١) .

وقوله : « مثل الدين ككتروا بررتهم أعدلهم كترما » اشتدَّت بعم
 الريح في يوم عاصف^(٢) .

ومنه قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
 له عن عذوق في ثياب صدق
 وقول أبي تمام :

(١) النور ٣٥ .

(٢) البراءة ١٨ .

خُلْدُهَا مُشْرَكَةُ الْفَوَافِي رِيحُهَا
لِسَوَاحِجِ النُّعْمَاءِ عِزُّ كُنُودِهَا

كَالْأَنْبَرِ وَالرَّجَاجَانِ أَلْبَا نَفْسُهُ

بِالشَّدْرِ فِي عِلْقِ الْغَدَاةِ السُّرُودِ

الرَّابِعُ : تشبيه المركب بالسرور . كقول أبي تمام في وصف الرِّيح :

يَسَا صَاحِبِي تَقْدِمِيَا نَفْرِيكُمَا

تَرِيَا وَجْهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَدُورُ

تَرِيَا نِسَاراً مَشْهُماً قَدْ شَابِهَ

زَهْرَ الرِّبِيِّ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقَشِّرُ

وهذا تشبيه شيئين مشتركين بشيء واحد . أما تشبيه شيئين متفردين بشيء

واحد فكقول المتنبي :

تُشْرِقُ أَعْرَافُهُمْ وَأُوجُهُهُمْ

كَأَنَّهَا فِي قُصُوفِهِمْ شَيْعَمٌ

فقد شبه إشراق الأعراض وإشراق الوجوه بإشراق الشيعة .

وإذا تعدت طرفاً التشبيه فهو إما :

١ - ملفوف : وهو ما أتى فيه بالمشبهين ثم بالمشبه بهما . كقول امرئ القيس :

القيس :

كَأَنَّ قُلُوبَ الْعُيُورِ رَاحِبُتٌ وَبَاسٌ

لَدَى وَكُثْرُهَا الْعَنَابُ وَالْحَشِيفُ الْبَاسُ

٢ - أو مفروق : وهو بخلاف ذلك كقول المفضل الأكبر :

الْتَشَرُّ مَسَكٌ وَالْوَجُوهُ دَنَابُ

يُرُّ وَأَطْرَافُ الْأَكْفَادِ عَسَمُ

وقول المتن :

بذات قمرًا ومالت حنوط بسان
وفاحت عثيرًا وزلت حمرالا

ثم يقسم إلى :

١ - تشبيه التسمية : وهو تعدد المشبه دون المشبه به ، كقول الشاعر :

مبيدٌ الخبيب وحسالي كالأهمل
وتغمره في صكباء وأدمعي كالألالي

٢ - تشبيه الإجماع : وهو تعدد المشبه به دون المشبه كقول البحري :

كأنما يمشو على ثوب
وقول امرئ القيس :

كسبان الشام وحبوب القفا
م وريح الخزامى ونشر القطر
يعلى بها بئرًا أنابيسا
إذا طرب الطائر المستجير^(١)

أداة التشبيه :

وهي اللفظة التي تنقل عن المماثلة والمشاركة . وهي ثلاثة أنواع :

الأول : أسماء ، وهي : مثل وشبه وشبيه ومثل وغيرها . ومثلها قوله تعالى : " ما يُخْفِضُونَ في هذه الحياض الدنيا كمدىل ربح فيها

(١) ينظر مثل البحر ج ١ ص ٢٩٤ وما بعدها ، والفتح الجزء ص ٩١ ، والألف ص ٢٤٢ وما بعدها .

صِرَ^(١) ، وقوله : « مَكْلَهُمْ كَمَكْلَرِ الَّذِي اسْتَرْقَدَ نَارًا^(٢) » .

الثاني : أفعال ، وهي : حسب ، وخال ، وطن ، وبشه ، وتشابه وغيرها ، ومثالا قوله تعالى : « يَحْسِبُهُ الْفُلُكُنُ مَاءً^(٣) » ، وقوله : « يَطْبِئُنُّ^(٤) إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَلْهَآ تَسْعَى^(٥) » ، وقوله : « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْكَ^(٦) » .

الثالث : حُرُوف ، وهي بسيطة كالكتاب في قوله تعالى : (كَتَرَمَادِ اسْتَدْنَتْ بِهِ الرِّيحُ^(٧) » ، وقوله : « كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ^(٨) » ، وقوله : « كَالَّذِي يَنْتَقِي مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ^(٩) » .

أو مركبة وهي « كَانَ » ، وقد قال قوم هي « إِنَّ » دخلت عليها كاف التشبيه فتحت وقد تحذف^(١٠) ، ومثالا قوله تعالى : « كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى فَرْسَتِهِ^(١١) » ، ومثالا المضافة قوله تعالى : « طَاعَهَا كَأَنَّ رُؤُوسَ الشَّيَاطِينِ^(١٢) » .

وجاءت « كَذَلِكَ » للتشبيه في القرآن الكريم كقوله تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » . حتى إذا أَلْقَيْتُ مَسْحَابًا

(١) آل عمران ١١٧ .

(٢) البقرة ١٧ .

(٣) النور ٣٩ .

(٤) طه ٦٦ .

(٥) البقرة ٩٠ .

(٦) إبراهيم ١٨ .

(٧) آل عمران ١٦ والأفقال ٥٢ و ٥٤ .

(٨) البقرة ٢٦٤ .

(٩) الصاحي ص ١٦٦ .

(١٠) يونس ٦٢ .

(١١) الصافات ٦٥ .

ثَقَلًا سَفْهًا لِيَكُنْ مَيْتٌ فَأَتَرَكْنَا بِمِ الْمَاءِ فَحَرَجْنَا بِمِ مِنْ كُلِّ
الشُّرَكَاتِ . كَذَلِكَ نَخْرِجُ النُّوْثَى لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ تَكْثُرُونَ (١) .

والبلاغيون يقسمون التشبيه باعتبار الأداة إلى :

١ - مُرْسَلٌ : وهو التشبيه الذي ذكرت فيه الأداة . كقول المتنبي :

كَالْبَدْرِ مَنْ حَيْثُ الْفَتْحُ رَأَيْتَهُ

يَبْدِي إِلَى عَيْنِكَ نَوْرًا ثاقبًا

كَالشَّمْسِ فِي كَنَدِ السَّمَاءِ وَخُطُوبِهَا

يَقْطِي الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَقَارِبًا

كَالْبَحْرِ يَلْدِفُ الْكَرِيبَ جَسْوَاهِرًا

جَوْدًا وَيَبْعَثُ الْبَعِيدَ سَحَابِيهَا

٢ - مُؤَكَّدٌ : وهو ما حذفته منه الأداة . كقول المتنبي :

بَدَأْتُ قَهْرًا وَمَالَتُ غَمَضَةً بَانَ

وَفَاحَتُ عَثِيرًا وَرَدَّتْ غَسْرَالًا

وقوله :

تَرَوْنِي أَلِيَّ بَعِيْنٍ الطَّبِيِّ مَجْهَشَةً

وَتَمَسُّحُ الْبَطْنِ مَرَقَ الْوَرْدِ بِالْعَتَمِ

وجه التشبيه :

وهو الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به تخفيفاً أو تخيلاً . فالتخفيف
كتشبيه الشعر بالآل في السواد . والتخييل كتشبيه السيرة بالمسلك . والأخلاق
بالعبر .

(١) الإعراب ٤٧ .

ووجه الشبه قد يكون واحداً حصياً كاللعومة في تشبيه البشر بالخرير . أو واحداً عقلياً كالهداية في قوله - صلى الله عليه وسلم - : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . أو متعدداً كقول أبي بكر الخالدي :

يا شبيهة البشر جنباً وصبياءاً ومنالاً
وشبيهة الغنم أيساً وقوامساً واعسداً
أنت مثل الزراف لولاً ونيساً ومسللاً
إركساً حتى إذا مساً سرگساً بالقرب إلا

وقد خلاص القلدهاء في بحث عقلية حينما تعرضوا لوجه الشبه . وكان حديثهم عنه لا يمس الجانب الأدبي مساً قوياً ولذلك أعرضنا عن ذكره ^(١) .
ونقسم التشبيه باعتبار وجهه إلى :

١ - مجمل : وهو التشبيه الذي لم يذكر وجهه كقول النابغة الذبياني :

فأنتك شمسٌ والملك كواكبٌ
إذا ضللت لم يبدأ مينهٌ كوكبٌ

وقول الآخر :

إنما الدنيا كبيتٍ نسجه من عجوت

٢ - مفصل : وهو ما ذكر فيه وجه الشبه كآيات أبي بكر الخالدي - وقول الآخر :

وتغره في صامسٍ ولومسي كاللؤلؤ

وقول أبي العلاء المعري :

(١) انظر ملحق المأوه من ١٥٩ ، والنسخ من ١٦٠ ، ونبذة الجمل من ١٦٥ .

أنت كالشمس في الضياء وإن جسا
وَزَّاتَ كَيَوَانَ في علوِّ المكسرات

وينقسم أيضاً باعتبار وجهه إلى تشبيه غير تمثيلي وهو ككثير من الأمثلة السابقة ،
وتشبيه تمثيلي هو ما اتصف ببعض الشروط التي وضعها البلاغيون حينما
ميزوا بين النوعين وإن اختلفوا فيها .

التمثيل :

حدث أبو عبيدة عن التمثيل وهو عنده التشبيه أو تشبيه التمثيل ، قال في
تفسير قوله تعالى : « على شككاً جُرُفٌ هارٍ ^(١) » : « وهما الآيتان ههنا
التمثيل : لأن ما يتوه على التفوك أثبت أساساً من البناء الذي يتوه على الكفر
والنفاق فهو على شفا جرف ، وهو ما يعرف من سيول الأودية فلا يثبت
البناء عليه ^(٢) » .

وليس في هذا التفسير ما يعطي فرقاً واضحاً بين الموزون ، ولعل قدامة بن
جعفر كان أول من عدَّ التمثيل مخالفاً للتشبيه ، وهو عنده من نوع التلاصق
اللفظ والمعنى . قال في تعريفه : « هو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع
كلاماً يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام مبنين عما أراد أن
يشير إليه ^(٣) » . ومثال ذلك قول الرماح بن ميادة :

ألم تنك في بطن يسديك جعلني
فلا تجعلني بعدهما في شمالك

(١) النوبة ١٠٩ .

(٢) مجاز القرآن ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) لند الشعر ص ١٨٢ .

ولو أنني أفعلت ما كنتُ هالكاً

على غصنك من مراملات حرمالك

فقدت عن أن يقول في البيت الأول : إنه كان عنده مقدماً فلا يخبره .
أو مقرباً فلا يبعده . أو مهتبي فلا يعتبه . إلى أن قال : إنه كان في يمين يديه
فلا يبعده في اليسرى . ذهاباً نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بالنقط ومعنى
يجريان مجرى المثال له . وقصد الإعراب في الدلالة والإبداع في المقالة .

وهذا هو التمثيل عند قدامة أو التشبيهات المركبة الأخرى فلا تدخل فيه .
ولذلك تحدث عنها في موضع آخر من كتابه : « نقد الشعر » وقال : « وقد يقع
في تشبيه تصريف إلى وجود مستحسن . فمنها : أن تجمع تشبيهات كثيرة في
بيت واحد وألفاظ يسيرة .

ومنها : أن يشبه شيء بشيء بأشياء في بيت أو لحظ قصير .

ومنها : أن يشبه شيء في تصريف أحواله بالشيء تشبه في تلك الأحوال » .
ولم يسمها تمثيلاً وإنما هي تشبيهات مختلفة .

وقرأ ابن سنان التمثيل كما فسره قدامة وذكر أمثله ^(١) . وهو عنده من
نوعت الفصاحة والبلاغة ، وسبب حسنه مع ما يكون فيه من الإيجاز أن تمثيل المعنى
بوصفه ويخرجه إلى الحسن والمشاهدة .

وفسره ابن أبي الأصم مثل هذا التفسير ^(٢) . ونقل تعريف قدامة وبعض
أمثله . وأخفق به ما يخرج لتكلم مخرج المثل السائر كقولهم تعالى : « ليس لها

(١) نقد الشعر ص ٢٢٦ ود . مطب .

(٢) من الصفحة من ٢٧٢ .

(٣) تحرير البحار ص ٢١٤ . وراجع الأعرال ص ٨٥ .

من دون الله كالشيعة^(١) . وقوله : « وتترى الجبال تنحسبها جامدة »
وهي تسر من السحاب^(٢) . « وكقوله عليه السلام : « الحلال بين ،
والحرام بين » . وقول النابغة الذبياني :

ولست بمسكين أحملاً لا تأسسه
وقول بشار :

فعيش واحد أو حين أهلك فأسسه
مقارفاً ذئب مسرعة وهابسه
إذا أنت لم تشرب ميراً رأ على القذى
طمئت وأي الناس تصفسو مشاربسه

والتمثيل هو المماثلة عند بعضهم كأي هلال عسكري الذي ذكر بعض
أعثة قدامة في التمثيل^(٣) . والياقاني الذي قال : « وما يعدونه من البديع
المعالة ، وهو ضرب من الاستعارة سماء قدامة التمثيل^(٤) » .

والتمثيل عند ابن رشيق من ضروب الاستعارة وهو المماثلة . وفلك أن
تمثل شيئاً بشيء فيه إشارة كقول امرئ القيس :

وما ذرفت عينك إلا للقدح
يسهيك في أعشار قلب مشتكر

فمثل عينها بهمي الميسر يعني المعلى وله سبعة أنصباء ، والرقب وله
لثلاثة أنصباء . فصار جميع أعشار قلبه للسهميل الذين مثل بها عينها . ومثل
قلبه بأعشار الجزور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل .

(١) النجم ٥٥ .

(٢) النمل ٨٨ .

(٣) كتاب الصدايق ص ٢٤٢ = ٢٤٦ .

(٤) إيجاز القرآن ص ٧٥ .

وذكر ان معنى التمثيل أيضاً اختصار قولك : « مثل كذا وكذا » . ثم قال : « والتمثيل والاستعارة من التشبيه إلا أنهما بغير أداته وعلى غير أسلوبه^(١) » . وكان عبد القاهر الجرجاني من أوائل الذين وضعوا حداً واضحاً بين التشبيه والتمثيل حينما قسم التشبيه إلى ضربين :

أحدهما : أن يكون تشبيه الشيء بالشيء من جهة أمر يبين لا يحتاج فيه إلى تأويل كتشبيه الشيء بالشيء من جهة الصورة والشكل ، وكالتشبيه من جهة اللون . ومن جهة الصورة واللون ، أو من جهة الهيئة ، ويكون الوجه فيه عقلياً حقيقياً أي ثابتاً في ذات الموصوف كالإخلاق والصفات والطباع . والشبه في هذا لا يجري فيه التأويل ولا يفتقر إليه في تفصيل ، وقد يسمى هذا الضرب « التشبيه » أو « التشبيه الظاهر » أو « التشبيه الصريح » أو « التشبيه الأصلي الحقيقي » .

والثانيهما : أن يكون التشبيه محصلاً بضرب من التأويل مثل : « هذه حجة كالشمس في الظهور » ، فلذلك تشبيه لا يتم إلا بتأويل ، وذلك أن نقول : حقيقة ظهور الشمس وغيرها من الأجسام أن لا يكون دونها حجاب ونحوه مما يحول بين العين وبين رؤيتها ، ولذلك يظهر الشيء لنا ، ولا يظهر إذا كنا من وراء حجاب أو لم يكن بيننا وبينه ذلك الحجاب . ثم نقول : إن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما تمنع الحجاب العين أن ترى ما وراءه . ولذلك توصف الشبهة بأنها اعترضت دون الذي يروم القلب إدراكه وبصره فكره للوصول إليه من صحة حكم أو فساد . فإذا ارتفعت الشبهة وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما ادعى من الحكم ، قيل : « هذا ظاهر كالشمس » أي : ليس ههنا مانع عن العلم به ولا لتوقف والشك فيه مساع . وإن المنكر له إما مدحول في

(١) المسألة ١ ص ٢٨٠ .

عقله أو جاهد مباحث ومصرف في العناد . كما ان الشمس الطالعة لا يشك فيها ذو بصير ولا ينكرها إلا من لا علم له في إنكاره . ونحن نحتاج إلى مثل هذا التأول في تحصيل الشبه الذي التناهد بين الحجة والشمس . في حين لا نحتاج إلى ذلك في الضرب الأول من التشبيه .

ويتفاوت هذا الضرب في التأويل . فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطي المقافة طوعاً حتى إنه يكاد يدانعي الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء . ومنه ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل . ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجه إلى فصل رويته ولطف فكره .

فمما هو قريب المأخذ سهل المأني قورغم في صفة الكلام : « ألفاظه كالألف في السلاسة . وكالتسيم في الرقة . وكالعسل في الخلاوة » . يريدون أن المقط لا يستغلق ولا يشتهب معناه ولا يصعب الوقوف عليه . وليس هو بغريب وحشي يستكره . لكونه غير مألوف . أو ليس في حروفه تكرار وتناثر يكدر اللسان من أجلهما فصارت لذلك كالألف الذي يسوغ في الخلط والتسم الذي يسري في اليدين ويتغلغل المسالك الحقيقية منه ويهدي إلى القلب روحاً ويوجد في الصدر انشراحاً ويفقد النفس نشاطاً . وكالعسل الذي يلد ضعهه وتبش النفس له ويميل الطبع إليه ويجب وروده عليه . فهذا كله تأول ورد شيء إلى شيء بضرب من التلطف . وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأول . وأقوى حالاً في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس .

وأما ما نقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه ببديهة السماع فتحو قول كعب الأشقر وقد أوفده المهلب على الحجاج فوصف له بنيته وذكر مكانهم من الفضل والباس . فسأله في آخر القصة . قال : « فكيف كان بنو المهلب فيهم ؟ » قال : « كانوا حِصاة السرح تبارأ . فإذا ألبوا فدرسان البيات » . قال : « فأقيم كان أنجد ؟ » قال : « كانوا كالحلقة المرفوعة لا يدري أين طرفاها ؟ » . فهذا التشبيه يحتاج إلى النظر وتدقيق . وليس

كذلك تشبيه الحجة بالشمس .

وهذا هو التمثيل عند عبد القاهر . فكل تشبيه يكون الوجه فيه حياً مفرداً أو مركباً أو كان من الغرائز والطباع العقلية الحقيقية فهو تشبيه غير تمثيلي ، أما إذا كان وجه الشبه فيه عقلياً مفرداً أو مركباً غير حقيقي ومحتاجاً في تحصيله إلى تأويل فهو تشبيه تمثيلي . وهذا هو الفرق بين القهريين . وإن كان الأول عاماً والثاني خاصاً ، ولذلك قال : إن « كل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلاً » .^(١)

ومن التشبيه ، قول الشاعر :

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى
كعقود ملاحية حيسن نسورا

وقول ابن المعتز :

كان العيون الزجرجس الغض حولها
مداهين دُرّ حشوشين عقيق

وقوله :

وأرى الشريا في السحاب كأنهها
قدام تبادت في ثياب حيسداد

ولا تحتاج هذه الأميات إلى تأويل ، لأنها ظاهرة . أما التمثيل فهو بخلاف ذلك كقول ابن المعتز :

اصبر على متعض الحسور د فإن متبركة قاتلة
فالنار تأكل بعضهما إن لم تجد ما تأكله

(١) سرار البلاغة ص ٤٤

وقول صالح بن عبد القدوس :

وإنَّ مِنَّ أدبته في الصُّبا
كالغود يسقي الماء في غريمه
حتى تراه موزقاً ناصراً
بعد الذي أبسرت من يئسه

وهذه الأبيات تحتاج إلى تأويل . ولا يمكن أن تفهم الصلة بين الأمطراف
إلا بتسرب من التأمل وإطالة النظر .

والتأويل الذي هو أول أن يسمى كذلك ما لا يحصل إلا من جملة من
الكلام أو جملتين أو أكثر حتى أن التشبيه كلما أوعل في كونه عقلياً عضواً
كانت الحاجة إلى الجملة أكثر . كقوله تعالى : « إنما مثكل الحياة الدنيا
كماء أثرناه من السماء فاحتلظ به نبات الأرض مما يأكل الناس
والأنعام » . حتى إذا أخذت الأرض ترخفها وزينت . وظن أهلها
أنهم قادرون علىها فجاءهم أمرنا ليلاً لو نهزباً ففجعتنا بها حصيها . كان
لم نعلم بالأمس .^(١) فقد كثرت فيه الجمل حتى أننا نرى في هذه الآية
الكريمة عشر جمل إذا فصلت . والتشبه منتزع من مجموعها من غير أن
يمكن فصل بعضها من بعض ولا حذف شيء منها . فلو حذفنا منها جملة
واحدة من أي موضع كان . أضل ذلك بالتعزى من التشبيه .

ولا ينبغي أن تعد الجمل في هذا النحو بعد التشبيهات التي يضم بعضها
إلى بعض والأعراض الكثيرة إلى كل واحد منها منفرد بنفسه . بل بعد جمل
تتسق ثالثة منها على أوله وثالثة على ثالثة وهكذا . فإن ما كان من هذا الجنس
لم ترتب فيه الجمل ترتيباً مخصوصاً حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية لها
والثالثة بعدها . فلي قولنا : « زيد كالأسد بأماً » والبحر جوداً . والسيف
مضاء . واليد يباء » لا ينبغي أن ترتب فيه هذا الترتيب دائماً . بل نستطيع أن
نقدم ونؤخر فيه من غير أن نحل الصورة . وكذلك قول الشاعر :

(١) يونس ٢٤

النشتر ميسك والوجوه داسا نير وأطراش الأكتف عشم

نستطيع أن نرتبه ترتيباً آخر لولا الوزن . في حين لا نستطيع ذلك في الآية . لأن كل جزء فيها يعود إلى الجزء الذي يليه .

ولا يريد عبد القاهر من هذا الكلام أن يكون التمثيل مركباً دائماً . وإنما هو -- في رأيه -- أرفع وأسمى . وإن صرح أيضاً بأنه « التشبيه المنتزع من مجموع أمور والتي لا يحصله لك إلا جملة من الكلام أو أكثر ^(١) » . ولعله يريد بذلك التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئه على حد الاستعارة كقوله لمن يتردد في الأمر : « أراك تقدم رجلاً وتزخر أخرى ^(٢) » . وإلى ذلك ذهب الرازي فقال : « وقد خصوا التمثيل المنتزع من اجتماع أمور بتقيد البعض بالبعض باسم التمثيل ^(٣) » .

ويجاء على حد الاستعارة كالمثال السابق . وقد يكون غير ذلك كقوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل خيبر يحمل أسفاراً ^(٤) » . والامثلة التي ذكرها عبد القاهر تتردد بين الأفراد والتركيب ولكنها كلها تحتاج إلى تأويل ونظرة عقلية . ولذلك كان رأيه الواضح أن التمثيل هو ما كان الوجه فيه عقلياً غير حقيقي من غير نظر إلى أفراد أو تركيب . ومن هنا كانت نظراته واسعة لانه لم يقيد كما فعل السكاكي الذي وضع للتمثيل شرطين :

الاول : أن يكون وجه الشبه فيه عقلياً غير حقيقي .

الثاني : أن يكون مركباً .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٤ .

(٣) نهاية الإيجاز ص ٨٦ .

(٤) البقرة .

وينضح هذان الأمران في قوله : « وأعلم أن التشبيه متى كان وجهه غير حقيقي ، وكان منتزعا من عدة أمور خصه باسم التمثيل ^(١) » . كقول ابن المعتز : « أصبر على مضض ... » وقول صالح بن عبد القدوس : « وإن من أدبته » وكفوله تعالى : « مثلهم كمثل الذي استبقدّ نارا فآلما أعداءنا ما حوله » ذاهبة الله يشورهم وتزكهم في ظلمات لا يبهرون ^(٢) .

والتمثيل عند الخطيب القزويني ما كان وجه الشبه فيه وصفا منتزعا من متعدد أي من أمرين أو أمور . سواء كان ذلك التعدد متعلقا بأجزاء الشيء الواحد ، أو لا . كما في تشبيه النقع مع الأصناف بالليل مع الكواكب في قول بشار :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وليلاتنا ليل دهاوي كواكبها

وهنا القزويني في تعريفه : « التمثيل ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين أو أمور ^(٣) » . وقال النسوي : « التمثيل هو هيئة مأخوذة من متعدد سواء كان الطرفان مفردين أو مركبين . أو كان أحدهما مفردا والآخر مركبا . وسواء كان ذلك الوصف المنتزع حسيا بأن كان منتزعا من حسي أو عقليا أو اعتباريا وهما . وهذا مذهب الجمهور ^(٤) » . ولذلك فكل تمثيل عند السكاكي تمثيل عند القزويني . وليس كل تمثيل عند القزويني تمثيلا عند السكاكي . فبين المذهبين عموم وخصوص .

وينضح إن القدماء لم ينطقوا على خصائص التمثيل ويمكن إيجاز آرائهم فيما يأتي :

-
- (١) مفتاح العلوم ص ١٦٤ .
 - (٢) البقرة ١٧ .
 - (٣) الألف ص ٢٤٩ .
 - (٤) حاشية النسوي (ترويح الأخبار) ج ٢ ص ١٢٢ .

١ - يرى القويون وبعض البلاغيين كالرغسري وابن الأثير أن التشبيه
والتمثيل شيء واحد .

٢ - يرى قدامة بن جعفر والذين قلوا رأيه كابن سنان وابن أبي الأصبع
أن التمثيل هو الإشارة إلى معنى يفهم من الكلام من غير أن يعبر عنه
تعبيراً مباشراً .

٣ - والتمثيل هو الماثلة عند أبي هلال والافلاكي وابن رشيد . وهو من
ضروب الاستعارة .

٤ - يرى عبد القاهر أن التمثيل تشبيه وجهه عقلي غير حقيقي . سواء كان
مفرداً أم مركباً . ويفضل المركب لأنه أدق تصويراً وأعظم تأثيراً .

٥ - يرى السكاكي أن التمثيل تشبيه مركب وجهه عقلي غير حقيقي .

٦ - يرى الخطيب القزويني والجمهور أن التمثيل تشبيه متزع من مركب
ولذلك تدخل فيه التشبيهات المركبة أو تشبيه الصورة سواء كان الوجه
فيه عقلياً أم حسيّاً .

ويرى البلاغيون أن التمثيل على سبيل الاستعارة إذا كثيراً استعماله سمي ، مثلاً ،
كقول بشار :

إذا كنت في كل الأمور معائباً

صديقك لم تكن الذي لا تُعانيه

فعرش واحد أو حبل أهلك فانه

مُقارن دُكِب مرةً ومجانبه

وقول أبي تمام :

وإذا أراد الله نشر قبائله

طويت أجاجاً لها لسان حَسود

لولا الشعاعُ النّارُ فيما جِساوَرَتْ
 ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرَفٍ العودِ
 ولورود الأمثال على سبيل الاستعارة لا تغير . وإنما لتعمل كما وردت
 من غير الخطأ إلى المخاطب أو الموضوع .

التشابه :

قد يساوى الطرفان : المشبه والمشبّه به في جهة التشبيه ، فيترك التشبيه إلى
 التشابه ليكون كل واحد من الطرفين مشبهاً ومشبهاً به ، فعادياً من ترجيح
 أحد المتساويين على الآخر ^(١) . كقول أبي إسحاق الصائغ :

تشابه دمعِي إذ جَرَى ومُدامسِي
 فمن مثله ما في الكأس عيني تَكِبُ
 فوافقه ما أدري أبا لعمري لَسِلْتُ
 جفوني أم من عبرني كنتُ أَشْرَبُ

وكتقول صاحب بن عباد :

رقِي الزَّجَاجُ وراقَتِ الخُمْسُ
 فكأنما خُمْسٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قَدَحٌ ولا خُمْسٌ

التشبيه المقلوب :

وقد يقاب التشبيه . وذلك بأن يجعل قِومَ المشبه مشبهاً به . ويعمل المشبه
 به مشبهاً . كقول البحري :

في طاعة البَدْرِ شيءٌ من حاسنها ولانضبط شعيبٌ من ثقلها

(١) - تاريخ العلوم من ١٦٥ - والتأليف من ٢٤٢ .

وقول ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يبتضحنا

مثل القلابة إذا قطعت من الضمير

وسمى ابن جني هذا النوع « غلبة الفروع على الأصول » وقال عنه :
« هذا فصل من فصول العربية طريف تجده في معاني العرب كما تجده في
معاني الأعراب » ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة ^(١) .
وسماه ابن الأثير « الطرد والعكس » وقال إن الغرض منه المبالغة . وهو
موضع من علم البيان حسن الموقع لطيف المآخذ ^(٢) . وسماه العالوي « التشبيه
المعكوس » . وقال عنه : « اعلم أن هذا النوع من التشبيه يرد على العكس
والندور . وبنايه الواسع هو الاحتراد . وأما لقب بالمعكوس لما كان جارياً على
خلاف العادة والإلف في مجازي التشبيه . وقد يقال له « غلبة الفروع على
الأصول » . وكل هذه الألقاب دالة على خروجه عن المقياس المتعارف والمهيغ
المشتمل . وله موقع عظيم في إقادة البلاغة . وقد ذكره ابن الأثير في كتابه
« المثل السائر » وقرره ابن جني في كتاب « الخصائص » . والشرط في استعماله
أن لا يرد إلا فيما كان متعارفاً حتى يظهر فيه صورة الانعكاس . لأنه لو
وردت في غير المتعارف لكان قبيحاً . لأن معارذ العادة في البلاغة على تشبيه
الأدنى بالأعلى فإذا جاء على خلاف ذلك فهو معكوس ^(٣) . والعالوي هنا
يقرر ما تعارف عليه البلاغيون من أن المشبه به يجب أن يكون الأصل وهو
الأقوى والأوضح صورة . ولكن الشاعر قد يخرج على هذه القاعدة وهو

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٠٢ .

(٢) المثل السائر ج ١ ص ٤٢١ . وإيضاح الكبير ص ٩٧ .

(٣) الفرائد ج ١ ص ٣٠٩ .

يصور معانيه قائم بالتشبيهات التي لا تجري على ما قرر البلاغيون ، وفي ذلك إيراد هذا الفن . وقد وقف عبد القاهر عند هذا اللون وقال انه يفتح بابا إلى « دقائق وحقائق » وذلك جعل « المزعج أصلاً والاصل فرعاً »^(١) . وهو كثير في التشبيهات الصريحة وذلك « أنهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطون على الثاني فيشبهونه بالاول . فترى الشيء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى » . ومن أظهر ذلك قولهم في النجوم : « كأنها مصابيح » ثم قولهم في المصابيح « كأنها نجوم » . وتشبيه العيون بالترجس ثم تشبيه الترجس بالعيون كقول أبي نواس :

لدى ترجس غض القطاف كأنه

إذا ما منحناه العيون عيسون^١

وتشبيه النعر بالأقلام ثم تشبيهها بالنعر كقول ابن المعتز :

والأقحسوان كالنسايا الغر قد صقلت أنواره بالقطر

وتشبه أنوار الرياض بالنجوم كقول البحري :

يكتب السماء بأرصاد دموعها

فقدت النسيم حسن نجوم سماه

ثم تشبيه النجوم بالنور كقوله :

قد أظف العيس في الليل كأن به

وشياً من النور أو روضاً من العشب

واشبه الدعوى إذا قطرت على حدود النساء بالعل والقطر على ما يشبه

الحدود من الرياحين كقول النابضي :

بكنت للفرق وقد راعها بكاءً الحبيب لبعد التيسار

(١) أسرار البلاغة ص ١٨٧ .

كأنّ النوعَ على حدّهما بقيةً طائرَ على جنانسار
وشبيه به قول ابن الرومي :

لو كنتَ روضةً السوفاقِ حساساً
وهنَّ يطفئُ تلكَ الوجسَ
لم تسرَّ إلا النوعَ ساكناً
تقطرُ من دلقٍ على عيسدٍ
كأنّ تلكَ النوعَ قطرٌ نَسَدَى
يقطرُ من نرجسٍ على وزدٍ
ثم يعكس كقول البحري :

شقائقُ بعباشِ السدى فكأنه
نوعُ الصابي في حدودِ الغرائر
وشبيه به قول ابن المعتز بقوله في الرجس :

كسأنَّ عيونَ الرجسِ الغضَّ حولنا
مسداهنَّ درَّ حنّهن عقيبن
إذا بلّهن القطرُ عيشتَ دموعها
يكاهُ عيونُ كحلّهن حكاوقُ

وقد يستع هذا القلب في طرفي التشبيه وذلك أن يكون بين الشين تفاوت
شديد في الوصف الذي لأجله نشبه ثم قصدنا أن للحق الناقص منهما بالرائد مبالغة
وعلالة على أن يفضل أمثاله فيه . وقد فسر عبد القاهر ذلك بقوله : « بيان هذا
أن ههنا أشياء هي أصول في شدة السواد كخافية الغراب والدار ونحو ذلك ،
فإذا شبهت شيئاً بها كان طلب العكس في ذلك عكساً لما يوجهه العقل وتقصاً

للعادة ، لأن الواجب أن يُلَبَّت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف في المعروف تعريفه بقياسه على المجهول وما ليس بوجوده على الحقيقة . فأنت إذا قلت في شيء : « هو كخافية الغراب » فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يُعهد في جنسه وأن تصحح زيادة هي مجهولة له وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب في السواد ثبت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره فيه . وهذا المعنى خضع بيت البحري :

على سباسب تفسرين والليل لا ضح

جوانبه من ظلمة بمسداد

وقال أن المساد ليس من الأشياء التي لا تزيد عليها في السواد ، كيف ورَبَّ مساد فاقد اللون والليل والسواد يشده أعق وأخرى أن يكون مثلاً . ألا ترى إلى ابن الرومي حيث قال :

حبرٌ أبي حفصٍ أعابُ الليل

يسيل للأشوان أي يسيل

فالمع في وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل . وكأن البحري نظر إلى قول العامة في الشيء الأسود : « هو كاللظن » ثم تركه لمقابلة إلى المساد (١) .

ونخص قاعدة قلب التشبيه بقوله : « وجمة القول إنه متى لم يُقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة لشيء ، والقصد إلى إيصاله في تناقص أنه كالمرائد واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حدّه أو قريب منه في الأصل فإن العكس يستقيم في التشبيه . ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقيم (٢) » .

(١) أسرار البلاغة ص ٩٠٢ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٩٠٤ .

١ - ذكر الأركان الأربعة . مثل : « زيد كالأسد في الشجاعة » ولا قوة لهذه المرتبة .

٢ - ترك المشبه . مثل : « كالأسد في الشجاعة » أي : زيد . وهي كالأول في عدم القوة .

٣ - ترك كلمة التشبيه . مثل : « زيد أسد في الشجاعة » وفيها نوع قوة .

٤ - ترك المشبه وكلمة التشبيه . مثل : « أسد في الشجاعة » أي : زيد . وهي كالثالثة في القوة .

٥ - ترك وجه الشبه . مثل : « زيد كالأسد » . وفيها نوع قوة . لعدم وجه الشبه من حيث الظاهر .

٦ - ترك المشبه ووجه الشبه . مثل : « كالأسد » أي : زيد . وهي كالخامسة .

٧ - ترك كلمة التشبيه ووجهه . مثل : « زيد أسد » وهي أقوى الجميع .

٨ - إفراد المشبه بالذكر . مثل : « أسد » أي : زيد . وهي كالسابعة^(١) .

والمرتبة السابعة وهي حذف وجه الشبه والأداة أبلغ الجميع . وسدوا مثل هذه المرتبة « التشبيه البليغ » لما فيه من اختصار من جهة ، وما فيه من تصوير وتحليل من جهة أخرى . لأن وجه الشبه إذا حذف ذهب الظن فيه كل مذهب وفتح باب التأويل على مصراعيه . وفي ذلك ما يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيرا .

غراض التشبيه :

تحدث البلاغيون عن أهمية التشبيه وثمرته واتفقوا على أنه لا يصار إليه إلا لغرض على أن يكون مما تقبله النفس ويستسيغه الذوق . وقالوا إنه « أشرف

(١) ينظر الملحق العلوم ص ١٦٥ . والاصح ص ٢٦٤ .

كلام العرب وفيه تكون النطلة والرعاة ، والله مقياس تعرف به البلاغة . وقال السكاكي ان من حلق في التشبيه ملك : مام التدرب في فنون السحر البياني ^(١) . وقال ابن رشيق : « التشبيه والاستعارة جميعا يخرجان الأخص من الأوضح ويقربان البعيد » ^(٢) . وقال أبو هلال : « التشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً » ^(٣) . ورأى أن أجوده ما جاء على أربعة أوجه هي : إخراج ما لا تقع عليه الخلة أو ما تقع عليه ، وإخراج ما لم يجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، وإخراج ما لا يعرف بالإنشابة إلى ما يعرف بها ، وإخراج ما لا قوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها .

ورأى ابن الأثير أن التشبيه يجمع صفات ثلاثاً هي : المبالغة والبيان والإيجاز . وقالته هي أننا إذا مثلنا الشيء بالشيء فامتنع قصد به إثبات الخيال في النفس بصورة التشبيه أو بمعناه وذلك يؤكد في طرفي الترخيب فيه أو التغير عنه . فإذا شبهنا صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبثاً في النفس خيالاً يدعو إلى الترخيب فيها ، وكذلك إذا شبهناها بصورة شيء أفصح منها كان ذلك مثبثاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنقير عنها . وضرب مثلاً بقول ابن الرومي في مدح العسل ودعه وهو :

تقول هذا مجاز النحل مدحاً

وإن تعجب قلت ذا في الراسيات

فقد مدح وذم الشيء الواحد بتصريف التشبيه الذي خيل به إلى السامع خيالاً يحسن الشيء ، عنده تارة ويقرحه أخرى . ولولا التوصل بطريق التشبيه على هذا الوجه لما أمكنه ذلك .

(١) فلاح النبل ص ١٤٧ .

(٢) التعليل ص ٢٨٧ .

(٣) كتاب الصناعات ص ٢٤٢ .

ومما يحدد له عدم الأخذ بما قاله البلاغيون من أن شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر . قال : « إن إطلاق من أطلق قوله في أن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غير صحيح . فإن هذا قول غير حاصر للمعرض المقصود » لأن التشبيه يأتي ثارة في معرض المدح وثارة في معرض الذم . وثارة في غير معرض مدح ولا ذم . وإنما يأتي قصداً للابتانة والإيضاح ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب إليه من ذهب . بل القول الخامع في ذلك أن يقال : إن التشبيه لا يبعد إليه إلا لضرب من المبالغة ^(١) .

وأجاد عبد القاهر في ذكر فائدة التشبيه والتشثيل وأبان جسامتها وتأثيرهما في الكلام . وقال : « وأعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التشثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كسماها أوبة وكسيها متقية ورفع من أقدارها وشب من نازها . وضاعفت قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفكار صباية وكلفا . وقسر الطباع على أن تعطيها حبة وشغلتها ^(٢) » .

وأشار إلى أسباب تأثير التشثيل . وأول ذلك وأظهره أن أنشئت النفوس موقوفة على أن تخرج من خفي إلى جلي ويؤتى لها بصريح بعد فككتي وإن تُردت في الشيء إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ولقنتها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقل عن العقل إلى الاحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالسمع . وذلك أن المعاني التي يجري التشثيل في بعضها على ضربين :

الأول : غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعى ادتماعه واستحالة وجوده . كقول المتنبي :

فإن تفتقر الآنام وأنت . . .

فإن للسكك بعض دم الغزال

(١) التلخيص لشرح ١ ص ٣٩٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٠١ .

وذلك أنه أراد أنه فاق الآنام وفاتهم إلى حدّ يطل معه أن يكون بينه وبينهم
 مشابهة ومقاربة بل صار كأنه أصل بنفسه وجنس برأسه . وهذا أمر غريب ،
 وهو أن يتناهى بعض أجزاء الجنس في الفضائل الخاصة به إلى أن يصير كأنه ليس
 من ذلك الجنس .

والضرب الثاني : أن لا يكون المعنى ممثلاً لغيره فادرّ أحتاج في دعوى كونه
 على الجملة إلى بيّنة وحجة وثبات ، بل أن ينفي عن فعل من الأفعال التي
 يفعلها الإنسان القائمة . ويدّعي أنه لا يحصل منه على طائل ثم يثبت في ذلك
 بالقبض على الماء أو الراقم فيه ، فليس بمستكثر مستبعد خطأ الإنسان في فعله أو
 ظنه وأمله وطلبه . كما في قول الشاعر :

فأصبحتُ من ليل العداة كفسايف
 على الماء خائشةُ فروع الأصابع .

والشاعر هنا أراد أن يبيّن مقدار خيبة أمله . فعندما جاء بالتمثيل لُزّنا
 رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه ويوار سعيه إلى أقصى المبالغ
 وانتهى فيه إلى أبعد الغابات حتى لم يحفظ لا بأقل ولا بأكثر . وهذا يعود إلى
 التمثيل ، لأننا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس حتى مع العلم بصدق الخبر .

والتمثيل يعمل عمل السحر في تأليف المتباين حتى يختصر بعد ما بين المشرق
 والمغرب ، وهو يُدري للمعاني المشقة بالأوهام شبيهاً في الأشخاص الماتسة
 وينطق الآخرس ويعطي البيان من الأعجم ويُدري الحياة في الجهاد ويجعل الشيء
 قريباً بعيداً معاً .

والتمثيل يأتي من الشيء الواحد بأشياء عدة ويشق من الأصل الواحد
 أعضاها في كل غصن ثمرة على حدة . ويعطي الكمال من نقصان والنقصان عن
 الكمال . والمعنى إذا جاء ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي بعد أن يخرج إلى طلبه
 والفكرة . ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق

أيه كان ليله أجلي . وكان موقفه من الناس أجلي وأعطى . وذلك يكون بتقرير الشبه بين الأشياء المختلفة (١) .

وسار معظم البلاغيين على خطاه . وحاولوا أن يعللوا أهمية التشبيه والتشثيل . والتفقوا على أن هذين العنصرين لا يُصْلحُ اليهما إلا لغرض واحد ألا كانا حلية تُقَسَّر . فالسكاكي حينما يفسر التشثيل بوجه أو التوهيم والاختاء وإن كانت عباراته مذبذبة ليس فيها رونق عبارات عبد القاهر . قال في التعليق على بيتي ابن المعتز :

أصبر على مصغّر الحسو د فإن صترك قاتلُك
فالنارُ تاكلُ بضمها إن لم تجد ما تأكلُ

« فإن تشبه الحسود المترك بمقاوكة بالنار التي لا تحد بالخطب فيسرع فيها الغناء ليس إلا في أمر متوهم وهو ما تنوهم إذا لم تأخذ معه في المقابلة مع علمك بتطلبه إياها عسى أن يتوصل بها إلى لغة مصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تنعم ما يجد حياته يسرع فيه الهلاك . والله كما ترى منتزع من عدة أمور » .

وقال في التعليق على بيتي صالح بن عبد القدوس :

وإن منسن أدبائه في العبّاء

كالعود ينسقي المساء في غرضه
حيئاً ندره مرقدهساً تساهراً
بعد الذي أبهرت من يئسبه

« فإن تشبيه المؤدب في مساء بالعود المنسقي أو أن العرس الموقر بأوراقه ونفثته ليس إلا قيماً يلزم كونه مهذب الأخلاق مرضي السيرة حميد الفعل لتأدية المطلوب بسبب التأنيب المصداق وقتنه من تمام الميل إليه وكان استحسان

(١) ينظر أسرار البلاغة ص ١٠١ وما بعدها وكذلك نزهة الأدهم المخرجات ص ١٢٤ ولقاء ص ٢٠٦ .
وفي الوجهة الأخيرة ص ١٢٩ .

حاله . وأنه كما ترى أمر تصوري لا صفة حقيقية . وهو مع ذلك منتزع من عدة أعمور^(١) .

وقال القزويني إن مما تلقى العقلاء على شرف قدره وفضامة أمره في فن البلاغة : أن تعقيب المعاني به لاسيما قسم التمثيل منه يقضاه في قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كان أو ذمها أو الاختيارا أو غير ذلك . وضرب لذلك أمثلة منها قول البحتري :

دان على ألسني الضاة وشاسيح
عن كل ليد في الندى وغريب
كاليد أفرط في العسوة وضوءه
للعصبة السارين جد قسريب
وقول ابن لئلك :

إذا أضر الحسن أضحي فعمل مسجاً
رأيت صورته من أفتح الصور
وهذه كالشمس في حسن ألتم ترقنا
نقر منها إذا مالت إلى القصر
وقول ابن الرومي :

بدل الرعد للأضلاع سحجاً
وأني بعد ذلك بذاك العظماء
فغدا كالخيلاف يورق لعمري
در وبأني الإثمار كليل الإسماء

(١) شتاج "أعمور" ص ١٦٤ - ١٦٥ .

وقول أبي تمام :

وأذا أراد الله نشر فضيلة
طوبى أتاح لها لسان حَسود
لولا اتصال النار فيما حاورت
ما كان يعرف طبيب عَرَفَ العُود

وقوله :

وطوبى مقام المرم في الخي مخليل
لدياجنته فالهرب لتجدد
فاني رأيت الشمس زبدت عينة
الإناس أن ليست عليهم بسمند

قال القزويني : « وقيل حالك وأنت في البيت الأول ولم تنته إلى الثاني
على حالك وأنت قد انتهيت إليه ووقفت عليه . تعلم بعد ما بين حالتك في
تمكن المعنى لديك (١) » .

وذكر أن هذا الحدن وظلته الروعة أسباباً . منها ما يحصل للنفس من
الأنس باخراجها من الحي إلى الحي . أو باخراجها مما لم تألف إلى ما ألفت .
ومما تعلق به ما هي به أعلم كالانتقال من المعلوم إلى المجهول . ومنها
الاضطراب . ومنها أن التشبه يأتي من الشيء الواحد بأشياء عدة كأن يعطي من
القدر الكمال عن القصص كما قال أبو تمام :

فنى على ثلاث الشراهد فبهما
لو أمهلت حتى تصير شمساً
لغداً سكوتهما حيي . وصباحها
حليماً . وتلك الأربعة نائلا

(١) الملح من ٢١٥

ولأعقب الجسم المردّ يدعى
ولعساد ذاك العسل جوداً وابسلا
إنّ الحلال إذا رأيت نكسوه
أيقنت أنّ سيهراً يدرك كادلا
والنقصان عن الكمال كقول أبي العلاء المعري :

وإن كنت تبغي العيش فأبلغ تبعاً
فعدّ التناهي يتقصّر الشغاول
ترقى الدور النفس وهي أبعث
ويدركها التقصان وهي كواميل
وكذا ينظر إلى بعده وارتفاعه وغرب ضوئه وشعاعه كما قال البحري :
دان على أيدي العفصة وشامع
عن كل يد في الندى وطيريس
كاليد أقرط في العلوّ وضوءه
للعصير السارين جسد قريب
والظهوره في مكان كما في قول المتنبي :

كاليد من حيث التفتت وجدته
يَهْشِي أن عينك نوراً تاليسا
وأرجع غرض التشبيه إلى المشبه والمشبه به ^(١) وأغراضه التي ترجع إلى
لشبه منها :

١ - بيان أن وجود المشبه ممكن . وذلك في كل أمر غريب يمكن أن يخالف
فيه ويدعى اقتناعه كما في بيت المتنبي :

(١) الإيضاح من ٢٣٦ وما بعده . ولغز نهاية الإيجاز من ٧٤ وما بعده .

فان تَقَرَّرَ الاسم وأنت منهم
فان المِسْكُ يَعْضُ دَمُ الْعَرَالِ

وقول الآخر :

فنى عيش في معروفه بعد موته
كما كان بعد السيل هراء مَرْتَعَا

٢ - بيان حاله . كما في تشبيه ثوبه بثوب آخر في السواد إذا علم لون المشبه به دون المشبه . وكقول الغليل :

وإني لأعروني للذكر الكهيسرة^(١) كما انفض العصفور بالكل المقطر^(٢)
وقول مجنون ليلى :

كأن القليب ليلة قبل يغدى
قطاة غرّها شراك فابست^(٣) تجاذبه وقد حكي الجناح

٣ - بيان مقدار حاله في القوة والضعف والزيادة كقول الشاعر :

فأصبحت من ليل العداة كفاض^(٤)
على الماء خالصة فروج^(٥) الأصابع

وقول الآخر :

كأن مشيتها من يثرب جارتها
مر السحابة لا ريث ولا عجل^(٦)

٤ - تقرير حاله في نفس السامع كما في تشبيه من لا يحصل من سعيه على طائل بمن يكتب على الماء . وعليه قوله تعالى : « وَإِذْ نَسَخْنَا الْإِنْجِيلَ فَوَقَّهْم كَأَنَّهُمْ ظُلُمٌ ^(١) » . وقول الشاعر :

(١) الأعراف ١٧١ .

إنَّ القلوبَ إذا تافروا دُحُسا مثل الزجاجِ كدَسَها لا يُشْعَبُ
وقول البحرِي :

ذات حُسْنٍ أو استراوتُ من الحُسْنِ إليه لما أصابتُ مزبداً
فهي كالشمسِ رجةٌ والقضيبِ اللدنُ قدأ والرثمُ طرماً وجبداً
٥ -- تزيينه للترغيب . كما في تشبيه وجه أسود بمقلة الظبي أو تشويبه للتفريق
عنه كما في قول ابن الرومي في العسل وفاء جمع التزيين والتشغير :
تقول هذا هاجُ النحلِ تملحه
وإنَّ تعبٌ قلتُ : ذا في الركايبِ

٦ - استطرافه أي عدته طريقاً كقول ابن المعتز :

ولازوردية تزهو بزرقتها
بين الرياضِ على حُسْنِ البواقيت^(١)
كأنها فوق هاماتٍ ضَعُفْنَ بها
أوالُ التار في أطرافِ كبريتِ
وقول أبي تمام :

يرى أفجَ الأشياءِ لوبةً أملِ
كشَّتهُ يدُ المأمولِ حلَّةً خالِ
ولحسن من نورٍ تفتحسه الصُّبَا
يباضُ العطايا في سوافِ المطالبِ
وأغراض التشبيه الراجعة إلى المشبه به تكون في الغالب إيهام أن المشبه به

(١) لازوردية : البقعة .

أتم من المشبه في وجه الشبه . وذلك في التشبيه المقلوب ، كقول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأنَّ غرثه
وجه الخليفة حين يُمسَدَحُ

وقوله تعالى : « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ^(١) » والأصل : إنما الربا مثل البيع . إذ الكلام في الربا لا في البيع فحالوا بجعلهم الربا في الحل أقوى حالاً من البيع وأعرف به . وقد يكون الغرض العائد إلى المشبه به بيان الاهتمام به .

وأوجز العلوي ثمرة التشبيه وفائدته بقوله : « اعلم أنك إذا أردت تشبيه الشيء بغيره . فالتما قصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه من مدح أو ذم أو ترغيب أو ترهيب أو كبر أو صغر أو غير ذلك من الوجوه التي يقصد بها التشبيه . وتراد للايمار أيضاً والاختصار في اللفظ من تعدد الأوصاف الشبيهة . وتراد للبيان والإيضاح أيضاً ^(٢) » . وهذا ما أشار إليه الذين سبقوه كابن جني وابن الأثير . وفي أقوال القدماء الكثير من الصواب وإن كانت الطريقة العقابية أساس إعجابهم بثن التشبيه . وقد حاول المحشون أن ينظروا إليه نظرة جديدة تقوم على الأثر النفسي الذي يحدته . وكان العقاد من أوائل الذين نظروا هذه النظرة حينما انتقد تشبيهات أحمد شوقي . ودعا إلى ترك التشبيهات العقيدة والأخذ بالتشبيهات المعبرة عما في النفوس أصدق تعبير ^(٣) .

وقال الدكتور أحمد بلوي في نقد القدماء : « فعما اعتمد عليه القدماء في عقد التشبيه العقل . يعاونه رابطاً بين أمرين أو مفرقاً بينهما . وأغفلوا في

(١) البقرة ٢٧٥ .

(٢) الطراز ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) سفر الميراث ص ١٧ وما بعدها .

كثير من الاحيان وقع الشيء على النفس وشعورها به سروراً أو ألماً . وليس التشبيه في واقع الامر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة في وقوعهما على النفس . أما تبطن الأمور وادراك الصلة التي يربطها العقل وحده فليس ذلك من التشبيه الفني البليغ . وعلى الأساس الذي أقاموه استجادوا قول ابن الرومي :

بذلك الوعد لا خلاص ستمحاً وأبى بعد ذلك بتلك العطاء

فقدنا كالتخلاف يبورق للعيش وبأبى الإنحار كل الإباء

وجعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر . وهو جامع عقلي كما ترى لا يقوم عليه تشبيه فني صحيح . ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار لا ينقطع في نفسه عند رؤيتها سوى جماعها ونفورة ورقها وحسن أزهارها . ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الغلال ثمر يجنيه أو لا يكون . ولا يقلل من قيمتها لدى رائيها ولا يحط من جماعها وجلالها ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهي . فإذا كانت لتفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذي المنظر الأتني وتعكس صورة منقصة في نفس رائيها . فإن الشجرة لا يقلل من جماعها لدى النفس عدم إثمارها . وبهذا اختلفت الوقع لدى النفس بين المشبه والمشبه به . ولذلك لا يعد من التشبيه الفني القبول^(١) .

ويربط المعاصرون تأثير التشبيه بما فيه من استحضار الأشياء وتواردها على الذهن . وهو من أثر تداعي المعاني التي يرجع إليها كثير من فنون البيان . ولذلك فإن ما قاله علماء البيان من أغراض التشبيه يتعلق بالنفس أكثر من تعلقه بالأدراك العقلي المحض . وهذه الأغراض لا تعدو أن تكون تأثيراً في الفكر أو إثارة للوجدان أو العاطفة^(٢) . ومن هنا كانت دراسة التشبيه وتوضيح أغراضه منطلقة من هذه النقطة عند المعاصرين .

(١) من بلاغة القرآن ص ١٨٧ .

(٢) ينظر دراسات في علم النفس الأدبي ص ٢٠ - ٢١ - ١٢٥ . والعنونة الأدبية ص ١٣٥ . والتمهات في الشعر العربي ص ١٤ وما بعدها .

الفصل الثالث

المجاز

الحقيقة :

ال لغة « أصوات يُعبَّرُ بها كل قوم عن أغراضهم »^(١) ، وهي مرتبطة بتطور المجتمع والفكر الانساني ولذلك تجد لغات الشعوب المتطورة متقدمة على غيرها في مفرداتها واستعمالها .

واللغة العربية نشأت كغيرها من اللغات لسد حاجة المتكلمين بها . وكانت في أول أمرها مقتضرة على الألفاظ الوضعية التي عبّرت عما أحاط بالعربي في بيئته ثم تطورت بتطوره خلال العصور المختلفة ، والكلمة حينما توضع لتدل على شيء معين تسمى حقيقة ، وهي « فعيلة » بمعنى « مفعولة » ، واشتقاقها من « حقل الشيء » -- يحققه « إذا أثبتته ، أو من « حقلت الشيء » -- أحطه « إذا كنت منه على يقين ، ولذلك فهي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة .

(١) الخليل ص ١ من ٢٢ .

تعريفها :

والحقيقة تعريفات كثيرة منها تعريف ابن فارس الذي قال بأنها : « الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل . ولا تقديم فيه ولا تأخير ^(١) » . وقال ابن جني : « الحقيقة ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ^(٢) » .

وقال عبد القاهر : « كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح . وإن شئت قلت في موضوعة وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي حقيقة . وهذه العبارة تتطلب الوضع الأول وما تأخر عنه كلمة تحدث في قربة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلاً أو تحدث اليوم . ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزبد وعمرو ، أو مرتجلة كعطفان . وكل كلمة استأنف لها على الجملة موضوعة أو ادعى الاستئناف فيها ^(٣) » . وهذا تعريفها في المرد . أما حديثها في الجملة فهي : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المتاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع منه فهي حقيقة . ولن تكون كذلك حتى نعرف من التأول . ولا فصل بين أن تكون مصيباً فيما أقدت به من الحكم أو مخطئاً وصادقاً أو غير صادق ^(٤) » .

وقال ابن الأثير : « فأما الحقيقة فهي : اللفظ الدال على موضوعه الأصلي ^(٥) » .

وقال السكاكي : « فالحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعه له من غير تأويل في الوضع كاستعمال الأسد في الهيكل المخصوص . فلفظ « الأسد » موضوع له بالتحقيق ولا تأويل فيه » ثم قال : « ولك أن تقول : الحقيقة

(١) صاحب من ١٩٧ .

(٢) القاموس ج ٢ من ٢٢٤ .

(٣) أسرار البلاغة من ٣٢٤ .

(٤) أسرار البلاغة من ٣٥٥ .

(٥) نقل السالرج ١ من ٥٨ .

هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة كاستعمال الأسد في الفيكل المخصوص^(١) .

وقال القزويني : « الحقيقة : الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب^(٢) » . وقسّر هذا التعريف بقوله : « فقولنا » المستعملة » احتراز عما لم يستعمل . فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة . وقولنا » فيما وضعت له » احتراز عن شيئين :

أحدهما : ما استعمل في غير ما وضعت له خطأ . كما إذا أردت أن تقول لصاحبك : « خذ هذا الكتاب » مشيراً إلى كتاب بين يديك فقللت فقلت : « خذ هذا القلم » .

والثاني : أحد قسمي المجاز . وهو ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً له . لا في اصطلاح به التخاطب ولا في غيره كلفظة « الأسد » في الرجل الشجاع . وقولنا : « في اصطلاح به التخاطب » احتراز عن القسم الآخر من المجاز . وهو ما استعمل فيما وضع له لا في اصطلاح به التخاطب كلفظة « الصلاة » يستعمله المخاطب يعرف الشرع في الدعاء مجازاً .

وذكر العلوي أن أجمع تعريف في بيانها ما ذكره أبو الحسين البصري فإنه قال : « ما أقاد معنى مصطلحاً عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب »^(٣) . وهذه التعريفات وغيرها تؤدي إلى أمر واحد وهو أن الحقيقة استعمال اللفظة في وضعها الأول بحيث لا يتبادر الذهن إلى غير ذلك حينما تطلق كاستعمال « القلم » للدلالة على آلة الكتابة ، واستعمال « القمر » للدلالة على الكوكب المعروف .

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) الأيضاح ص ٢٦٤ .

(٣) الخراز ج ١ ص ٤٧ .

اقسامها :

وقسموا الحقيقة إلى ثلاثة أقسام (١) :

١ — الحقيقة الكلية : وهي ما وضعها وأخرج الفلاسفة ودارسها عن معاني ومصطلح عليها في تلك المواقعة كالحقائق العامة والكتابات والقصر والشمس . فكلما استعملت في معناها الأصلي فإنها تكون حقيقة . وإذا استعملت في غيره فإنها تكون مجازاً .

٢ — الحقيقة العرفية : وهي التي غلبت من معانيها العرفي إلى غير ما يعرف الاستعمال . وذلك الاستعمال قد يكون عاماً وقد يكون خاصاً .

وتنحصر الحقيقة العرفية في صورتين :

الأولى : أن يظهر استعمال المجاز بحيث يكون استعمال الحقيقة مستخدماً كحذف الضماد وإزالة الضماد إلى مقعده . مثل : حرمت الخمر ، والحرم مضاف إلى الخمر . وحر في الحقيقة مضاف إلى القصر . وقد صار هذا المجاز أعرف من الحقيقة وأسهل إلى الفهم . ومنه التسمية التي باسم ما يشابه كتسميتهم حكاية كلام التكلم بأنه كلام . كما يقال من أشد قسوة لأمرى . القس بأنه كلام أمرى . القيس . لأن كلامه في الحقيقة هو ما نقل به . وأما حكاية فكلام غيره . لكنه قد صار حقيقة تسبق إلى الأفهام بخلاف الحقيقة . كتسميتهم الشيء باسم ما لعان به كتسميتهم قضاء الحاجة بالعاقل وهو المكان القلبي من الأرض فالأعلاق فإن السائل إلى الفهم منه مجاز . وهو قضاء الحاجة دون حقيقة وهو المكان القلبي . فصارت هذه الأمور المجترعة حقائق بالتعارف من جهة أهل اللغة تسبق إلى الأفهام معانيها دون حقائقها الوضعية المعقولة .

والثانية : قصر الاسم على بعض معانيه وتضييقه به نحو لفظ : الله . فإنها جارية في وضعها العرفي على كل ما ينسب من الخبرات من الذبوت إلى

(١) كتاب علاج الجوارح ص ١٦٠ . والمصباح ص ٢٦٦ . وأمالي ج ١ ص ٤٦ .

القول - ثم أنها اختصت ببعض الشهاد وهي ذوات الأربع من بين سائر ما يدينه
بالعرف القوي . وهو لفظة « إخن » و « القارورة » فإن الأول موضوع لكل
ما يشتر . والثاني مرصع لقر المائعات . ثم اختص « إخن » ببعض من
يشتر عن العيون . واختصت « القارورة » ببعض الآلية دون غيرها ممسا
يستقر فيه .

والحقيقة العرفية الخاصة . هي التي وضعها أهل عرف خاص وجرث
على السنة العدا من الاصطلاحات التي تخص كل عام . فلأنها في استعاضة
حقائق وإن تخلقت الأوضاع القوية . نحو ما يجربه التجار في كتبهم من
الرفع والشعب والخر والخزم والخل والتميز . وما يبرره أهل الحرف
والصالحات والعلوم فيما بينهم .

٣ - الحقيقة الشرعية : وهي النقطة التي يستند من جهة الشرع وضعها لمعنى
غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها القوي . وهي قسما :

الأول : أسماء شرعية . وهي التي لا تزيد مدحا ولا دحا عند إطلاقها
كالكهنة والزكاة والنجس . سائر الأسماء الشرعية .

الثاني : أسماء دينية . وهي التي تزيد مدحا أو دحا نحو مسلم ومؤمن وكافر
وقاسق .

ولا ينبغي الخلط بين الحقيقة وأقسامها كثيرا . وإنما تنصب عنايتهم على
المجاز وأساليبه لأنه هو الذي تنافرت فيه الأفهام ولأنه واسع الخطوط فيسمى للمدى
يصول فيه الأديان ويتولون ويتصرفون فيه كل التصرف في حين لا يقدر
أن يخرجوا على الحقيقة خروجها واضحا . لأنها مرتبطة بالوضع الأصلي ومقيدة
بالتعجم الذي يحدده إبعادها .

المجاز :

المجاز فن قديم عرفه المتقدمون واستعملوه في كلامهم بعد أن تطورت اللغة وأصبحت ألعابها الوضعية تضيق بالمعاني الجديدة . ويرى بعض الباحثين أن أسناد الحياة إلى الجمادات واستناد صفات الإنسان إلى غيره من الكائنات الخيئة وغيرها من بقايا العقائد القديمة ، فكل من الشمس والقمر والكواكب كائن حي في نظر القدماء ، والقول بأن السماء تبكي وأن الأرض تضحك راجع إلى هذه العقيدة في أذهان الناس ولو بصورة غير شعورية ، ولذلك يدعو بعضهم إلى تفسير المجاز تفسيراً استورياً . ويعزو بعضهم هذه الظاهرة إلى قوة الوجدان الإنساني إلى درجة أنه يمتد فيشمل ما يحيط به من الكائنات . فإذا ضحك رأي العالم يضحك من حوله . وإذا بكى حبل ليه أن العالم المحيط به يبكي معه . فأساس العطف في رأي هذا الفريق هو عطف العاطفة وسعة الخيال . ولذلك يرى بعض البلاغيين أن المجاز علم البيان بأجمعه وأنه أولى بالاستعداد من الحقيقة في باب فصاحة والبلاغة . لأن العبارة المجازية تنقل السامع عن حقله الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنه ليسبح بها البخل ويشجع الجبان^(١) .

وإذا ما أضربنا المثأخرون على جعل التشبيه مقدمة لبحث الاستعارة وقالوا إنه ليس من علم البيان ، لأن دلالة وصيغة ، فأنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا المجاز منه فهو عندهم أصل هذا الفن بل هو علم البيان وبه يمكن إيراد أغنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة . وقد حفل الشعر العربي القديم بكثير من المجازات البدعية . وكان المجاز سبيلاً لتفنن الشعراء والكتاب . وفي القرآن الكريم كثير من هذا الفن وإن اختلف الباحثون في ذلك فرأى بعضهم أن كتاب الله كله حقيقة ، وإذا كان معنى الحقيقة الصادق فذلك صحيح . أما إذا كان معنى المجاز العدول في اللغة عن معنى إلى آخر فليس الأمر كذلك لأنه جاء

(١) ينظر دراسات في علم النفس الأدبي من ١١ - ١٤ ، والدعوة الأخيرة من ١٢٠ ، والنقل المأثور ج ١ من ٥٧ - ٦٢ .

الكثير منه في كتاب الله . وذهب فريق إلى أن في كتاب الله العزيز عبارات وعليه معظم البلاغين . قال الزركشي : « لا خلاف أن كتاب الله يشتمل على الخفايا . وهي كل كلام بقي على موضوعه كالأيات التي لم يتجاوز فيها وهي الآيات الناطقة ظلوا بها بوجود الله تعالى وتوحيده وتنزيهه والباعية إلى أسمائه وصفاته كقوله تعالى : « هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ »^(١) »

وأما المجاز فاختلاف في وقوعه في القرآن وإجتهاد على الوقوع وإنكره جماعة منهم ابن القاص من الشافعية وابن عويز متذاد من المالكية . وحكي عن داود الظاهري وابنه وأبي مسلم الأصبهاني . وشبهتهم أن المتكلم لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير . وهو مستحيل على الله سبحانه . وهذا باطل . ولو وجب حلول القرآن من المجاز لوجب حلوه من التوكيد والحذف ولثنية القصص وغيره . ولو سقط المجاز من القرآن سقط شعر الحسن^(٢) » .

وكان ابن قتيبة قد أشار إلى ذلك منذ عهد مبكر فقال : « وأما العلماء على القرآن بالمجاز فأنهم زعموا أنه كذب : لأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل وهذا من أشنع جهالاتهم وأدفعها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم . ولو كان المجاز كذبا وكفل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً كان أكثر كلامنا فاسداً لأننا نقول « نبت البقل » و « طالت الشجرة » و « أبعث الدرء » و « أقام الجبل » و « رخص السعر »^(٣) » .

أما في كلام العرب فقد ذهب قوم إلى أن الكلام كله حقيقة . وذهب آخرون إلى أن الكلام كله مجاز لا حقيقة فيه . وفتد ابن الأثير هذين الرأيين .

(١) آخر ٦٦ .

(٢) اوردته في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٥١ .

(٣) لأبيون مشاعر القرآن ص ٩٩ .

وقال : « وكلا هذين المذهبين قاسد عندي ^(١) ، لأن الحقيقة هي حقيقة الالفاظ في دلالتها على معانيها ، وليست هي بالحقيقة التي هي ذات الشيء أي نفسه فالحقيقة اللفظية هي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في اللغة . والمجاز هو نقل اللفظ عن المعنى الموضوع له إلى معنى آخر .

وقال العلوي : « إن من الناس من زعم أن اللغة حقيقة كتابيا وتذكر المجاز وزعم أنه غير وارد في القرآن ولا في الكلام . ومنهم من زعم أن اللغة كتابيا محار وان الحقيقة غير محقة فيها . وهذان المذهبان لا يخوان من قساد . فالحقيقة في اللغة إفراط . والذكاء المجاز تفریط . فإن المجازات لا يمكن دفعها والذكاء في اللغة . فالتكثيرون : « رأيت الأسد » وعرضت الرجل الشجاع . وقوله تعالى : « وأمسك القتركة » ^(٢) . « وأحذنبس » ^(٣) لهما جناح الذك ^(٤) » . إن غير ذلك . ولا يمكن إنكار الحقائق كاخلاقي الأرض والسماء عسلى موضوعيهما ، وأيضا فإنه إذا تقرر المجاز وجب القضاء بوقوع الحقائق لأنه من المحال أن يكون هناك مجاز من غير حقيقة . فإذا بطل هذا القول المنطوق هو الثالث . وهو أن اللغة والقرآن مشتملان على الحقائق والمجازات جميعا . فما كان من الالفاظ مفيداً ما وضع له في الأصل فهو المراد بالحقيقة . وما أفاد غير ما وضع له في أصل وقده فهو المجاز ^(٥) .

وهذا عودة إلى رأي ابن الأثير وهو الصحيح . لأن أية لغة لا يمكن أن تبقى محصورة في ألفاظها الموضوعية والله لا يبدل من التنافق للدلالة على معاني جديدة لتطبيقات الحياة وتطورها . والمجاز كثير في اللغة العربية وبعد من متأخريها وهو دليل فصاحة ورأس البلاغة . ولذلك قال ابن قتيبة الخزازة : « لأن المعنى الذي

(١) أنقى البصائر ج ١ ص ٥٩ .

(٢) يوسف ٥٢ .

(٣) الأعراس ٢٥ .

(٤) الأعراس ج ١ ص ٥٥ .

استعملت العرب المجاز من أجله مبالغاً في الاندفاع في الكلام وكثرة معاني الالتفات ليكثر الالتفات بها . فان كل معنى لنفسه به لذة وان فهمه ارتباط وصورة . وكلمة ذي النلقى رافى مشروبه عندها ورافى في الكلام الخرافة ولذا لقلب ارتشاقه وعظم به اغتيابه . وهذا كان المجاز عندهم منهلاً موروداً عذب الارشاق وسبيلاً مباحاً كآطه على سواكمه العكاف . ولذلك كثر في كلامهم حتى صار أكثر استعمالاً من الخطائن وخاطب بشاشة قلوبهم حتى أتوا منه بكل معنى رائق ولفظ عاقل . واشتدّ بينهم في إصابة أغراضه فأثرا فيه بالبحر والرق وورثوا به حظههم وأشعارهم حتى صارت أخطائهم دثارهم وصار شعارهم (١) .

وقال العقاد :- فاللغة العربية لغة المجاز . لا لأنها تستعمل المجاز . فكثير من اللغات تستعمل المجاز كما تستعمل اللغة العربية . ولكن اللغة العربية تسمى لغة المجاز لأنها تجاوزت بتعبيراتها المجاز حدود الصور المحسوسة ان المعاني المجردة فيسمع العربي ان تشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة إلا ريثما ينتقل منها الى المقصود من معناه . فالقدر عليه بهاء . والزهره لظلاله . والغصن اعتدال ورشاقته . والورد وقار وسكينة (٢) .

وذكر ابن جني (٣) ان المجاز لا يقع في الكلام ويعادل عن الحقيقة اليه إلا لمعان ثلاثة هي : الانشاع . والتوكيد . والتشبيه . فان عدمت هذه الأوصاف الثلاثة كانت الحقيقة البتة . فحين ذلك قول النبي -- صلى الله عليه وسلم -- في القوس : هو بحر . وأخرى معانيه الثلاثة على هذه العبارة . فاما الانشاع فإلانه زاد في أسماء القوس التي هي القوس والبحراء والضرب وسورها البحر . وأما التشبيه فإلانه يجري في الكثرة مجرى مائه . وأما التوكيد فإلانه شدة العرض

(١) الفوائد ص ١٠ .

(٢) لغة الشعراء ص ١٠ .

(٣) الخصائص ج ١ ص ١١٢ .

والجواهر ، وهو ألب في النضرة .

ولكن ابن الأثير وقف من ابن جني موقفاً عنيفاً بعدد هذه المسألة ونظر إليه نظرة الساحر فقال : « والنظر يتطرق إليه من ثلاثة أوجه : »

الاول : انه يجعل وجود هذه المعاني سبباً لوجود المجاز . بل وجود واحد منها سبباً لوجوده ، ألا ترى أنه اذا وجد التشبيه واحده كان ذلك مجازاً ، واذا وجد الاستعارة واحده كان ذلك مجازاً ، ثم إن كان وجود هذه المعاني الثلاثة سبباً لوجود المجاز كان عليه واحد منها سبباً لعلفه

وأما الوجه الثاني : فإنه ذكر التوكيد والتشبيه ، وكلاهما شي ، واحد على الوجه الذي ذكره

وأما الوجه الثالث فانه قال : « اما الاتساع فهو انه زاد في أسماء الجهات والمجال كذا وكذا »^(١) . وهذا القول مضطرب بشديد الاضطراب لانه ينبغي على قياسه أن يكون جناح المال في قوله تعالى : « واغريض لها جناح الذكر »^(٢) زيادة في أسماء الطيور ، وذلك انه زاد في أسماء الطيور اسما هو المال ... والاتساع في المجال لا يقال فيه كذا وانما يقال : هو أن تجري من الصفات عن موصوف ليس أهلا له لأن تجري عليه لعدم ما بينه وبينها »^(٣) .

وكلام ابن الأثير صحيح إن كان ابن جني يقصد بعبارة هذا المعنى الذي يربط الجاز بثلاثة أمور هي: الاتساع والتشبيه والتوكيد. لأن سبيل الجاز أوسع وأغنى وأكثر. ويمكن أن يكون كما أوردناه ذكره سبحانه.

ولا بد أن يكون لكل عيار حقيقة ، وليس من الضروري أن يكون لكل

(١) إشارة إلى تعليق ابن أبي عمير قوله تعالى : *وَأُولَئِكَ فِي رَحْمَتِهِ الَّذِي هُوَ أَلَمَّ كُلَّ شَيْءٍ* الاستيعاب الغزير في أسماء الجهات والمقارن أسماءها هو الرحمة .

$$, \quad \tau \in [0, \infty) \quad (7)$$

(2) انظر المصدر ج 1 ص 366 .

حقيقة مجاز . فإن من الاسماء ما لا مجاز له كأسماء الاعلام لأنها وضعت للفرق بين اللوات لا للفرق بين الصفات . وكالاسماء التي لا أهم منها كالعلوم والمجهول والمدلول وغير ذلك مما أشبهه^(١) . والمجاز اذا كثر لحن بالحقيقة ومن ذلك ما تعارف عليه أصحاب الحرف والصناعات والعلوم وما شاع بين الناس وكثر تردده بحيث تنوسي فيه الاصل وأصبح حقيقة .

واللفظ لا يكون مجازاً إلا بشرطين :

أحدهما : أن يكون منقولاً عن معنى وضع اللفظ بآثاره أولاً ، وهذا يتميز عن اللفظ المشترك وعن الكذب الذي ادعي فيه أنه مجاز .

وثانيهما : أن يكون النقل مناسبة بين الاصل والقرع وعلاقة^(٢) .

تعريفه :

جاء في لسان العرب : « جزت الطريق وجاز الموضع جزواً ومجازاً . وجاز به وجاوزه وأجازه غيره وجازه وجاوزه جزواً وأجازوه وأجازوا غيره وجازه : صار فيه وسلكه . وجاوزت الموضع جزواً بمعنى جزته . والمجاز والمجارة : الموضع » .

فالمجاز اسم للمكان الذي يجاز فيه كالتعاليق والثرار وأشباههما ، وحقيقته هي الانتقال من مكان الى مكان . وأخذ هذا المعنى واستعمل للدلالة على نقل الألفاظ من معنى الى آخر ، وعرفوه تعريفات كثيرة فقال ابن جني وهو يعرف الحقيقة بأنها : « ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، والمجاز ما كان بضد ذلك^(٣) » .

(١) النقل المباشر ١ ص ٦٢ . وأيضاً الكبير ص ٢٠ .

(٢) انظر نهاية الإبل ص ٥٧ . وجميع الفرق ص ١٧٦ . والقواعد ص ١١ .

(٣) الخصائص ص ٢ ص ٢٢٩ .

وقال عبد القاهر : « المجاز متعلل من جاز الشيء بجزءه إذا تعداه . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً^(١) » . وقال : « وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز . وإن شئت قلت : كل كلمة جازت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً للملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز^(٢) » .

وقال : « وأما المجاز فقد عوكت الناس في حده على حدوت النقل . وإن كل لفظ نقل عن موضوعه فهو مجاز^(٣) » .

وقال الرارزي : « والمجاز مفعول من جاز الشيء بجزءه إذا تعداه . وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي . أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً^(١) » . وهذا تعريف عبد القاهر الأول ويبدو أنه اختاره من بين التعريفات الثلاثة . وهو أوضح من الآخرين وأكثر تفصيلاً . وإلغاه اختاره لهذا السبب من غير أن يشير إلى التعريفين الآخرين .

وقال السكاكي : « المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعه له بالتحقيق استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناه في ذلك النوع^(٢) » . وقال : « ولك أن تقول : المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع

(١) لسان البديع ص ٢٤٦ .

(٢) لسان البديع ص ٢٤٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٤) حجة الإعجاز ص ٤٦ .

(٥) مفتاح العلوم ص ١٧٠ .

حقيقتها مع قرينة مائة عن إرادة ما كانت عليه بنفسها في ذلك النوع .

ولكن أن نقول : المبحر هو الكلمة المتصلة في معنى معناها بالتحقيق استعمالاً في ذلك فالمعنى إلى نوع حقيقتها مع قرينة مائة عن إرادة معناها في ذلك النوع .

وقال العلوي : « المبحر (متعلق) يختلف إعمالاً عن المبحر الذي هو التعدي في قرينة : جزء مرفوع كذا ، إذا تعديته ، أو من الخواتم الذي هو نفيع الرجوع والامتناع . وهو في التحقيق يرجع إلى الأول ، لأن الذي لا يكون واجباً ولا متنعاً يكون متردداً بين الرجوع والعدم فكأنه ينتقل من الرجوع إلى العدم أو من التعبد إلى الرجوع . فلفظ المتعلق في غير موضوعه الأصلي شبه بالمتعلق فلا جرم سمى مجازاً ^(١) . ثم قال : « وأحسن ما قيل فيه : ما أفاده معنى غير مصدق عليه في الواقع الذي وقع فيه التماثل لعلاقة بين الأول والثاني . « وهذا منتهى أحسن تعريف للمبحر ، لأن ما قاله ابن جني وعبد القاهر وأبو عبادته وابن الأثير فاسد في تعريفه .

« ولم تعريفات أصحاب المعاني والبيان . « أما المبدعون فقالوا في تعريفه : المبحر عبارة عن تحويل الحقيقة بحيث يأتي المتكلم إلى اسم موضوع لمعنى فيخصه إما أن يجعله مفرداً بعد أن كان مركباً أو نحو ذلك من وجوهه المتعدية ^(٢) .

أقسامه :

تحدث البلاغيون والفقهاء عن المبحر في كتبهم . وسنأتي أبو عبيدة (٢٠٩ هـ) أحمد كاتبة : « حجاز القرآن » وأما قوله كثيرة التبرص إلى فهم

(١) القرآن : ١٠٠ ص ١٠٠ .

(٢) سورة الزمر : ١٠٠ ص ١٠٠ .

المعاني الفرقتين باحتناء أساليب العرب في كلامهم وسنتهم في وسائل الإيابة عن المعاني . ولم يكن بالمجاز ما هو قسم الحقيقة وإنما على مجاز الآية ما يعبر به عن الآية .

وسمى الشريف الرضي (- ٤٠٦ هـ) أحد كتبه « تلخيص البيان في مجازات القرآن » وسمى كتاباً آخر له « المجازات النبوية » . وكان المجاز في هذين الكتابين واسع المعنى يشمل صورده كلها ولا سيما الاستعارة .

وتعرض الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) للمجاز وهو عنده صورة مختلفة . ومن لطيف كلامه تعليقه على الآية الكرمة : « إن الذين يأكلون أموال البائس كأنهم يأكلون أموالهم فراءاً ويستبدلون سعيهم^(١) » . وقوله إنها من باب المجاز والتشبيه على شاكلة قوله تعالى : « أكلنا من ثمرها » ، وقد يقال ضم ذلك وإن شربوا تلك الأموال الأثيلة وليسوا الحظوظ وركبوا الدواب . ولم ينفخوا منها ذرهماً واحداً في سبيل الأكل . وقال الله - عز وجل - في تمام الآية : « إنما يأكلون في بطونهم فراءاً » . وهذا مجاز آخر . وقرن بالآية بعض آيات أخر من التنزيل الحكيم وبعض أشعار العرب التي تجري مجراها في الاستعارة . ثم عقب بقوله : « فهذا كله مختلف » . وهو كله مجاز^(٢) .

وكتب ابن قتيبة (- ٢٧٦ هـ) بحثاً مستفيضاً عن المجاز في كتابه « تأويل مشكل القرآن » . وتحدث الآخرون عن هذا الفن غير أنهم لم يقسموه . وعندما وضع عبد القاهر الجرجاني (- ٤٧١ هـ أو ٤٧٤ هـ) كتابه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » أخذ المجاز منزلته واستقرت قواعده وأصوله . وقسمه إلى مجاز لغوي ومجاز عقلي وفرق بينهما . وقال : « إنه إذا

(١) النساء ١٠ .

(٢) انظر ١٢ .

(٣) اشواق ج ٥ ص ٢٥ - ٢٨ .

وقع في الاتيات فهو مثقف من العقل ، وإذا عرض في المثبت فهو مثقف من اللغة ^(١) . وقال : « وأعلم أن المجاز على ضربين : مجاز من طريق اللغة ومجاز من طريق المعنى والمعقول . فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا : « اليد » مجاز في التسمية و « الأسد » مجاز في الانسان . وكل ما ليس بالسبع المعروف » كان حكماً أجريته على ما جرى عليه من طريق اللغة . لأننا أردنا أن التكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداءً في اللغة ولوقعها على ذلك إنما تشبيهاً وإنما لصلة وعلاقة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه . ومنى وصفتها بالمجاز الجملة من الكلام كان مجازاً من طريق المعقول دون اللغة ، وذلك أن الأوصاف اللاحقة من حيث هي جمل لا يصح ردها الى اللغة ولا وجه لنسبتها الى واضعها لأن التأليف هو إسناد فعل الى اسم أو اسم الى اسم . وذلك شيء يحصل بقصد التكلم » ^(٢) .

وفي هذا النص يتضح أنه قسم المجاز الى :

١ - لغوي ، وهو عنده نوعان :

الأول : يقوم على المشابهة ، وهو ما يسمى بالاستعارة .

الثاني : لا يقوم على المشابهة وإنما يكون « لصلة وعلاقة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه » وهو ما يسمى بالمجاز المرسل .

٢ - عقلي ، وهو الذي يعتمد على الاستناد .

وسار البلاغيون على خطا عبد القاهر وقسّمه الرازي (٦٠٦ هـ) إلى مجاز في الاتيات ومجاز في المثبت . وهذا العقلي واللغوي . وقال إن المجاز في الاتيات الجملة والمجاز في المثبت في المفرد . وأوضح هذا التفرع الذي قد يمر

(١) أُمُرُ الْبَلَاغَةِ ص ٣٤٥ .

(٢) أُمُرُ الْبَلَاغَةِ ص ٣٤٠ .

السؤال ههنا : - لأن المثلث لا يهـ وأن يكون مفرداً أو في قرعة المفرد . والاثبات
الما يكون في الجملة . فإنا : أنهم يقولون ثارة : المجاز إما أن يكون مفرداً أو
جملة . وأخرى المجاز إما أن يكون في الاثبات أو في المثلث . فاعلم أن
التقسيم متلازمان . وكل مجاز في الجملة فهو مجاز في الاثبات وبالعكس .
وكل مجاز في المفرد فهو مجاز في المثلث وبالعكس . و الفرق بينهما أن التسماء
المجاز إلى ما يكون في الاثبات وإلى ما يكون في المثلث سابق في الزمنية على انقسامه
إلى الجملة وإلى المفرد . فإن الاثبات والمثلث ركنا للفراغ الأخير . ولما كون
الاثبات منطقياً للجملة وكون المثلث مفرداً فحكمنا عارضاً لهذا بعد تمام
حقولهما^(١) .

وقسمه السكاكي (- ٦٦٦ هـ) إلى لغوي ورسني مجازاً في المفرد .
وعلى ورسني مجازاً في الجملة . ثم قسم مبحث المجاز إلى خمسة فصول هي :

الأول : المجاز اللغوي الرابع إلى معنى الكلمة غير المقيد .

الثاني : المجاز اللغوي الرابع إلى المعنى الملبس الحال عن المبالغة في التشبيه .

الثالث : الاستعارة .

الرابع : المجاز اللغوي الرابع إلى حكم الكلمة في الكلام .

الخامس : المجاز العقلي .

وهذا تقسيم سابقين . ولم يقره السكاكي ويرأى أن المجاز ينبغي أن يكون
لغوياً كله . وهو ملبس وغير مقيد . والمقيد استعارة وغير استعارة . وقسمه
القزويني (- ٧٣٩ هـ) إلى مفرد ومركب . وقال عن المفرد : - أما المفرد فهو
الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به الخطاب على وجه يصح
مع قرينة عدم إرادته^(٢) . وهو لغوي وشرعي وعرفي .

(١) نهاية الأجر ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الأيض ص ٢٦٨ .

وقال عن التركيب : - وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بهاء الأصلي تشبيه التمثيل بالمبالغة في التشبيه ^(١) . وهو التمثيل على سبيل الاستعارة . ثم قسم المجاز إلى مرسل واستعارة . ولوضح تقسيم انتهى إليه البلاغيون هو تقسيم المجاز إلى :

١ - عقلي .

٢ - لغوي . وهم قسمان : المرسل والاستعارة .

المجاز العقلي :

وهو أن يستعمل كل واحد من الألفاظ الواردة في موضوعه الأصلي ويكون المجاز عن طريق التركيب أو الاستناد .

وأما ما ذهبنا لنستقصي بحث هذا النوع من المجاز عند القدماء لا نجدهم يشيرون إلى أسماء هذا أو خلافاته وإن كانت في كتاب سيبويه بعض أمثله كقول الخنساء :

ترعى إذا لم يصب سقى إذا كثرت

فإنما هي بقرينة " وإذا يسار "

وكقوله : " تبارك منامه " و " ليلك قائم " ^(٢) . وهذا الكلام محمول على السعة والخلاف .

وفي كتاب الكامل للبريد أمثلة له كقول جرير :

لقد ضلنا يا أم غيلان في الحصى

ونبت وما ليل المطي يسامر

(١) الألباني ص ٢٠٤ .

(٢) كتاب البريد ج ١ ص ١٦٩ . والبريد ص ٨٠ - ٨٩ - ١٠٥ - ١١٠ .

وقول ربيعة بن العجاج :

حسارت قد فرجت عني غمي غمي

فنام لي وتجلت هممتي^(١)

والمراد بذهب في ذلك مذهب سيبويه . ويرى أن في هذا الأسلوب مبالغة إلى جانب السعة والجدف .

وتجد أمثلة له في كتاب « المازاة » للأعمدي وهي الأمثلة السابقة^(٢) . وفي كتاب « الصاحبي » لابن فارس الذي سماه « إضافة الفعل إلى ما ليس بفعل في الحقيقة »^(٣) . وغير ذلك من كتب البلاغة والنحو واللغة . ولكن هؤلاء لم يسموه باسمه ويرجع القليل إلى فصله عن المجاز القوي إلى عبد القاهر الجرجاني الذي أولاه عناية كبيرة . وقال في تعريفه : « وحدة إن كل كلمة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في الفعل فطرب من التأويل فهو مجاز »^(٤) . وسماه مجازاً عقلياً ومجازاً حكماً ومجازاً في الإثبات وإسناداً مجازياً^(٥) . وسماه السكاكي مجازاً عقلياً وتلقاه ابن مالك والزمخشري . وعمل المتأخرون هذه التسميات المختلفة فقال ابن يقطين المغربي : « ومن الأسناد مطلقاً مجاز عقلي » لأن حصوله بالتصرف العقلي . ويسمى مجازاً حكماً لوقوعه في الحكم بالمنسند إليه . ويسمى أيضاً مجازاً في الإثبات لمحصله في إثبات أحد الطرفين الآخر . والسلب حقيقته ومجازاً تابع لما يحقق في الإثبات . ويسمى أيضاً إسناداً مجازياً نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر . لأن الأسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله إلى غير ذلك^(٦) .

(١) التكميل ج ١ ص ٦٦٨ - ١٨٨ ج ٣ ص ١١٧٠ .

(٢) المازاة ج ١ ص ١٦٦ - ١٩١ - ٢١٦ .

(٣) الصاحبي ص ٢١٠ .

(٤) أسرار البلاغة ص ٢٥٦ .

(٥) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٧ - ٢٣١ ، وأسرار البلاغة ص ٢٢٨ .

(٦) مواهب اللغات (شرح الشخص) ج ١ ص ٢٤٦ .

وزرى بهاء الدين السبكي أن يسمى هذا اللون «جهاز الملايسة» ولا يقال «جهاز إسناد» لقلّة استعمال الاسناد بين الفعل وفاعله أو ما قام مقامه . ولعل الذي دعاه إلى ذلك أنه وجد أن علاقة المجاز العقلي هي الملايسة كما يفهم من كلام القزويني . وأنه لا بدّ منها في كل جهاز من هذا النوع . وإن ذلك أشار السيوطي بقوله : «المجاز في التركيب ويسمى مجاز الاسناد» والمجاز العقلي «وعلاقته الملايسة» وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة ملايسة له كقوله تعالى :

«وَإِذَا تَلَّسَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» (١)

إنّ عبد القاهر فتح السبيل لبلاغيين بدراسة العميقة لهذا النوع من المجاز ، ولذلك ذهب المرحوم طه حسين إلى أن المجاز العقلي من ابتكاراته (٢) . وكان العلوي قد نبّه إلى ذلك من قبل . وقال : «لما ذكرنا في المجاز الاسنادي العقلي هو ما قرره الشيخ النجاشي رحمه الله الجرجاني واستحسن بفكرته الصافية . وتابعه على ذلك الجهاشي من أهل هذه الصناعة كالأخلاقية» (٣) . وابن الخليل الرزقي وغيرهما (٤) .

والمجاز الواقع في الآيات عند الجرجاني متعلق بالعقل وليس متعلقاً من اللغة . فالأول عقلي والثاني لغوي . وذلك لأن الآيات استعجم من معانيه أن يفيد مرّتين ولزم من ذلك أن لا يعمل إلا بالجملة التي هي تأليف بين حديث ومحدث عنه أو مستند ومستند إليه . علمت أن مأخذ العقل وأنه القاصي فيه قول اللغة : «لأنّ اللغة لم تأت لتحكمكم أو لتبثث وتثني» .

وتحدث عن المجاز العقلي في كتابيه الشهيرين . وخلاصة ما قاله إن في الكلام مجازاً يكون التجوز في حكم يجري على الكلمة وتكون الكلمة متروكة

(١) الأفعال ٢ - ينظر القرآن في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) البيان العربي من أيّ حدّ إلى عبد القاهر - مقدمة نقد الشعر ص ٢٩ .

(٣) الخراز ج ٣ ص ٢٥٧ .

على ظاهرها ويكون معناها مقصوداً في نفسه ومراداً من غير تورية وتعميش
 كقولهم : « نبارك صائم » و « ليلتك قائم » . و « نام ليلي وتجاشى همي » .
 وقوله تعالى : « فسارحت شجار ثلهم »^(١) . وقوله الفرزدق :

سقاها عروق في المسامع لم تكن
 علامة ولا خريطة في الملاعن^(٢)

قال عبد القاهر معلقاً عن هذه الأمثلة : « أنت ترى مجازاً في هذا كله
 ولكن لا في ذوات الكلم وأنفس الألفاظ ولكن في أحكام أجريت عليها . أملاً
 ترى أنك لم تتجاوز في قولك : « نبارك صائم » و « ليلتك قائم » في نفس
 « صائم » و « قائم » ولكن في أن أجريتهما خبرين على النهار والليل . وكشفت
 ليس المجاز في الآية في « رحت » ولكن في إسنادها إلى المجازة . وهذا الحكم
 في « سقاها عروق » ليس التجوز في « سقاها » ولكن في أن أسندناها إلى العروق .
 أملاً ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه
 وحقيقته فلم يرد به « صائم » غير الصوم ولا به « قائم » غير القيام ولا به « رحت »
 غير الربح ولا به « سقت » غير السقي كما أريد في قوله : « ومالت بأعناق
 النقي الأياطح » غير السيليل^(٣) .

وذكر أمثلة كثيرة للمجاز العقلي وقارنها بمجاز الخلف . من ذلك قول
 الكهسار :

ترفع ما رعت حتى إذا اذكت^(٤)
 قائمها هي إقبال وإدبـسار

(١) البقرة ١٦ .

(٢) خط الثاني : وسمها . بخط وهي صفحة العنق ثم جعل يعلو في آخر البيت . المصنف : الميم
 والألف و . جوفه . والفتح : ملائم .

(٣) دلائل الأجر ص ٢٢٨ .

وذلك أن القاعدة لم ترد بالاقبال والادبار غير معناها فتكون قد تجاوزت في نفس الكلمة وإنما تجاوزت في أن جعلتها لكثرة ما تنقل وتدير ولغاية ذلك عليها والتصاله بها والله لم يكن لها حال غير هذا . كأنها قد تيسست من الإقبال والادبار . وإنما كان يكون المنحاز في نفس الكلمة لم أنها كانت قد استعارت الإقبال والادبار لمعنى غير معناها الذي وضعها له في اللغة . ولم ترد الاستعارة هنا في شيء . ولم يعد هذا على الإطلاق معناه ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله - عز وجل - : « وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ » ومثل قول النابغة الجعدي :

وكيف تواصل سنن أميحت

خلالته كسائي مريح

وقول الأعرجي :

حسيت بغام راحلي عناقاً

وما هي وثبي فرك بالعناق^(١)

قال عبد القادر : « وإن كنا أراهم بذكره حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير « فاقما هي ذات إقبال وإدبار » ، ذلك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية واليهذين في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد في المعنى كمثل أن يحذف غير المبتدأ أو المبتدأ إذا قال « النبل عليه ان سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به . وليس الأمر في بيت النخساء ، لأنها إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا : « فاقما هي ذات إقبال وإدبار » أنفسنا لشعر على أنفسنا وأخرجنا ان شيء مغسول وان كلام علمي مرفول وكان سبيلنا سبيل

(١) أومف ٨٦ .

(٢) الخلال : المضاف - أبو حبيب : المثل .

(٣) الخلال : العزى - وبيب : مثل ويل وزناً ومثل : واستعارة .

من يزعم مثلاً في بيت المتنبي :

بَدَأَتْ قَمَرًا . ومالت نحووط بسان

وقاحت عابراً . ورتت غزالا

إنه في تقدير مخلوف وأن معناه الآن كالعنى إذا قلت : بدت مثل قمر ، ومالت مثل نحوط بان ، وقاحت مثل عابر ، ورتت مثل غزال . في أنا تخرج إلى الغلاة وأن شيء يعزل البلاغة عن ساهاتها ويخفف من شأنها ، ويصدأ أوجها عن محاسنها ، ويصدأ باب المعرفة بها ويلصقها علينا . قالوجه أن يكون تقدير الضاد في هذا على معنى أنه لو كان الكلام قد جيء به على ظاهره ولم يقصد إلى الذي ذكرنا من المبالغة والاتساع وأن تجعل الناقدة كأنها قد صارت جدلتها إقبالا وإدباراً حتى كأنها قد تجسمت منهما لكان حقه حينئذ أن يناء فيه باللفظ ذات فقال : إنما هي ذات إقبال وإدبار . فلما أن يكون الشعر الآن موضوعاً على إرادة ذلك وعلى تنزيهه منزلة المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال في « حبست بغمام راحلي عساق » حين كان المعنى والقصد أن يقول : « حبست بغمام راحلي بغمام عساق » فلما لا مساع له عند من كان صحيح الذوق ، صحيح المعرفة ، نسابة للمعاني (١) .

وفي هذا النص فهم دقيق للمجاز العقلي في بيت الحسناء والآية الكريمة ، وهو يختلف عن فهم النحاة حينما يقدرون مخلوقاً وبذلك يوجهون الكلام توجيهاً لم يقصده الشاعر . ولفرق كبير بين أن تكون الناقدة ذات إقبال وإدبار ، وبين أن تتجسم حتى كأنها هي الإقبال والإدبار .

وليس بواجب في المجاز العقلي أن يكون للفعل فاعل في التقدير إذا نحن قلنا الفعل إليه عدنا به إلى الحقيقة مثل أن نقول في « ربحت تجارتهم » : ربحوا في تجارتهم . وفي « يحيى نساءنا ضرباً » : يحيى نساءنا بضرب . فإن

(١) وقيل الإجمال من ٢٢٨ .

ذلك لا يتأتى في كل شيء . ونحن لا نستطيع أن نثبت لفعل « أقنعني بذلك
حقاً » لي حل إنسانه فاعلاً سوى « الحق » ، وكذلك لا نستطيع في قول الشاعر :
وصبرني هسواك وبني ليحيتي بغيرتي المتصل
وقوله :

بزيدك وجهه حسناً إذا ما زدتك شعراً
أن نزع « أن » « صبرني » فاعلاً قد نقل عنه الفعل فجعل للهوى كما في
« رحت لجاربهم » و « يحيي لسانها صبراً » . ولا نستطيع كذلك أن نقدر لـ
« بزيد » في « بزيدك وجهه » فاعلاً غير الوجه .

وهذا النوع من المجاز كثر من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المطلق والكاتب
الباق في الابداع والاحسان والاتساع في طرق البيان . وسبب القف في أنه
ليس كل شيء يصلح لأن يتعامل فيه هذا المجاز بسهولة بل تحتاج في كثير من
الأمر إلى أن نهيء الشيء ونصلحه لذلك بشيء نترجمه في النظم الذي ربط به
عبد القاهر فنون البلاغة . ومثال ذلك قول الشاعر :

نناس طلاب العزيرة إذا نسأت
بأسجح مرقال الصبح فتلحق القصور^(١)
إذا ما أحسنه الأفعى عيرت
شوا الأفاعي من مثلثة سمر^(٢)
يجوب له الغمامة زين كآنها
زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر^(٣)

- (١) الأسجح من الأبل : هو الرقيق الشمر ومن غيره الحن المعدل . مرقال الصبح : أي يسرح
السير في الصبح . كعصر : الحزام وقطعة من القصور .
(٢) يقول : إذا ملأ الأفعى الأفاعي خارجة من صغورها وأصبحت قد كبرت شواها أي حلومها
والقذفت من حريقه . الشمة السمر : هي الأفاعيل منها السمر على الحضرة .
(٣) الشرب : جذاة الشارون . صفر : خالية .

قال عبد القاهر : « يصف جملاً ويريد أن يرتدي بنور عتيبه في الظلام
ويمكنه بها أن يفرقها ويغني فيها . ولولاها لكات الظلام كالسد والحاجر
التي لا يجد شيئاً يفرجه به ويجعل لنفسه فيه ميلاً . فالت الآن تعلم أنه لولا
أنه قال : « نجوب له » فعلاني « له » بـ « نجوب » لما صاحبت العين لأن « بسداد
« نجوب » أيها ولكن لا تزين جهة التجوز في جعل « نجوب » فعلاً للعين كما
ينبغي . وكذلك تعلم أنه لو قال مثلاً : « نجوب له لظلام عتيبه » لم يكن له هذا
الموقع ولاضطرب عابه وساء وانقطع السك من حيث كان يصيبه حيث أن
يصف العين بما وصلها به الآن . فتكمل هذا واعتبره فهذه النهاية وحده الاستعداد
في هذا المجاز الحكيم نظير أنك تراك في الاستعارة التي هي مجاز في نفس
الكلمة وأنت تحتاج في الأمر الآخر أن تهمل ما تقدم أو تؤخر ما يعلم به أنك
مستعير ومثلية . ويخرج طريق المجاز إلى الكلمة . ألا ترى إلى قوله :

وصاعقة من نصدده ينكلي يسداً

على أرواس الأقران خمس سحاب

على خمس السحاب أقاله . ولكنه لم يأتي بهذه الاستعارة دفعةً ولم يرمها
إليك دفعةً . بل ذكر ما بني عليها ويستدل به عليها . فذكر أن هناك صاعقة
وقال : « من نصدده » فيبين أن تلك الصاعقة من نصل سبده ثم قال : « أرواس
الأقران » ثم قال : « خمس » فذكر الخمس التي هي عدد أقال اليد فيان من
مجموع هذه الأمور غرضه (١) .

وأخذ الزمخشري آراء عبد القاهر وعلّقها في التفسير « الكشف » . وقال في
آية الكرمية : « فما ربححت تجارهم » : « قلت : حر من الاصناد المجازي .

(١) مائت الامور . ص ٢٤١ - ٢٤٢

وهو أن يسند الفعل إلى شيء . يلتبس بالذي هو في الحقيقة له كما تبينست التجارة
بالمشترين » (١١) .

وسار الرازي على خطاه وإن خالفه في بعض الأحيان (١٢) ، ولما وضع
السكاكي البلاغة وضعها الأخير بحث المجاز العقلي في علم البيان وقال عنه :
« المجاز العقلي . هو الكلام المقاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب
من التأويل إعادة للخلاف لا بواسطة وضع (١٣) » . ولكنه بعد أن فصل القول فيه
عاد وأتكره ورأى نفسه في ذلك الاستعارة بالكتابة وذلك يجعل « الرابع » في « ألبت
الرابع » قبل « استعارة بالكتابة على الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه على ما
عليه مبنى الاستعارة ، وجعل نسبة الانبات إليه قرينة الاستعارة (١٤) . وإلى ذلك ذهب
العلاوي أيضاً وقال أن أمثلة المجاز العقلي مجازات لغوية استعملت في غير
موضوعاتها الأصلية ، واعتبر ما ذهب إليه الرازي من أنها عقلية فاسداً من
وجهين :

الأول : لأن قاعدة المجاز ومعناه حاصل في المجازات المركبة من أنه أقاد
معنى غير مصطلح عليه . فلهذا كان المركب بالمعاني اللغوية أشبه .

الثاني : أن المجاز في « زيد أسد » لغوي فيجب أن يكون المركب أيضاً
كذلك . وإجماع بينهما أن كل واحد منهما قد أقاد غير ما وضع له في أصل
تلك اللغة فوجب الحكم عليه لغوياً (١٥) .

وقال : « وللمختار أن المجاز لا يدخل له في الاستحكام العقلية ولا لوجه

(١) التكرار : ج ١ ص ٤٣ . وانظر القول ص ٤٤ .

(٢) انظر نهاية النجاشي ص ٢٧ وما بعدها .

(٣) ملتحاح العلوم ص ١٨٤ .

(٤) ملتحاح العلوم ص ١٨٤ .

(٥) القول : ج ٢ ص ٧٤ - ٧٦ .

لتسمية المجاز بكونه عقلياً ، لأن ما هذا حاله إنما يتعلق بالأوضاع اللغوية دون الاحكام العقلية^(١) .

واعتبره القزويني مجازاً بالاسناد . وأخرجه من علم البيان وأدخله في علم المعاني . وعقد له فصلاً وقال عنه : « إننا لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه لدخوله في تعريف علم المعاني دون تعريف علم البيان^(٢) » . ولأن الاسناد منه حقيقة عقلية ومنه مجاز عقلي .

ولعل ما ذهب إليه السكاكي والعلوي أول بالأخذ . وبذلك ينقسم المجاز إلى مفرد وهو ما كان في اللفظة الواحدة . ومركب وهو ما كان في التركيب والمجاز العقلي ثلاثة أقسام :

أقسامه :

الأول : ما طرفاه حقيقةتان نحو : « أتيت الربيع البغل » . وقوله تعالى : « وإذا تكلمت عليهم آياته زادتهم إنسياً^(٣) » . وقوله : « وأخرجت الأرض أثقالها »^(٤) .

الثاني : ما طرفاه مجازيان نحو قوله تعالى : « فمما رويت عنهم^(٥) » . وقولهم : « أحياء الأرض شباب الزمان » .

الثالث : ما طرفاه مختلفتان . أي ما كان أحد طرفيه . المسند أو المسند إليه — مجازاً دون الآخر . كقوله تعالى : « تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ كَلَّ حَبِيبٌ إِذَا ذُكِرَ

(١) الطراز ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) الفتح ص ٣١ .

(٣) البقرة ٢٠ .

(٤) الزلزلة ٢ .

(٥) البقرة ١٦٠ .

ربها^(١) ، وقومهم : « أحياء الأرض الربيع » ، و « أثبت البقل شباب الزمان »
 و « أحييتي رؤيتك » أي : أكتسبت وسررتي . ومنه قول المتنبي :
 ونحيي له الحال الصوارم والقنسا ويقتل ما نحني التيسم والجدا
 قربته :

ولا بد له من قربته إما لنظية كقول أبي النجم :
 قد أمّنت أمة الخيال ندائي على ذنبا كله لم أصنع
 من أن ألت دمي كراسر الأصلع ميز عنه فتنزعا عن فتنزعا^(٢)
 جندب القبالي : أبغضني أو أشرعني
 وهذا مجاز بدليل قوله بعده :
 أفتاء قبيل الله للشمس اطلعي حتى إذا وافاك أفق فارجمي
 أو غير لفظة كاستحالة صدور المسند من المسند إليه أو قيامه به عقلا مثل :
 « بميتك جاءت بي إليك » أو عادة مثل « هزم الخليفة الجند » وكصنوع
 الكلام من الموحّد في مثل قول الشاعر :
 أشاب الصغير وأقنى الكبير كثر الغداة ومر العشي

علاقته :

ولا بدّ لهذا النوع من المجاز أن تكون له علاقة ، وأشهر علاقته :
 ١ — القعولية : فيما ينشئ للفاعل واستند إلى المفعول به الحقيقي . كقوله تعالى :
 « عيشة راضية »^(٣) . وهي مرضية .

(١) إبراهيم ٩٥ .

(٢) الفروع : الشعر حواله الرأس .

(٣) القواعد ٧ .

٢ - التفاعلية : فيما بُني للفعول وأُسند للفاعل الحقيقي مثل : « سَبَّلَ مُنْصَعِمٌ » ، لأنَّ السَّبَلَ هو الذي يُنْصَعِمُ ، أي : يجلد .

٣ - المصدرية : فيما بُني للفاعل وأُسند إلى المصدر مجازاً ، مثل : « شعِرَ شاعرٌ » فقد أُسند « شاعر » إلى ضمير المصدر وحقق أن يسند إلى الفاعل أي « الشاعر » ، لأنه هو الفاعل الحقيقي . ومثله قول أبي فراس الحمداني :

سبَّلَ كُتْرِي قَوْمِي إِذَا جَسَدٌ جَدَّ هَمُّهُ
وَفِي الْبَيْتِ الظُّلُمَاتِ يُنْصَعِمُ السَّيْدُ

فقد أُسند « جَدَّ » إلى « ابْنَد » وهو ليس بفاعل له بل فاعله « ابْنَد » .

٤ - الرمائية : فيما بُني للفاعل وأُسند لزمان مثل : « نَهَارُهُ صَالِمٌ » و « لَيْلُهُ قَاتِمٌ » ، لأنَّ النهار لا يَصُومُ ، والليل لا يَقُومُ وإنما يَصُومُ في النهار ويُقَامُ في الليل ، والفاعل الحقيقي هو الصائم والقائم . ومنه قوله تعالى : « وَالْفُجْحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى ^(١) » . والليل لا يَسْكُنُ وإنما تَسْكُنُ حركات الناس فيه . ومنه قول الشاعر :

لَقَدْ لَمَسْنَا يَا أُمُّ خَيْلَانٍ فِي السَّرَى
وَتَبَسَّتْ وَمَا لَيْلُ الْمُغَيِّ بِثَائِسٍ

ومنه

مَنْ مَرَّةً زَمَنْ سَاعَةً أَرْمَانُ

فقد أُسندت الإسماء والسروور إلى الزمن وهو ثم يفعلهما بل كانا واقعين فيه على سبيل المجاز .

٥ - المكانية : فيما بُني للفاعل وأُسند للمكان . كقوله تعالى : « وَجَعَلْنَا

(١) الفجر ١ و ٢ .

الأنهار تجري من تحتهم^(١) . والنهر لا يجري لانه مكان جري الماء . وإنما يجري ما فيه وهو الماء .

٦ - العربية : فيما بُني للفاعل وأُسندَ مسبب . مثل : « بنى الخاكم المدينة » والحاكم لم يبنَ وإنما بنى العمال بسببه أو بأمره . ومنه قول الشاعر :

بنيَ من معشر أقي أو أثبتهم قيل الكفاة : ألا أين المحامونا
والقي لم يبن . وإنما الذي أقي هو الشجعان .

والجذر العقل كثير في الكلام العربي وفي كتاب الله العزيز كقوله تعالى : « وإذا ثبتت عليهم آياته زاد قوم إيماناً^(٢) » نسبت زيادة الإيمان إلى الآيات وهي من عند الله أو من فعله لتكون الآيات سبباً فيها .

وقوله : « وأسروحت الأرض أنشأتها »^(٣) فإن الإخراج حقيقة في الدلالة على معناه والأرض حقيقة لأنها موضوعة على معناها الأصلي . والمجاز إنما أتى من جهة إسناد الإخراج إلى الأرض .

وقوله : « يندبح أبناءهم^(٤) » والفاعل غيره . ونسب الفعل إليه لكونه أكثرهم .

وقوله : « ينزع عنهما لباسهما »^(٥) نسب النزاع الذي هو فعل الله إلى إبليس . لأن فيه أكل الشجرة .

وقوله : « فما ربحت تجارتهم^(٦) » . جعل التجارة الرابحة .

(١) النعم ٢٠

(٢) الأنعام ٢

(٣) الزمر ٥١

(٤) القصص ٤

(٥) الأعراف ١٧

(٦) البقرة ١٧

وقوله : « فإِذَا عَزَمْتَ الْأَمْرَ »^(١) ، لأن الأمر هو المعزوم عليه بدليل :
« فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »^(٢) .

وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَدْعُوا لِعِصْمَةِ اللَّهِ كُفْرًا وَاحْتِلُوا قِسْمَتَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ »^(٣) ، نسب الاحتلال الذي هو فعل الله إلى أكابرهم ، لأنَّ سببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم بإياهم بالكفر .

وقوله : « يَوْمَ يُعَلِّقُ الْوِلْدَانَ شِيبًا »^(٤) ، نسب الفعل إلى الطرف لوقوعه فيه .

وقوله : « حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ »^(٥) ،
والمجاز حاصل من جهة استناد الأخذ إلى الأرض^(٦) .

وفي هذا رد على الذين يذهبون إلى عدم وقوع المجاز العقلي في القرآن لا يباين
المجاز الكذب ، وكتاب الله منزّه عنه . وقد أحسن القدماء كعبد القاهر
والسكاكي والفزوي حينما قرروا أن القرآن الكريم لا يخلو من هذا الأسلوب
الرفع الذي له أثره وقيمه في التعبير وإن أنكره السكاكي ونظمه في سلك
الاستعارة المكنية وأدخله الفزوي في علم المعاني . وكان حقه أن يبحث مع
أنواع المجاز الأخرى ، ولذلك كان منهجه في هذه المسألة مثار نقد المتأخرين
السائرين في ركابه . قال التفازلي شارح تلخيصه : « وفي نظر : لأن علم
المعاني إنما يبحث عن الأحوال المذكورة من حيث أنها يعاين بها اللفظ مقتضى
الخال . وظاهر أن البحث في الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هذه الحثية فلا

(١) محم ٢١ .

(٢) آل عمران ١٥٩ .

(٣) إبراهيم ٢٨ .

(٤) الزمل ١٧ .

(٥) يونس ٢٤ .

(٦) ينظر أسرار إيهامه ص ٣٥٩ ، والتفصيح ص ٢٧ .

يكون داعلاً في علم الثاني ، وإلا فالحقيقة والمجاز القويان أيضاً من أحوال المسند إليه أو المسند^(١) .

وليس ملازماً لأحد ما ذهب إليه بعضهم من أن هذا المجاز من مباحث علم الكلام وأول به أن يضم إليها ، لانه كما الفصح من كلام عبد القاهر والقزويني والعلوي يعدّ كنزاً من كنوز البلاغة و ذخيراً بعدد إليه الكاتب البليغ والشاعر المقلق والخطيب المصقع . وليس أدلّ على ذلك من أن القدماء استعملوه في كلامهم وإن القرآن الكريم حفل بالوان منه وإن البلاغيين والنقاد أشاروا إليه وذكروا أمثلته وإن لم يطلق عليه الاسم إلا مؤخراً على يد عبد القاهر . وهذا كله يدل على أن المجاز العقلي أوان من ألوان التعبير وأسلوب من أساليب الفن في القول ولا يفرجه من البلاغة إفساد المتأخرين له وادخال مباحث المتكلمين فيه عند تعرضهم للداعل الحقيقي .

المجاز المرسل :

يكون المجاز القوي في نقل الالفاظ من حقائقها القوية إلى معاني أخرى بينها صلة ومناسبة . وقد يسمى المجاز المفرد . وقد قسمه القزويني إلى مرسل واستعارة ، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة وإلا فهو مجاز مرسل . وعرف المرسل بقوله : « وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملازمة غير التشبيه^(٢) » كاليد إذا استعملت في النعمة أو في القدرة .

وسمي هذا النوع مرسلأ ، لأنّ الأرسال في اللغة الإحلاق ، والمجاز الاستعاري مقيد بادعاء أن المشبه من جنس المشبه به ، والمرسل مطلق من

(١) القول ص ٢١ .

(٢) التبصير ص ٢٧٠ .

هَذَا الْقِد . وَقِيلَ : إِنَّمَا سَمِيَ «رَسَالَةً» لِأَرْسَالِهِ عَنْ التَّجْيِيدِ بِعِلَاقَةِ غُدْرَةِ
بِل رَدِّهِ بَيْنَ عِلَاقَاتِ بَحَارَاتِ الْمَجَازِ الْإِسْتِعَارِيِّ فَاهُ بِعِلَاقَةِ وَاحِدَةٍ وَهِيَ
الْمَشَابَهَةُ .^(١)

وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا أَطْرَاقَ اسْمِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ قَبْلَ السَّكَاكِينِ^(٢) ،
وَكَانَ الشَّاعِرُ قَدْ ذَكَرَهُ فِي أَلْوَانِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْهُ ، وَمِنْهُمْ الْقَرَاءُ الَّذِي قَالَ فِي قَوَائِدِهِ
تَعَالَى : « فَتَلْبِذُوعٌ قَادِمٌ »^(٣) : « وَالْعَرَبُ تَقُولُ : الْبَادِي يَشْهَدُونَ عَلَىكَ
وَالْمَجْلِسُ . يَجْعَلُونَ الْبَادِي وَالْمَجْلِسَ وَالشَّهْدَ وَالشَّاهِدَ - الْقَوْمُ قَوْمُ الرَّجُلِ »^(٤) .
وَأَشَارَ الْأَمْدِيُّ إِلَى السَّبِيحَةِ وَالْمَجَاوِرَةِ . وَهِيَ مِنْ عِلَاقَاتِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ
كَقَوْلِهِ لِلْمَطَرِ : سَمَاءٌ . وَقِرْطُومٌ : « مَا رَلْنَا نَعْلًا السَّمَاءَ حَتَّى أَتَيْنَاكُمْ » وَقَالَ
الشَّاعِرُ :

إِذَا سَكَنَ السَّمَاءَ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِيَاثِيَا

أَرَادَ : إِذَا سَقَطَ الْمَطَرُ رَعَيْنَاهُ أَيَّ : رَعَيْنَاهُ الثَّبْتَ الَّذِي يَكُونُ عَنْهُ ، وَهَذَا
مِنْ ثَبَتِ الْبَادِي ، لِأَنَّهُ عَنِ الْبَادِي يَكُونُ . وَقَالُوا : « مَا بِهِ طَرِيقٌ » أَيَّ مَا بِهِ
قُوَّةٌ ، وَالطَّرِيقُ : الشَّجَمُ ، فَوْضَعُوهُ مَوْضِعَ الْقُوَّةِ ، لِأَنَّ الْقُوَّةَ عَنْهُ تَكُونُ .
وَقَوْلُهُ لِمَزَادَةِ رَاوِيَةٍ ، وَأَمَّا الرَّاوِيَةُ الْبَعِيرُ الَّذِي يُسْقَى عَلَيْهِ الْمَاءُ فَسَمِيَ الرَّاوِيَةً
الَّذِي يَحْمِلُهُ بِاسْمِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ « الْخَفِضُ » مَتَاعُ الْبَيْتِ فَسَمِيَ الْبَعِيرُ الَّذِي يَحْمِلُهُ
خَفِضًا ، وَهَلَهُ بَعْضُ أَقْوَامِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الَّذِي تَبَدَّلَتْ عَنْهُ الْمُتَأَخَّرُونَ^(٥) .

وَقَالَ ابْنُ جَنِّي عَنْ أَبِيهِ :

(١) تَنْظُرُ حَاقِيَةُ الْهَمَوِيِّ (تَرْجُومَةُ الْبَلَّاجِ) ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) مَقَاتِلُ الْعُلُومِ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) الْمَثَلُ ١٧ .

(٤) دَعَايُ الْفَرَّاقِ ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٥) كَوْنُهَا ج ٦ ص ٢٤١ . وَتَنْظُرُ كِتَابُهَا الْهَادِيَةُ كَتَبَهُ الْأَوَّلِيُّ فِي تَرْجُومَةِ أَرْبَاعِ الْهَجَرِ ص
٢٢٠ - ٢٢١ .

في الآكابر النساء ظلماً فما أرى
يتألمون عتيراً بعد أكلهم المسام

« فكانه من باب الاستعارة بالمسبب عن المسبب . يريد : قوماً كانوا يبيعون
الماء فيشربون بشمه ما يأكلونه فكانت يذكرون الماء الذي هو سبب الأكل
من ذكر الأكل^(١) » .

وقسم الامام الغزالي المجاز إلى أربعة عشر نوعاً ومعظمها تدخل في المجاز
المرسل . وذكر ابن الأثير أنها ترجع إلى التوسع وتشبيه والاستعارة^(٢) . ولعل
سبب ذلك ان المجاز المرسل لم يأخذ عنده صورة واضحة بل لم يكن مصطلحه
معروفاً . والاقسام التي ذكرها الامام الغزالي هي من باب المجاز المرسل .

وتكلم عبد القاهر على هذا النوع من المجاز ولم يسمه مرسلأً وإنما هو
لغوي يقرن بالاستعارة وإن كانت علاقته غير المشابهة . وفي قوله : « ولما اصدت
وملاسة بين ما نقلها اليه وما نقلها عنه^(٣) » تمييز للمجاز المرسل عن الاستعارة
ومعنى ذلك ان عبد القاهر لم يفرق بين القولين « وكان السكاكي — فيما
نعلم — أول من أطلق التسمية وتابعه بدر الدين بن مالك والقزويني وغيرهما
من البلاغيين . وتوسع ابن قيس الجوزية والعلوي والزرکشي في بحث هذا النوع
وجمعوا له علاقات كثيرة ومن أشهرها :

علاقاته :

١ — الجزئية : وهي تسمية الشيء باسم جزئه كالعين في الرقيب . وقوله
تعالى : « قم الليل إلا قليلاً^(٤) » . أي : صل . وقوله : « فتحرر^(٥)

(١) الخصائص ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) ينظر المثال المدرج ج ١ ص ٢٦٨ وقد يضاف .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣٧٦ .

(٤) الزمل ٢ .

رقية مؤمنة^(١) ، أي : تحرير عبد مؤمن . وقوله : « وَيَسْتَفِي وَجْهَهُ رَبُّكَ »^(٢) ، أي : ذاته . وقوله : « كَلَّ شَيْءٌ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »^(٣) . وقوله : « وَجْهَهُ يَوْمَئِذٍ خَالِشَةٌ ، عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ »^(٤) ، أي : الأجساد . وقوله : « وَالْمُحْرَبُونَ مِنْهُمْ كُلٌّ لِنَاكٍ »^(٥) ، أي : الأيدي . وقوله : « وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ »^(٦) ، أي : إياه . ومنه قول الشاعر :

وكم علمته نظم القوامسي فلما قسال قافيةً هجاني
أي : الشعر .

٢ - الكلبيّة : فيما إذا ذكر الكل وأريد الجزء . كقوله تعالى : « يَجْعَلُونَ أَيْدِيَهُمْ فِي أَكْأَانِهِمْ »^(٧) ، أي : أنفهم . وقوله : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا »^(٨) ، أي : بعض اليد الذي هو الرمح . وقوله : « وَمَنْ لَمْ يَطْعَمَهُ »^(٩) ، أي : لم يذقه .

٣ - السببية : بأن يطلق لفظ السبب ويراد المسبب كقوله تعالى : « يَنْدُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ »^(١٠) ، أي : قدرته فإن اليد سببها . وكقول الشاعر :

لله أيسار عليّ سابقة أعدّ منها ولا أعدّ دُها

(١) السجدة ١٦ .

(٢) الرحمن ٢٧ .

(٣) القصص ٨٨ .

(٤) النازعة ٣ .

(٥) الأندلس ١٢ .

(٦) آل عمران ٢٠ .

(٧) البقرة ٦٤ .

(٨) المائدة ٢٨ .

(٩) البقرة ٢٠٩ .

(١٠) الفتح ١٠ .

أي : نِعَم ، لأن الأيدي سبب فيه..

٤ - المسببة : فيما إذا ذكر لفظ المسبب وأريد السبب ، كقوله تعالى :
« وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ^(١٥) » أي : مطراً هو سبب الرزق .
وقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا ^(١٦) » أي : مالاً تصيب عنه النار .

٥ - السبب : وهي اعتبار ما كان أي تسمية الشيء باسم ما كان عليه كقوله
تعالى : « وَاتَّخَذُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ^(١٧) » أي : الذين كانوا يتامى .
وقوله : « إِنَّهُ مِنْ بَيْنَاتِ رَبِّهِ مُبَجْرَمًا ^(١٨) » سبحانه مجرماً باعتبار ما كان
عليه في الدنيا من الاجرام .

٦ - الاستعداد : وهي اعتبار ما يكون أي إطلاق اسم الشيء على ما يؤول
إليه كقوله تعالى : « إِنِّي لَرَأِي أَعْصِرُ خُمُرًا ^(١٩) » . وقوله : « إِنَّكَ
مَتِّبٌ وَهُمْ مَبْتَلُونَ ^(٢٠) » . وقوله : « وَلَا يَكِيدُوا إِلَّا فَاجِرًا
كَفَّارًا ^(٢١) » . . .

٧ - المحلية : فيما إذا ذكر لفظ المحل وأريد به الحال فيه . كقوله تعالى :
« فَلْيَبْذَعْ نَارِيَهُ ^(٢٢) » أي : المجمعين في النادي . وقوله : « يَقُولُونَ

(١) طاهر ١٢ .

(٢) السام ١٠ .

(٣) السام ٢ .

(٤) م ٧٤ .

(٥) يوسف ٢٦ .

(٦) الزمر ٤٠ .

(٧) توبه ٦٧ .

(٨) الماعن ١٧ .

بأقوالهم ما ليس في قلوبهم^(١) أي : بالستهم ، لأن قول عادة لا يكون إلا بها .

٨ - الخالية : وهي عكس السابقة ، فبما إذا ذكر لفظ الحال وأريد به المحل - كقوله تعالى : « وأما الذين أبغضت وأجهنهم فبي رحمة الله هم فيها خالدون^(٢) » أي : في جنة التي تعالى فيها الرحمة . وقوله : « خلدوا فيها خيركم حينئذ كليل مسجدين^(٣) » أي : لباسكم خلود البرية فيه .

٩ - الآية : فبما إذا ذكر اسم الآية وأريد الآخر الذي ينتج عنها كقوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين^(٤) » أي : ذكر أحسن . واللسان أداة الذكر . وقوله : « تجري بأعيننا^(٥) » أي : يراى منا . وقوله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه^(٦) » أي : بقله قومه .

١٠ - المجاورة : نحو « خلقت الراوية » أي : السقاء . والراوية في الأصل للغير الحمل فا - وسببت باسمه لكونه حاملاً لها أو مجازاً لها عند الحمل . ومن المجاورة الذهنية للتغليب مثل : « قابلت أبوبك » . ومنه قوله تعالى : « إلا أمراً^(٧) كانت من الغائرين^(٨) » أي : الغائرات .

١١ - المزمومة : وهي إطلاق اسم المزموم على اللازم . كقوله تعالى : « أم

(١) آك صراف ١٥٧ .

(٢) آك صراف ١٥٧ .

(٣) الأعراف ٣١ .

(٤) الشعراء ٨٤ .

(٥) القصص ١٤ .

(٦) الأعراف ٤ .

(٧) الأعراف ٨٣ والمذكورات ٢٢ .

أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ^(١٥) «
 أي : أنزلنا برهانا يستدلون به وهو يدغم . سبى الدلالة كلاماً ، لأنّها
 من لوازم الكلام .

١٢ - الملازمة : وهي إطلاق اسم الملازم على المازوم كقوله تعالى : « فَنَلَّوْا
 أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحْيِينَ ^(١٦) » أي : المصلين .

١٣ - المطلقية : وهي إطلاق اسم المطلق على المقيد . كقوله تعالى : « فَعَقَّبُوا
 النَّفَّاثَةَ ^(١٧) » . والعاقب لها من قوم صالح رجل اسمه « قدار » . لكنهم لما
 ركبوا الفعل نزلوا منزلة الفاعل .

١٤ - المقبضية : وهي إطلاق للمقيد على المطلق كقوله تعالى : « تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ
 سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ^(١٨) » . والمراد كلمة الشهادة . وهي عدة كلمات .

١٥ - الخصوصي : وهي إطلاق اسم الخاص وإرادة العام . كقوله تعالى :
 « هُمْ الْعَادُوْنَ فَاحْبَدْهُمْ ^(١٩) » . أي : الأعداء . وقوله : « يَا أَيُّهَا
 النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ^(٢٠) » . الخطاب للنبي - صلى
 الله عليه وسلم - والمراد الباس جميعاً . وقوله : « عَلَيْكَ نَفْسٌ ^(٢١) »
 أي : كل نفس .

١٦ - العموم : وهي إطلاق اسم العام وإرادة الخاص . كقوله تعالى :

(١) تروم ٢٥ .

(٢) الصدقات ١٤٢ .

(٣) الأعراف ٣٧ .

(٤) آل عمران ٦٤ .

(٥) المنافقون ٤ .

(٦) الأحزاب ١ .

(٧) النور ١٤ والافتقار ٥ .

« وَيَسْتَغْفِرُونَ لِحَبْلٍ فِي الْأَرْضِ ^(١) » أي : للمؤمنين . وقوله :
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ^(٢) » أي : بعض الشعراء . وقوله :
« قَالَتِ الْأَعْرَابُ ^(٣) » . والذي قاله فريق منهم . وقوله : « الَّذِينَ
قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ^(٤) » والمراد من الناس واحد وهو نعيم بن مسعود
الاشجعي .

١٧ - إطلاق الجمع وإرادة المثنى . كقوله تعالى : « فَكَيْفَ صَعَلَتْ
فُلُوكُمْ ^(٥) » والمراد قلوبكم .

١٨ - النقصان : أدخله بعضهم في هذا المجاز . ومنه حذف المضاف وإقامة
المضاف إليه مقامه . كقوله تعالى : « وَاسْتَأْذِنُوا الْيَهُودَ ^(٦) » أي :
أهلها . ومنه حذف حرف الجر كقوله : « وَاخْتَارَ مُؤْمِنِي قَوْمَهُ ^(٧) »
أي : من قومه .

وقوله : « رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتُنَا عَلَى رُسُلِكَ ^(٨) » أي : لسان رسلك .
وقوله : « وَأَنْشَرُونَا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ^(٩) » أي : حبه .

ولم يدخل بعضهم هذا النوع والذي بعده في المجاز . قال السكاكي :
« ورأيت في هذا النوع أن يعد ملحاً بالمجاز ومشبهاً به ما بينهما من الشبه »

-
- (١) التورى . *
 - (٢) الشعراء ١٢٤ .
 - (٣) المغيرة ١٤ .
 - (٤) آل عمران ١٧٣ .
 - (٥) النجم ٤ .
 - (٦) يوسف ٨٢ .
 - (٧) الأعراف ١٤٥ .
 - (٨) آل عمران ١٩٤ .
 - (٩) البقرة ٩٣ .

وهو اشتراكهما في التعدي عن الأصل إلى غير أصل ، لا أن يعد مجازاً^(١) .

وقال الزركشي : « وذهب المحققون إلى أن حذف المضاف ليس من الجواز ، لأنه استبدال اللفظ فيما وضع له ، ولأن الكلمة المحذوفة ليست كذلك . وإنما يجوز في أن ينسب إلى المضاف إليه ما كان منسوباً إلى المضاف كالمثلة السابقة^(٢) » .

١٩ - الزيادة . كقوله تعالى : « ليس كتمثلكم شي^(٣) » .

٢٠ - إطلاق اسم الصديق على الآخر . كقوله تعالى : « قَبَشْتُمْهُمْ بِعَتَابِ أَيْمٍ^(٤) » .

لما قال : « بَشِّرْ هَؤُلَاءِ بِأَلْحَنَ » قال : « بَشِّرْ هَؤُلَاءِ بِالْعَذَابِ » ، والبشارة إنما تكون في الخير لا في الشر .

٢١ - إقامة صيغة مقام أخرى . وله صور منها :

١ - فاعل بمعنى مفعول . كقوله تعالى : « لا غاصمَ اليومَ من أنشر الله^(٥) » أي : لا معصوم . وقوله : « من مامَ ذاقتم^(٦) » أي : مالموق .

٢ - مفعول مقام فاعل . كقوله تعالى : « إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا^(٧) »

(١) مدخل العلوم ص ١٨٥ ، ولقد افاهر في أسرار البلاغة (ص ٣٥٢) كلام طويل في هذه المسألة .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) القوري ١١ .

(٤) آذ عذابي ٩١ .

(٥) هود ٤٣ .

(٦) القاري ٩ .

(٧) مريم ٦١ .

- أي : أتيا ، وقوله : « حجاباً مستوراً »^(١) أي : سائراً .
- ٣ - فاعل بمعنى مفعول - كقوله تعالى : « وكان الكافر على رءوسهم ظهيراً »^(٢) أي : مظهر آخيه .
- ٤ - محي المصدر على فاعل ، كقوله تعالى : « لا تشرهه مسلكتهم جزاء ولا شكروا »^(٣) أي : شكرا .
- ٥ - إقامة التفاعل مقام المصدر ، كقوله تعالى : « ليس لي قنعتهما »^(٤) كاذبة^(٥) أي : تكذيب .
- ٦ - إقامة المفعول مقام المصدر - كقوله تعالى : « بآياتكم المبتثون »^(٦) أي : القنعة .
- ٧ - وصف الشيء بالمصدر - كقوله تعالى : « فإنهم عدواؤي »^(٧) .
فالتوا : انما وحده لانه في معنى المصدر كأنه قال : « فإنهم عداوة » .
- ٨ - محي المصدر بمعنى المفعول - كقوله تعالى : « ذلك مستغلهم من العاشر »^(٨) أي : العلوم . وقوله : « صنع الله »^(٩) أي : مصنوعه .
وذكر الزركشي ألواناً أخرى من المجاز المرسل وردت في كتاب الله^(١٠) .

(١) الأبرار ٤٥ .

(٢) الفرقان ٥٥ .

(٣) الإنسان ٩ .

(٤) الواقعة ٢ .

(٥) القلم ٦ .

(٦) الشعراء ٧٣ .

(٧) النجم ٣٠ .

(٨) النمل ٨٤ .

(٩) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

وبحث المتأخرون كثيراً من المعاني المجازية في غير بحث المجاز أو علم البيان ، وعلة ذلك أنها جاءت في مواضع لا علاقة لها بعلم البيان في نظرهم كبعضهم الخروج على مقتضى الظاهر ومعاني الأساليب الانشائية وبعض فنون السبع . وارى أن هذه المباحث تخص بالمجاز ، ولا تعد كثيراً في هذا الرأي أو تختلف البلاغيين لأنهم صرحوا بذلك . ولعل ابن قتيبة من أقدم الذين أشاروا إلى ذلك حينما عقد باباً في « مخالفة ظاهر اللفظ معناه »^(١) . وذكر خروج الدعاء والاستفهام والأمر إلى معانٍ آخر لا يطلب بها المعنى الحقيقي . وأشار ابن قتيبة الجوزية إلى ذلك وعقد فصلاً في التجوز بالأفعال وفصلاً في التجوز بالحروف^(٢) . وقرر أن الخروج عن الظاهر مجاز . ولذلك عدّ منه التجوز بالماضي عن المستقبل والتعير بالمستقبل عن الماضي . وخروج أساليب الخبر والإنشاء عن معانيها . وذهب إلى أن يعد من ذلك فذكر رأي من يذهب إلى أن التقديم والتأخير مجاز ، لأن فيه تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل والمفعول به في نقل كل واحد منهما على رتبته وحقه^(٣) .

وقال التفتازاني عن أدوات الاستفهام : « ثم إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن . وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أي نوع من أنواعه مما لم نعلم أحد حوله^(٤) » .

وقال السبكي بعد أن تكلم على خروج الكلام على مقتضى الظاهر : « اعلمك نقول : غالب ما سبق أو كلف من أنواع المجاز . وعلم علم البيان . الجواب : إن الأمر كذلك . ولكن جرت عادة أكثرهم بذكر هذه الأنواع في هذا العلم فبعدناهم . وتداخل علم البيان وعلم المعاني كثير » .^(٥) وذهب إلى أن

(١) تلويح مشترك للقراء ص ٢١٢ .

(٢) الفوائد ص ٢٤ .

(٣) الفوائد ص ٨٢ .

(٤) الفوائد ص ٢٢٤ .

(٥) عروض الأراج (شرح السالكين) ج ١ ص ٢٩٢ .

بعض أنواع البديع مجاز كالمشاكلة والتورية المرشحة والاستخدام .^(١)

وذهب العصام إلى أن الخبر عندما يخرج عن معناه يكون مجازاً لاستعماله في غير ما وضع له .^(٢)

وذهب ابن يعقوب المغربي إلى أن أغراض أساليب الخبر والانشاء مجاز ، وأن له علاقة . وأن في المشاكلة والتورية مجازاً^(٣) .

ويبحث السيوطي المجاز القوي أو المجاز المفراد ، وقسمه إلى أنواع كثيرة وأدخل فيه خروج الخبر والانشاء إلى معانيها المجازية . وأشار إلى أن بعضهم يرى التقديم والتأخير والتأكيد والالتفات والتغليب من المجاز^(٤) .

وفصل النسوي الكلام في هذه الموضوعات وذهب إلى أن معظم الخروج عن الظاهر مجاز مرسل ، وبذلك آكل ما أشار إليه الفتازني حينما قال بأن هذا البحث ، مما لم يحسم أحد حوله .

ونحن حينما نعيد تصنيف المجاز ينبغي أن ندخل فيه هذه المسائل ، لأنها شديدة الصلة به ، بل لأنها ألوان بديعة من فنونه^(٥) . ونرى أن ندخل في المجاز المرسل ، لأنه واسع الخطوط في المدى وله علاقات كثيرة يمكن التوسع فيها .

والأغرب حينما يستعمل هذه الألوان من المجاز لا يستعملها عتاً ، وإنما يجد فيها تعبيراً عن فكرته وفصاحتها عن عواطفه ومشاعره . ولما بين السبب والمسيب أو الجزء والكل أو غيرها من علاقة واضحة يدركها بشعوره وبحسها

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ٢١١ - ٢٢٥ - ٢٢٧ .

(٢) الأصول ج ١ ص ٦٢٢ .

(٣) - مواهب الفتاح (شرح الشخصيات) ج ٢ ص ٢٢٧ - ج ١ ص ٣٠٩ - ٢٢٢ .

(٤) الانشاد ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) ينظر كتبنا القرواني وفروع الشخصيات ص ٢٠٢ وما بعدها .

بنسوقه . وقد أحسن ابن يعقوب المغربي في بيان بلاغة المجاز المرسل وقال : « إن الانفعال في المجاز المرسل واضح . والأبلغية فيه ليست إلا من جهة تقرير المراد في الذهن لاشعار المازوم باللازم وسوق القرينة إلى خصومه فكأنه قرر مرتين ^(١) » . وفي الآيات السابقة عبر دليل على ما ذهب إليه المغربي وما يراه البلاغيون والنقاد المحدثون الذين ذهبوا إلى أن المجاز المرسل هو تداعي المعاني ، فإن هذا النوع من المجاز يسوغه التلازم الذهني ، فالسبب والمسبب متلازمان ذهنياً وزماناً ومكاناً . وكذلك الكل والجزء . والحال والمحل ^(٢) وغيرها من العلاقات .

(١) مواهب اللذات (ترويح القلوب) ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٢) ينظر دراسات في علم النظم الأكبر ص ٤٦ .

الفصل الرابع

الاستعارة

الاستعارة مأخوذة من العارية أي نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه . وهي النوع الثاني من المجاز المغربي كما ذهب إليه معظم البلاغيين ^(١) . وإن كان عبد القاهر قد تردد فيها فجعلها مجازاً عقلياً مرة ومجازاً لغوياً أخرى . ففي كتابه « دلائل الإعجاز » ينيل إلى أنها مجاز عقلي لو هي أقرب إليه لأنها ليست « نقل اسم عن شيء إلى شيء » ولكنها ادعاء معنى الاسم للشيء ^(٢) . « وقال : « إن الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء » . وإذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء علمت أن الذي قالوه من أنها تعاقب للعبارة على غير ما وضعت له في اللغة ونقل لها عما وضعت له كلام قد تساهوا فيه . لأنه إذا كانت الاستعارة ادعاء معنى الاسم لم يكن الاسم مزالاً عما وضع له بل مقرأ عليه ^(٣) . « وبذلك تكون ميزتها لا في الملبث وإنما في طريقة الالتيات . وقال في الكتاب نفسه أيضاً :

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٣٣ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣٤ .

« الاستعارة التي هي مجاز في نفس الكلمة »^(١) . ومعنى ذلك أنها مجاز لغوي . وأكد هذا الرأي في « أسرار البلاغة » حينما قال إن حدها أن يكون لفظ اللغوي أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل . وقال : « اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ أصل في الوضع اللغوي وحروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع . ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعناية »^(٢) . وليس كذلك المجاز العقلي الذي لا يكون التجوز في نفس الكلمة بل في الاسماء التي يجري عليها .

ونشار المثأخرون إلى هذا التردد في الرأي فقال الرازي : « اضطرب رأي الشيخ في أن هذا المجاز عقلي أم لغوي . والذي نصره في الأسرار أنه لغوي »^(٣) . ورأى أنها مجاز لغوي وإن ذلك ذهب السكاكي والقزويني وغيرهما من البلاغيين . بل أنكر السكاكي المجاز العقلي وسلكت في الاستعارة المكتبة . ومعنى ذلك أن المجاز لغوي كله .

تعريفها :

لعل يلتصق قول من عرفها بقوله : « الاستعارة تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »^(٤) . وهذا تعريف لغوي ليس فيه حصر لأنواعها .

وقال ابن قتيبة : « فالعرب تستعير الكلمة فتدعيها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها يسبب من الأخرى أو محاوراً لها أو مشاكلاً »^(٥) . وهذا تعريف ينطبق على المجاز كله ولا سيما المرسل الذي من علاقات السببية والمجاورة

(١) عاتق الأمجد ص ٢٢٢ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٩٩ .

(٣) نهاية المجاز ص ٨٥ .

(٤) تهذيب التنبيه ج ١ ص ١٥٣ .

(٥) أصول مشكل القرآن ص ١٠٢ .

ويؤكد هذا الفهم لتعريفه، الأمثلة التي ذكرها كقول الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعبناه وإن كانوا غيبابا
وقولهم غيبات «نوء» وللمطر «سما» .

وقال ثعلب : « هو أن يستعار لشيء اسم غيره أو معنى سواء ^(١) » .

وقال ابن المعتز أنها : « استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها ^(٢) » .

وبدأ تعريف الاستعارة بعد هؤلاء يأخذ طابعاً علمياً واضحاً يختلف عما سبق . وقد عرّفها القاضي الجرجاني بقوله : « الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الاصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ، وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتناع اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر ^(٣) » . وهذا التعريف يختلف عن التعريفات السابقة ، فهو أكثر وضوحاً ودلالة على معنى الاستعارة ، وهو يوضح العلاقة بين المستعار له والمستعار منه وهي المشابهة ، وملاكها تقريب الشبه وأتلاف ألفاظ صورتها مع معانيها حتى لا توجد منافرة بينهما .

وقال الرماني : « الاستعارة : تعليق العبارة على ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للابانة ^(٤) » . ونقل ابن سنان هذا التعريف ^(٥) .

ولا يخرج هذا التعريف عن تعريف السابقين . ووجد العلوي فيه فساداً من ثلاثة أوجه :

(١) قولاند الشعر ص ١٧ .

(٢) البديع ص ٦٧ .

(٣) الوسائط ص ١١ .

(٤) البكت في أسماء القرآن (ثلاث رسائل في أسماء القرآن) ص ٧٩ .

(٥) سر القضاة ص ١٢٤ .

الأول : لأن هذا يلزم منه أن يكون كل مجاز من باب الاستعارة وهو خطأ . فإن كل واحد من الأودية المجازية له حد يخالف حد الآخر وحقيقته ، فلا وجه لخلطها .

الثاني : لأن هذا يلزم عليه أن تكون الأعلام المنقولة بدخلها المجاز وتكون من نوع الاستعارة وهو باطل . فإن المجازات لا تدخلها فضلاً عن الاستعارة .

الثالث : لأن ما قاله يلزم منه أن لو وضعنا اسم السماء على الأرض أن يكون مجازاً ، وهذا باطل لا يقول به أحد .^(١)

وقال أبو هلال إنها : « نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض »^(٢) . وفي هذا التعريف إضافة إلى ما سبق ، وهي قوله « لغرض » أي أنه يشترط في الاستعارة أن يكون وراءها هدف ما والآن فاستعمال اللفظ بمعناه الأصلي أولى . ولوضح أبو هلال هذا الغرض بقوله : « وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفصل الإبانة عنه ، أو تأكيد والمبالغة فيه . أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ . أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه . وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصية ، ولولا أن الاستعارة المصية تتضمن ما لا تنطهيه الحقيقة من زيادة فائدة لكنت الحقيقة أولى منها استعمالاً » .

ونقل ابن رشيق تعريفات القاضي الجرجاني وابن وكيع وابن جني والزماني^(٣) ، وجاء عبد القاهر ونظر إلى الاستعارة نظرية علمية فيها تحديد وتوضيح فقال في تعريفها : « الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره ونجى إلى اسم المشبه به فتعبره التشبه وتجريه عليه »^(٤) . وذكر التعريفات التي

(١) الطراز ج ١ ص ١٩٩ .

(٢) كتاب التصانيف ص ٢٦٨ .

(٣) ينظر المجلد ج ١ ص ٢٦٨ وما بعدها .

(٤) دلائل النجاشي ص ٥٢ .

سبقت وفيها اتضح انه يتردد في اعتبارها مجازاً لغوياً أو مجازاً حقياً . وان كان هذا التعريف يؤكد أنها مجاز لغوي وأنها « ضرب من التشبيه ونحط من التمثيل » وان « التشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبهة بالقرح له أو صورة مقتضية من صورة »^(١) .

وعرفها الرازي تعريفاً لا يختلف عن تعريف عبد القاهر وقال : « الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره وثابت ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه » . ثم عرفها تعريفاً آخر وقال : « الاستعارة عبارة عن جعل الشيء الشيء » أو جعل الشيء للشيء « لأجل المبالغة في التشبيه »^(٢) .

وأخذ السكاكي ما قاله عبد القاهر والرازي وعرف الاستعارة بقوله : « هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدحاً دخول المشبه في جنس المشبه به » دالاً على ذلك بالباثك للمشبه ما يخص المشبه به^(٣) .

وهذا التعريف أدق التعريفات حداً وأحسنها ضبطاً لأنه حصر الاستعارة بالصرحية والمكنية . ويرى السكاكي نفسه انه خير من تعريف القدي قال : « أنها نقل العبارة من معنى إلى معنى » . لأن الاستعارة لا يمكن أن تكون إلا ادعاءً لا نقلاً ، لأن فيها ما لا يتصور تقدير النقل فيه . وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر حينما قرر ان الاستعارة ادعاء الاسم للشيء لا نقل الاسم عن الشيء .

وعرفها ابن الاثير بقوله : « الاستعارة : أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع الاقصاح بالتشبيه واظهاره وتجيء على اسم المشبه به وتجره عليه »^(٤) . وقال : « حد الاستعارة : نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طبي

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠ ، ٢٨ .

(٢) نهاية النجاشي ص ٨٢ .

(٣) مدخل العلوم ص ١٧٥ .

(٤) إرشاد النور ص ٨٢ .

ذكر المنقول إليه : لأنه إذا احتُرز فيه هذا الاحتِرَاز اختص بالاستعارة وكان حذراً غادون التشبيه^(١) .

وقال ابن أبي الأصبع المصري تعريفي ابن المعتز والرماني ثم قال : « وقلت : هي تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الخفي للمبالغة في التشبيه^(٢) . أي ما رجحت فيه الصفة وكان ظاهراً لنقله إلى ما خفي وكان مرجوحاً عليه في هذه الصفة .

وقال بدر الدين بن مالك : « وهي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الآخر . مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به مع سدّ طريق التشبيه ونصب القرينة ولهذا سميت استعارة^(٣) » . وفي هذا التعريف إشارة واضحة إلى القرينة التي لا يخلو منها مجاز .

وقال القزويني : « الاستعارة : هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له . وقد نقيد بالتحقيقية لتحقق معناها حساً أو عقلاً » أي التي تتناول أمراً معاملاً يمكن أن ينص عليه ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية فيقال : إن اللفظ نقل من مساء الأصلي فجعل اسماً له على سبيل الاعارة للمبالغة في التشبيه^(٤) .

وذكر العاري عدة تعريفات للسابقين ثم أختار من بينها تعريفاً فصله على غيره . وهو أن الاستعارة : « تصيرك الشيء الشيء » وليس به ، وجعلك الشيء لشيء ، وليس له . بحيث لا يلاحظ فيه معنى التشبيه صورة ولا حكماً^(٥) . وفي هذا التعريف إشارة إلى الاستعارة التصريحية والاستعارة المكتبة ، وفصل للاستعارة عن التشبيه المحذوف الزائدة .

(١) النثر السائر ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) تكرار التعبير ص ٩٠ . وفتح للترك ص ١٩ .

(٣) المصباح ص ٦١ .

(٤) المصباح ص ١٦٥ .

(٥) النثر السائر ج ١ ص ٢٠٢ .

تلك أهم تعريفات الاستعارة . وبلاحظ أنها بدأت بالعين اللغوي ثم أخذت تتطور على أيدي البلاغيين والنقاد حتى تحدد معناها واتضح عند عبد القاهر والسكاكي والفزوي . وكانت تعريفاتهم لها هي الصورة الدقيقة التي حددت هذا الفن وأوضحت رسومه وأقسامه بعد أن كانت ألوان أخرى من المجاز تختلط بها .

أركانها :

لا بدّ للاستعارة من ثلاثة أركان هي :

- ١ - المستعار منه . وهو المشبه به .
- ٢ - المستعار له . وهو المشبه .
- ٣ - المستعار . وهو اللفظ المشقول .

ويسمى الأول والثاني طرفي الاستعارة . ولا بدّ أن يختلف أحدهما إلى جانب وجه الشبه حتى تصح الاستعارة . ولو نظرنا في قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً »^(١) « رأينا أن المستعار هو الاشتعال . والمستعار منه هو النار » والمستعار له هو الشيب . والجامع بين المستعار منه والمستعار له مشابهة ضوء النهار لياض الشيب .

قريبها :

ولا بدّ أن تكون لها قرينة ، لأنه إذا قيل : « رأيت أسداً » والمراد الرجل الشجاع فإن هذا القول لا يفهم منه إلا الحيوان المعروف . ولكن إذا كانت هناك

(١) مزم ٤ .

قريبة تدل على أن المراد الرجل الشجاع علم أنه استعارة .

والقريبة إما معنى واحد . مثل : « رأيت أسداً يرمي » أو أكثر كقول بعض العرب :

فإن تعافوا العدل والامتنان فإن في أمثالنا قريانا

أي : سوف نطلع كأنها شعل نيران ، كما قال الآخر :

نأخذهم وإلوانات كأنها

شعل على أيديهم لتكليب

فقوله : « تعافوا » باعتبار كل واحد من تعلقه بالعدل وتعلقه بالامتنان قريبة لذلك للدلالة على أن جوامع : أنهم يجارئون ويقتسرون على الطاعة بالصيف .

أو معان مريبون بعضها بعض كما في قول البحري :

وصاعقة من نضاه تنكفي بسا

على أركوس الأقران خمس سحاب

عرب : « خمس سحاب » أقوال المدوح يذكر أن هناك صاعقة ثم قال : « من نضاه » فبين أنها من نضال سبقه . ثم قال : « على أركوس الأقران » ثم قال : « خمس » فذكر عدد أصابع اليد ، فإن من مجموع ذلك قرصه ^(١) . وقد تكون القرينة الحالية تنهم من سياق الكلام .

أقسامها :

لم يقسم الأوائل الاستعارة إلى الأقسام الكثيرة التي نجدها عند المتأخرين ،

(١) ينظر مثالي النجار ص ٢٢٦ - « التلخيص » ص ٤٨٨ .

بل لحاظ بعضهم بأنها وبين أنواع الحجاز الأخرى . وكان تفسير عبد القاهر
 بداية العناية بذلك . فقد قسمها إلى مفيدة وغير مفيدة ^(١) . ويريد بال مفيدة ما كان
 لنقلها فائدة وهي نسبة هذا الفن ومداره . ويريد بغير المفيدة ما لا يكون لها
 فائدة في النقل . وهو ضمني حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق
 أو إلى به التوضيح أو إشغال القارئ بالتوقف في مراعاة دقائق في القروى في المعاني
 متداول عليها **فالشبهة** للعضو أو اختصاصه بغيره كثيرة بحسب اختلاف أجناس
 الأجزاء نحو وضع الشقة للإنسان والشمس للبحر أو الحشرة للقرص وما شاكل ذلك
 من قروى . فإذا استعمل القاهر جازي غير الخيط الذي وضع له فقد استعاره
 منه وعلقه عن موضعه حتى لا يرمي بغيره **فقد قيل** القاهر :

فتنا جازي لعلنا نهر نشأ من شقته الضعفا

فاستعمل الشقة في القيرص وهي موضوعة للإنسان . قال معلقاً على هذه
 الاستعارة : « فهذا ونحوه لا يفيد شيئاً لو لم ترم الأصل لم يحصل لك . فلا
 فرق من جهة المعنى بين قوله « من شقته » وقوله « من جحشته » أو قاله « لما
 يعطيك كلاً الاسدين العضو المعلوم بحسب . بل الاستعارة ههنا بأن تنفصلك
 جزءاً من القائدة أشبه . وذلك أن الاسم في هذا النحو إذا تقيت عن نفسه دخول
 الاشتراك عليه بالاستعارة ذلك ذكره على العضو وما هو منه . فإذا قلت :
 « الشقة » دلّ على الإنسان أعني يدلّ على أنك قصدت هذا العضو من الإنسان
 دون غيره . فإذا توهمت جزئي الاستعارة في الاسم زالت عنها هذه الدلالة
 بالقلب اختصاصها بالاشتراك . فإذا قلت « الشقة » في موضع قد جرى فيه
 ذكر الإنسان والقرص دخل على السامع بعض الشبهة لتجويزه أن تكون استعرت
 الاسم للقرص . ولو فرضنا أن تعدم هذه الاستعارة من أصلها ونحظر ما كان
 هذه الشبهة طريق أن المختاب قد مره ^(٢) . »

(١) انظر أسرار البلاغة ص ٥ - ٦ . وانظر .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٠ - ٢١ .

وليس الأمر كذلك بل قد يكون هذا النوع من الاستعارة مفيداً وحقق
 تخففاً من الأثر الذي يسببها الشاعر أو الكاتب كالتحقير والتجيب
 والتزيين . أو تقتضي ضرورة الشعر أن ذلك كما في البيت السابق ، فإن الشاعر لم
 يستطع أن يأتي بلفظة « المحبلة » لأن الوزن لا يسمح بذلك ، وقد يكون أراد
 رسم صورة جديدة لمهرة فشبّهه بالطفل الصغير وسمى حجابته شفة ، وكثيراً ما
 نجد مثل ذلك في كلام الناس . ولم يخف هذا القول على عبد القاهر وإنما أشار
 إلى أن ضرورة الشعر قد تنطرح الشاعر أن يذكر كلمة أخرى غير الموضوع
 في الأصل كما في قول المرزوق :

فما زلنا قد الولدنا حتى رأيتنه

على البكر يشره بساق وسافر

وأراد أن يقول : بساق وقدم ، ولكن لم تناوذه القافية .

وقد يكون قدّم كما يقال : « أنه لعليل المحافل وغاية لشاعر » وكما قال
 المرزوق :

فلو كنت ضيقاً عرفت قسراتي

ولكن زحياً غليظ المشاعر

أما الاستعارة المبدعة فهي الاستعارة الحقيقية وهي واسعة لا تحد فنونها
 ولا تنحصر وهي : أمثلة ميداناً ، وأشدّ امتداداً ، وأكثر جرئاً ، وأعجب حسناً
 واحساساً ، وأوسع سعة ، وأعمد غوراً ، وأذهب بدياً في الصناعة وغوراً من
 أن تجمع شعبها وتخصر فنونها وعروبها ^(١) . ثم قسمها إلى استعارة في
 الاسم وفي الفعل وأشار إلى ما سمي استعارة نصريّة واستعارة مكتوبة . وتحدث
 عن بعضها بالشبيه والتشبيه . وكانت هذه الأقسام عمدة البلاغيين المتأخرين

(١) لسان البديعة ص ٢٠ .

كالرازي والسكاكي والترويني وشراح التلخيص وغيرهم ممن أخذت الياقوتة
على أيديهم صورتها الأخيرة .

ومن هذه الأقسام :

١ - الاستعارة التصريحية : وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه ،
كقوله تعالى : « كتاباً أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى
النور » . أي من الضلالة إلى الهدى . فقد استعبرت الظلمات للضلال
لتشابههما في عدم اعتداد صاحبهما . وكذلك استعبر لفسط ، النور ،
للإيمان لتشابههما في الهداية . والمستعار له وهما ، الضلال ، و « الإيمان »
كل منهما محقق عقلاً .

ومنها قول الخنزي :

في الهدى إن عزم الخياط رحبلا
مضت تزيد به الحدود تعسولا

وقد قرأ الدع بالمار . ثم حذفه وأبقى المشبه به .

وقوله :

وأقبل يمشي في الأمان فما درى
أن البحر ينسحق أم أن النار يترقى

وقد ربط سيف الدولة بالبحر .

ومنها قول ذك النحس :

لما نظرت إلى عن حديق المها
وبسنتي عن مفتاح الشسوار

وعقدت بين قضيب بانٍ أهيل
 وكتيب رمل عذبة الزنار
 عقرتُ حدي في الرى لك طالعاً
 وعزمتُ قبك على دخول النصار

وقد ربط بين فيها ومتصح النوار . وبين جسها وقضيب البان ، وهذه
 الاستعارة من رائج الاستعارات . ولذلك قال ابن الأثير : « وهذه
 الأبيات لا تجدنا في أحسن شريكاً ، ولكن يسمى قالها شعوراً ألون من
 أن يسمى جبكاً ^(١) » .

ومنها قوله أيضاً :

لا ومكان القليب في الشجر فيه
 لك وعجى الزنار في القصر
 والغال في الحد إذ تشبهه
 وردة منك على شرى نسر
 وحاجب مد خطه قام الخمر
 في بحر البهاء لا الخيسر
 وأقبحون بغيرك منتظم
 على شبيه من النسر الخمر

والبيت الرابع هو المخصوص بالاستعارة . والاستعارة له هو الثغر والريق
 فقد شبه الثغر بالأقمار والريق بالخمر .

٢ - الاستعارة المكنية أو بالكناية : وهي التي اخفى فيها لفظ المشبه به واكتفى
 بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه . كقول أبي ذؤيب اللؤلؤ :

(١) حار الشرح ١ ص ٣٧٧ .

وإذا المنيّة أنشئت أظفارها

ألفيت كلّ قيمة لا تُفيع

شبه المنيّة بالبيع في اغتيال النفوس وحذف المشبه به وهو البيع وأبقى

شياء من لوازمه وهي الأظفار التي لا يكمل الاغتيال إلا بها

ومنها قول دحبل آخراعي :

لا تعجبي يساً منكم من رجل

فصحتك المشيب برأسه فكس

شبه المشيب بالناس وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو

الصحت على سبيل الاستعارة بالكناية .

ومنها قول أبي العتاهية :

أنتمة الخلافة منقادة إليه تجرّ أقباسها

شبه الخلافة بالخساء . ولكنه حذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه وهو

« تجرّ أقباسها » دليلاً عليه .

والاستعارة التصريحية والاستعارة المكنية من قسم الاستعارة بحسب

الطرفين : المشبه والمشبه به . فتارة يحذف المشبه فتكون تصريحية وتارة

يحذف المشبه به فتكون مكنية . وكان عبد القاهر قد أشار إلى هذين

التصنيفين وإن لم يسهما كذلك بل قال عن التصريحية : « إن تدق له — أي

الاسم — عن معناه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله

متناولاً له تناول الصفة للموصوف^(١) . » ومثل له بقوله : « رأيت

أعداء » أي رجلاً شجاعاً . وقولهم : « عشت لنا ظبية » أي لمرأة .

وقوله : « أبليت ثوراً » أي : عدى . فالاسم في هذه الأمثلة متناول

(١) لمدار الجمل من ١٢ .

شيئا معارفاً يمكن أن يُفهم عليه فيقال إنه عني بالاسم وكني به عنه
ونقل عن مسند الأصيل فجعل اسماً له على حيل الاعارة والمبالغة في التشبيه .

وقال عن المكنية : « أن يؤخذ الاسم من حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين
فيه شيء يشار إليه فيقال هنا هو المراد بالاسم والذي استعير له وجعل
خليفة لاسمه الأصيل وناثراً مثله ^(١) » . ومثل له بقول أبيه :

والخداة ربح قد كُشِئتْ وفُسِّرَتْ

إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال بدءاً . ويعلم أنه ليس هناك مشارة إليه يمكن أن
تجري عليه كاجراء الأسد على الرجل .

وفرق بين القسمين بقوله : « إنك إذا رجعت في القسم الأول إلى التشبيه
الذي هو المعنى من كل استعارة تليد وجدهت بأنثى عفرأ كقولاك في
« رأيت أسداً » : رأيت رجلاً كالأسد ، أو رأيت مثل الأسد . أو
شبيهاً بالأسد . وإن رمت في القسم الثاني وجدهت لا يواتيك تلك المراتة إذ لا
وجه لأن تقول : « إذ أصبح شيء » مثل اليد للشمال ، أو « حصل شيء
باليد للشمال » وإنما يترامى لك التشبيه بعد أن تحرق إليه سراً وتعمل تأملاً
وذكراً . وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول كقولاك : « إذ
أصبحت الشمال ولها في قوة تأثيرها في الخداة شبه المالك لصريف الشيء
بيده واجراءه على مرافقته وجذبه نحو الجهة التي تقتضيها طبيعته وتنهوها
إرادته . هانت - كما ترى - أجد الشبه المتخرج ههنا - إذا رجعت إلى الحقيقة
ووضعت الاسم المستعار في موضعه الأصيل - لا يملكك من المستعار نفسه بل مما
يشاف إليه . ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد ومشيئها باليد
كما جعلت الرجل كالأسد ومشيئها بالأسد . ولكنك أردت أن تجعل

(١) لسان العرب من ٤٩ - ٤٧

الشمال كلتي اليد من الاحياء . قالت لعل في هذا الخسر المستعار له . .
وهو نحو الشمال - ذا شيء . . وغرسك أن تثبت له حكم من يكون
له ذلك الشيء في فعل أو غيره لا نفس ذلك الشيء فاعرفه^(١) .

وذكر فوقاً آخر لخصه بقوله : « وطريقة أخرى في بيان الفرق بين
القسرين وهما أن الشيء في القسم الأول الذي هو نحو « رأيت أسداً » تريد رجلاً
شجاعاً وصف موجود في الشيء « الذي استعرت اسمه وهو الأسد » وأما
قولك « إذ أصبحت بيد الشمال » زعمها « فالتشبه الذي له استعرت اليد ليس
بوصف في اليد ولكنه صفة تكديها اليد » صاحبها . وتحصل له بيا وهي
التصرف على وجه مخصوص^(٢) .

٣ - الاستعارة الحقيقية : وهي أن يذكر اللفظ المستعار معطفاً مثل : « رأيت
أسداً » والضابط لما أن يكون المستعار له أمراً محققاً سواء جرد عن حكم
المستعار له أو لم جرد بان يذكر الاستعارة ثم يأتي بعد ذلك بما يؤكد أنه
المستعار له ويوضح حاله^(٣) .

ومثال ذلك قول الشاعر :

ترى الثياب من الكتفان يلجمها

نور من الدير أحياناً فيلجمها

فكيف تذكر أن ثل معاجيرها

والدير في كل وقت طال فيها^(٤)

فلما استعار ذكر الثمر عتبه بذكر المعاجر وأنه يلجمها بملوحه فيها كل
وقت . وذكره من أجل المدح أمر المستعار له وبيان حقيقته .

(١) أسرار البلاغة ص ٤٤ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٤٨ .

(٣) المعراج ج ١ ص ٢٢٠ .

(٤) المعاجير : جمع معجر . وهو قوم يعاد به الزمان ، القوم على رؤسها .

وذكر السكاكي والفروبي أن معناها يتحقق حساً مثل : « رأيت أسداً » أو عقلاً مثل : « أباديت ثوراً » والمراد - حجة - فإن الحجة مما يدرك بالعقل من غير وساطة حسي . إذ المفهوم من الألفاظ هو الذي يتوزع القاب ويكشف عن الحق لا اللفاظ نفسها^(١) .

٤ - الاستعارة التخيلية : هي أن يستعار لفظ تعالى عن حقيقة خيالية لتقدر في الوجد ثم تردف بذكر المستعار له أيضاً لما وعرفنا لها لها كالبيت المشهور :

« إذا المبيت شئت أنظاريها »

المبيت كل مبيت لا تنفع

ومن هذه الاستعارة الآيات الدالة على التشبيه كقوله تعالى : « بكل يده » متبسطان يشقي ككيف يشاء^(٢) . وقوله : « خلقت بيدي^(٣) » . وقوله : « ويشتري وجهه ربك »^(٤) .

وقد يصح التحريك والتخييل في الاستعارة كما في قوله تعالى : « فآذنها الله لباس الخريف^(٥) » . والمظاهر من هذه الاستعارة هو التخييل لأن الله تعالى لما ابتلاههم لكفرهم باتصال هاتين اليدين ولما استعار الناس هذا مبالغة في الاشتغال عليهم أخذ الوهم في تصوير ما للاستعارة منه من الخطبة والسر والاضرامال رعاية لمزيد البيان في ذلك . وإن جعلت من باب التحريك فهو أن ما يرى على الإنسان عند شدة الخوف والمخرج من الضعف والقزاع والنفاد الكون وعلو الصخرة وورود

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٦ . والافتاح ص ٢٧٨ .

(٢) البقرة ٦٦ .

(٣) سورة ص ٩٥ .

(٤) أرحل ٢٧ .

(٥) النحل ٦٤ .

القيمة وركعة الحال وحصول القلق والخيبة بضاهي الملايس في اختلاف
أجرها وألوانها^(١).

والاستعارة التخيلية مرتبطة بالمكنية بل هي قريبتها خلافاً للسكاكية
التي ذهب إلى أن قريبة المكنية تارة تكون تخيلية كبيت الهلالي السابق
وتارة تكون حقيقية أي مستعارة لأمر محقق كما في قوله تعالى : « وقيل
يا أرض ابلغي ماءك^(٢) » . ويتضح ذلك في قوله : « وللصرح بها
نقسم أن حقيقية وتخيلية . والمراد بالحقيقية أن يكون الشيء المبروك
شيئاً متحققاً إما حسياً وإما عقلياً . والمراد بالتخيلية أن يكون الشيء
المبروك شيئاً وهمياً محضاً لا محقق له إلا في مجرد الوجود^(٣) » . ومعنى
ذلك أن لا تلازم بين المكنية والتخيلية عنده بل يوجد كل منهما بغير
الأخر ، واستدل علىفراد التخيلية عن المكنية بقوله أي تمام :

لا تسلي ماءً المسام فأنني
صَبَّ قَدْ اسْتَعْدَيْتُ مَاءً بَكَائِي

فإنه قد توهم أن للعلامة شيئاً شبيهاً بالماء فاستعار اسمه استعارة تخيلية غير
نابعة للمكنية^(٤).

وليس في هذا الخلاف بين البلاغيين كبير أثر في روعة الاستعارة
وجاها . وليس في كثرة المصطلحات ما يفتح في إيضاح الصور البيانية .
ويمكن أن ترد الاستعارة الحقيقية إلى التصريحية وما مثل طما يؤيد ذلك .
وترد الاستعارة التخيلية إلى المكنية أي تكون الباناً للآثار فيها ، لأنها

(١) ينظر الإيضاح ص ٢٨٠ - وأطرار ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) مود ٤٤ .

(٣) مغلق المود ص ١٧٦ .

(٤) مغلق المود ص ١٨٣ .

تختلف عن التصورية التي لا تحتاج إلى كبير تأمل وتحليل في حين تحتاج المكتبة إلى هذا التأمل والتحليل كما في شواهدنا السابقة التي لا يمكن أن نفهم فهماً دقيقاً إذا نظر إليها نظرة عابرة .

٥ - وتنقسم الاستعارة باعتبار الصنفين والجمع إلى خمسة أقسام هي :

الأول : استعارة حسية حسية بوجه حسية كقوله تعالى : « واشتعل الرأس شيباً »^(١) . فإن المستعار منه هو النار والمستعار له هو الشيب ، والوجه هو الألباس . فالطرفان حسيان والوجه حسية أيضاً . وهذه استعارة مكتبة لأنه ذكر المشبه وحذف المشبه به .

وهذه قوله تعالى : « والدمشق إذا تسكرت »^(٢) . فالشعار منه هو الإنسان . والشعار له هو الصبح . والوجه هو الحركة وخروج النور . فالطرفان حسيان والوجه حسية . وهذه استعارة مكتبة لأنه ذكر المشبه وحذف المشبه به .

الثاني : استعارة حسية حسية بوجه عقلي كقوله تعالى : « أرسلنا عاصفهم الريح العقيم »^(٣) . فالشعار له الريح والشعار منه المرأة . وهذا حسيان . والبراع المنع من ظهور الشجرة والأشجار وهو عقلي . وقوله : « وآية لهم الليل تسليخ منه النهار »^(٤) . فإن الشعار منه كسحط الخاء وإزالته عن الشاة ونحوها . والشعار له إزالة الضوء عن مكان الليل وإلى ظاء . وهذا حسيان . والجمع طبعا ما يعقل من ثوب أمر على آخر .

الثالث : استعارة معقول معقول بالجمع والجمع أمر عقلي . كقوله تعالى : « من »

(١) مرق ٤

(٢) التكوين ١٨

(٣) القاربات ٤٦

(٤) يس ٣٧

بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ١٤١ « . فالرقاد مستعار للموت وهذا أمران معقولان ، والوجه عدم ظهور الأفعال وهو عقلي . والاستعساسة تعسرعية ، لأن المشبه به مذكور . ومنها قوله تعالى : « وَكَمْ سَكَنَتْ مِنْ مَوَاسِي الْعُصْبِ ١٤٢ » . المستعار السكون والمستعار له العصب والمستعار منه الساكن .

الرابع : استعارة محسوس لمعقول بوجه عقلي كقوله تعالى : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ١٤٣ » . استعارة لبيانه عما أوحى إليه كظهور ماء في الزجاجاة عند الصداعها . وقوله : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ١٤٤ » . فالقذف والدمغ مستعاران .

الخامس : استعارة معقول لمحسوس لاشتراكهما في أمر عقلي كقوله تعالى : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ ١٤٥ » . المستعار منه التكبر . والمستعار له الماء . والجامع الاستعلاء المفرط . وقوله : « وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ١٤٦ » . فالعندو مستعار من التكبر . والمستعار له الريح . والجامع بينهما الإضرار البالغ ١٤٧ .

٦ - الاستعارة الأصلية : وهي الاستعارة التي تكون في أسماء الأجناس غير المشتقة، وهذا هو الأصل في الاستعارة كقوله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ

(١) ص ٥٢ .

(٢) الأعراف ١٥٤ .

(٣) الحجر ٩٤ .

(٤) النباء ١٨ .

(٥) الحاقة ١١ .

(٦) الحاقة ٦ .

(٧) ينظر أسرار البلاغة ص ٦١ . ونهاية الإعجاز ص ٩٩ . ومفتاح العلوم ص ١٨٣ . والإيضاح ص ٢٩٤ . وإبرهات في علوم القرآن ج ٣ ص ٤١١ .

إِلَيْكَ لِتُحَرِّجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ^(١) » ، والاستعارة
هنا واقعة في اسم اجتنس . ومنه قول الجحزي :

يُؤَدُّونَ التَّحِيَّيَّةَ مِنْ بَعِيدٍ
إِلَى قَبْرِ مَنْ الْإِسْوَانُ بِسَامٍ

شبه مجذوحه بالقمبر . ومنه تشبيه المنبي مجذوحه بالشمس في قوله :

أَجَلْتُ يَا شَمْسُ الزَّمَانَ وَبَدَلْتَهُ
وَأَنْ لَأَمْنِي فَبِكَ السَّهَاءُ وَالْفَرَاقِدُ

٧ - الاستعارة التبعية : وهي الاستعارة التي تكون في الفعل والاسم المشتق
والصفة . مثل : « ألهاء الخن » و « حق أبلع » إذ الصفة تشعر بأنها
لغات تبع . والفعل يشعر بالجنس .

٨ - الاستعارة المضافة : وهي التي لم تفرق بما يلائم المستعار له أو المستعار
منه كقوله تعالى : « إِنَّ لَنَا لَعَلَّ طَغَى الْمَاءِ حَمَلَتْنَا كُفً فِي الْخَارِجَةِ ^(٢) » .

٩ - الاستعارة المجردة : وهي التي فرقت بما يلائم المستعار له أي المشبه كقول
كثير :

لَعَزُ الرَّدَاءِ إِذَا بُسِمَ ضاحِكاً
عَلَّقَتْ لَضَحِكْتَهُ رِقَابُ الْمَالِ

فإنه استعار الرداء للمعروف لأنه يهزون عرض صاحبه كما يهزون الرداء
ما يلقى غايه . ووصفه بالقمبر الذي هو وصف المعروف لا الرداء فظهر
أن المستعار له .

(١) التوراة ١٠ .

(٢) الآية ٦٦ .

١٠ - الاستعارة المرشحة : وهي التي قرئت بما يلائم المستعار منه . كقول الشاعر :

يتلحمني رفاقي عبيد عسبرو
رويدك يا أبا عمرو بن بكسر
لي الشطر الذي مالكت يمتسي
ودولك لا تخير منسسه بشطر

فإنه استعار الرداء للبيوت ووصفه بالأعجاز الذي هو وصف الرداء فنظر أن المستعار منه . وعليه قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم »^(١) . فانه استعار الاشتراء للاختيار وقسمه بالربح والتجارة الذين هما من دواعيات الاشتراء فنظر أن المستعار منه .

ومعظم البلاغيين يسمون هذا النوع « المرشحة » غير أن العالوي يسميها « الموشحة » . ولولا تفسيره لتوضيح لقائنا أن في الكلمة تحريفاً^(٢) . والاستعارة المرشحة هي المقدمة في هذا الباب ، وليس فرقاً رتبياً في البديع رتبة^(٣) . وذلك لاشتغال الترشيح على تحقيق المبالغة . ولذلك كان مبناه على تنامي التشبيه حتى أنه يوضع الكلام في علو المنزلة وضعه في علو المكان كما قال أبو تمام :

ويصعدك حتى ينظر الجهور لـ بأن له حاجة في السماء

فالولا أن قصده أن يتنامى التشبيه ويصمم على إنكاره فيجعله صاعداً في السماء من حيث المسافة المكانيّة لما كان لهذا الكلام وجه .

(١) البقرة ١٦ .

(٢) ينظر الفخراني ج ١ ص ١٢٧ .

(٣) خزائن الأدب ص ١٩ .

وكذا قال العباس بن الأحنف :

هي الشمسُ مسكنُها في السما « فمرَّ الفؤادُ عِزَّاهُ » جميلاً
فلا تستطيعُ إليها الدعو « دُ » ولن تستطيعَ إليك التزوُّلا

١١ - الاستعارة المجردة : وهي كما سبق .

١٢ - الاستعارة المركبة : وهي الاستعارة التشبيهية أو المجاز المركب الذي عرفه القزويني بقوله : « وأما المجاز المركب فهو المقطع المركب المستعمل فيما شئتُ بمعناه الأصلي تشبيه التشبيل للمبالغة في التشبيه . أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلقبها من غير تغيير بوجه من الوجوه^(١) » . ومثالها ما كتب به الوليد بن يزيد لما بويع إلى مروان بن محمد وقد بلغه أنه متوقف في البيعة له : « أما بعد ، فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى . فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام » . شبه صورة تردده في المبالغة بصورة تردده من قام ليذهب في أمر فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً وتارة لا يريد فيؤخر أخرى .

ومن هذا المثل قوله تعالى : « والارضُ جسماً قبضته يوم القيامة^(٢) » . إذ المعنى : أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله وقدرته مثلك الشيء يكون في قبضة الأخطاء منا . والجامع بينهما عليه .

وقول الرماح بن ميادة :

ألم تترك في يميني يديك جعلتني
فلا تجعلني يميناً لها في شمالها

(١) التصحيح من ٢٠٥ .

(٢) من ٢٠٧ .

ولو أنني أنفقت ما كنت هالكا
 على خصلتي من صلحات نعيم الدنيا
 وقول عمير بن الأثير :

راح القطين من الأوحال أو بكروا
 وحصدوا من نهار الأحرار ما ذكروا
 قالوا لنا وعزكمنا بعد بينهم
 قولاً فما وردتوا عنه ولا مستدروا
 وهي من أمثلة قدامة على التمثيل .

وقول الشامي :
 ومن بكك ذا فمر مر مرير
 تجد مرراً به الماء العزلاً

والاستعارة في هذه الأمثلة لم تجر في لفظ مفرد من ألفاظ العبارة وإنما
 أجريت في التركيب كله . وهذا هو « التمثيل الذي يكون جهازاً لمجربك
 به على حد الاستعارة ^(١) » أو « الاستعارة التمثيلية » . ومنى قلنا هذا القول
 في الاستعمال سمي مثلاً ، ولذلك لا تغير الأمثال .

١٣ - الاستعارة التهكمية : وتسمى التملحية أيضاً . وهي استعمال الألفاظ
 الدالة على المدح في نقائصها من الذم والاهانة . وقال السكاكي في
 تعريفها : « هي استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة
 اقتراح شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناوب بطريق التهكم أو التلميح . ثم
 ادعاء أحدهما من جنس الآخر والأفراد بالذكر ونصب القرينة ^(٢) » .

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٥ .

(٢) مدح العلوم ص ١٧٧ .

وفك مثل أن يقال : « إن فلانا توارث عليه البطولات بشمله وثيب أمواله وسي أولاده » .

ومن ذلك قوله تعالى : « إنا أنزلنا الحكيم الرُّسُودَ »^(١) . مكان : السيف القوي ، وقوله : « فبشرهم بكتاب اليم »^(٢) . مكان : أنذرهم .

هذه أقسام الاستعارة كما ذكرها البلاغيون . ويتضح منها أنها كثيرة وإن القدماء لم يتفقوا عليها كل الاتفاق ولا سيما التخيلية وصلتها بالكتابة وقد كان لاسكاكي رأي نقضه القزويني ، كما كان لغيرهما آراء مختلفة . ويبدو أن تقسيم الاستعارة إلى قسميها الكبيرين : التصريحية والكتابة غير وأجدي في دراسة هذا الفن . لأن ذلك عمله ما دامت الاستعارة تقوم على التشبيه عند معظم البلاغيين .

وتنم هذه الأقسام كلها بطريق الاسم أو الفعل ، وكان عبد القاهر قد تحدث عن هذين القسمين وقرر أن اللفظة إذا دخلتها الاستعارة فأنها لا تحلو من أن تكون اسماً أو فعلاً ، وإذا كانت اسماً فإنه يقع مستعاراً على قسمين :

أحدهما : أن ينقل عن معناه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم ويُجرى عليه ويُجعل متناولاً لتناول الصفة الموصوف . وذلك مثل :

« رأيت أسداً » أي رجلاً شجاعاً ، و « عنت لنا ظبية » أي : امرأة .

وثانيهما : أن يدخل الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يربط فيه شيء . يشار إليه فيقال هذا هو المراد بالاسم والذي استعير له ويجعل غايته لاسمه الأصلي ولأننا مناه . ومثاله قول لبيد :

وغداة ربيع قد كشفت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

(١) سورة ٨٧ .

(٢) آل عمران ٦٦ والروم ٢ : والانشاق ٢٤ .

أما الاستعارة في الفعل فانه اذا استعير لنا ليس له في الاصل فانه يثبت باستعارته له وضماً هو شبه الملقى الذي اشتق الفعل منه . فحي - بطلت الخيال بكلمة « و » تعبرني أسارير وجهه بما في صدره « و » كذلك عينا بما يعوي قلبه . نجد في الخيال وضماً هو شبه باللفظ من الانسان . وذلك ان الخيال يدل على الامر ويكون فيها إشارات يعرف بها الشيء كما ان اللفظ كذلك . وكذلك العين فيها وصف شبيه بالكلام وهو دلالتها بالعلامات التي تظهر فيها وفي نظرها وخواص توصاف بتدليس بها على ما في القلوب من الانكار والقبول . قال عبد القادر موضحاً ذلك : « وإذا كانت أفعال في الاستعارة على هذه الجملة رجع بنا التحقيق إلى أن وصف الفعل بأنه مستعار يحكم رجع إلى مصدره الذي اشتق منه . فإذا قلنا في قولهم : « نطقت الخيل » إن « أفلح » مستعار فالحكم بمعنى ان أفلح مستعار . وإذا كانت الاستعارة تنصرف إلى المصدر كان الكلام فيه على ما مضى »^(١) .

والفعل يكون استعارة مرة من جهة فاعله الذي رفع به كالألفه السابقة . ويكون أخرى استعارة من جهة مفعوله كقول ابن المعتز :

جَمِيعُ أَخِي لِنَسَا فِي إِسْتِعَارٍ قَتَلَ الْيَهُودَ وَأَحْيَا الْمَسَاحِينِ

فراء قتل « و » أحيا « إنما صار استعارين بأن عدونا إلى اليهود والمسيح ، ولو قال : « قتل الأعداء وأحيا » لم يكن « قتل » استعاراً بوجه . ولم يكن « أحيا » استعارة على هذا الوجه . ومثله قول الآخر :

وَأَقْرَى الْعُمُومَ الظَّارِقَاتِ حَرَامَةً

إذا كُنَّ رُسُلًا ظَارِقَاتٍ أَوْصَافٍ

وهو استعارة من جهة المفعول . فأما من جهة الفاعل فهو محتمل للحقيقة وذلك أن يقول : « أقرى الأضياف الدارلين للحم العبيط » . وقد يكون الذي

(١) آخر الألفه من « و » .

بمعناه حكم الاستعارة أحد المذهبين دون الآخر كقول النحوي :

تقريبه : قد بينات لقد يسيراً ما كان خاط عليهم كل زرار

وقد أوضح المتأخرون ما يجري من الاستعارة في الاسم والفعل . فقالوا ان
الاسماء ثلاثة أنواع :

الأول : الاسم العلم . ولا يدخل المجاز فيه ، لأنه في جميع مواقع
أصله ، ومن حق المجاز أن يكون مسبوقاً بوضع أصل ثم ينقل عنه . ومن حق
المجاز أن يكون بينه وبين ما نقل عنه علاقة حسن لأجلها التجوز والنقل .
وهذا غير موجود في الأعلام . ولكنهم يجوزوا ذلك في الأعلام التي اشتهرت
بتدريج من الرصفت مثل « حاتم » في قولنا : « رأينا اليوم حاتماً » والمراد رجلاً
كاملاً بخود .

الثاني : الاسم المصدر . وهو المشتق منه . قد يدخله المجاز اذا وقع في غير
موضعه مثل « رجل عدل » أو غير ذلك من المشتقات والصفات .

الثالث : الاسم الجسدي . وأكثر ما يرد المجاز في المفرد منه مثل « أسد »
و « بحر » و « ليل » وغير ذلك من الأسماء المفردة .

وقد تدخل الاستعارة في أسماء الإشارة كقوله تعالى : « هذا وإن
للعاقبين لشراً مثاباً »^(١) . فقوله : « هذا » استعارة ، لأنه إنما يستعمل
حقيقة فيما كان قريباً مشاراً إليه . فالمجاز في الإشارة داخل هنا فيما يعرض
من أحواله في القرب والبعد .

وأما الأفعال فهي دالة على حصول أحداث في أزمنة معينة . فالفعل الصناعي
دال على المصدر وبعبارة عنه . فالمصدر إن وقع فيه مجاز فالفعل تابع له وإن
تعذر وقوع المجاز في المصدر فالفعل أحق بالتعذر .

(١) - سورة القصص ٥٥ .

وأما الحروف فلا تدخل للحداد فيها لأن وضعها على أنها تدل على معان في غير ما فلا بد من اعتبار الغير في دلالتها ، ثم ذلك الغير ان كانت صالحة للدخول عليه مثل « زيد في الدار » و « عمرو من الكرام » فهي حقيقة في استعمالها ، وان كانت غير صالحة لما دخلت عليه مثل « من حرف جر » و « لم حرف نفي » صارت مجازاً ، لكن التجوز إنما كان فيها من جهة تركيبها لا من جهة الأفراد ، والمفعول إنما كان في حالة الأفراد لا في التركيب .^(١)

ويمكن ان تدخل الاستعارة في الحرف اذا كان معتمداً ، لانه في هذه الحالة يخرج عن معناه الاصلي الذي وضع له .

بين التشبيه والاستعارة :

ذهب معظم البلاغيين إلى أن التشبيه أساس الاستعارة . وأوضح من جهر بذلك عبد القاهر الذي قال : « والتشبيه كالأصل في الاستعارة وهي شبه بالقرع له أو صورة مقتضية من صورته^(٢) » . وكرر هذا الرأي وقال ان التشبيه كالأصل في الاستعارة وأنها ضرب منه وتعتمد عليه وأن « حسننا يكون على قبح إغفاء التشبيه ، وأنها تشبيه على المبالغة ، إلى غير ذلك من الكلام الذي يدل على أنه ربطها بالتشبيه ربطاً وثيقاً . وأدعى هذا الربط إلى أن يخرج أنواع المجاز الأخرى من الاستعارة : لأن « علاقتها لا تقوم على المشابهة وإنما على ملائمة أخرى . ويتضح ذلك في ردّه على ابن جريد الذي ذكر في الاستعارة أنها ليست منها . وعلم ذلك بقوله : « فالوجه في هذا الذي رأوه من إطلاق الاستعارة على ما هو تشبيه كما هو شرط أهل العلم بالشعر وعلى ما ليس من التشبيه في شيء . ولكنه نقل اللفظ عن الشيء إلى الشيء بسبب الخصائص والخصائص من المبالغة

(١) ينظر نهاية الإيجاز ص ٥٧ ، والبرهان الكاشف عن أحوال القرآن ص ١٦٤ . وانظر ج ١

ص ٨٨ وما بعده . وص ٢٥٢ - ٢٥١ .

(٢) أنوار البياض ص ٢٨ .

بينهما وخلط أحدهما بالآخر . انهم كانوا ينظرون إلى ما يتعارفه الناس في معنى العارية وأنها شيء حوك عن مالكه ونقل عن مقره الذي هو أصل في استحقاقه إلى ما ليس بأصل ولم يراعوا عرف القوم . ثم قال : « وليس هذا الملعب بالرضي » بل العيوب أن تقصر الاستعارة على ما نقله نقل التشبيه للمبالغة « لأن هذا نقل يطرد على حد واحد . وله فوائد عظيمة ونتاج شريفة » (١) .

ولكنه - مع ذلك - فرّق بين الاستعارة والتشبيه ، ورأى أنه لا يصلح كل تشبيه للاستعارة . ويمكن إيجاز ما أشار إليه من فروق فيما يأتي (٢) :

١ - في الاستعارة يسقط ذكر المشبه من البين حتى لا يعلم من ظاهر الحال أنك أردته « ، مثل : « عشت لنا غيبة » والمقصود امرأة . و « وردنا بخرأ » والمقصود المندوح الكريم . وفي هذا لم يرد الحكم ما الاسم موضوع له في أصل اللغة بدليل الحال أو إضمار المضاف بعد السؤال أو بضمي الكلام وما يتلوه من الأوصاف . أمّا التشبيه فهو « أن تذكر كل واحد من المشبه والمشي به » مثل : « زيد أسد » و « هند بدر » . وهذا ما ذهب إليه القاضي الخرجاني الذي قال : « وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل . فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عند فيها قول أبي نواس :

والحبُّ طهرٌ أنت راكِبُسه فإذا صرَّقتْ عنائه انصرفتْ

ولست أرى هذا أو ما أشبهه استعارة . وإنما معنى البيت أن الحب مثل طهر ، أو الحب كطهر لتبره كيف شئت إذا ملكك عنائه . فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء . وإنما الاستعارة ما اكتفي فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في غير مكانها (٣) .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ٢٩٩ وما بعدها .

(٣) الواسطة ص ٥٩ .

٢ - إن حقيقة الاستعارة في اللغة والعادة يوضح الفرق بين التبيين وذاك
 ، ان من شرط المستعار أن يحصل للمستعبر منافع على الحد الذي يحصل
 للمالك ، أما في التشبيه فلا يقع ذلك الموضع . فلي قولنا : « حَسَنَتْ
 ظِلِّي » يعقل من أحلاقه اننا قصدنا الجنس المعلوم من الخبر ان ولكن
 استعرائه للمرأة ، ولا يقع مثل هذا في قولنا « زيد أسد » .

٣ - ان الحالة التي يختلف في الاسم اذا وقع فيها التسمي استعارة أم لا يسمى
 هي الحالة التي يكون الاسم فيها غير مبتدأ أو منزلاً منزلة كخبر كان
 أو المفعول الثاني لهاب عظم أو الحال . والاسم في هذه المواضع يكون
 لأشياء معناه في مثل : « زيد منطلق » فالاسم هنا لأشياء الانطلاق لزيد .
 في حين لا يكون مثل ذلك في « زيد أسد » لاننا لا نستطيع ان نقبض
 الجنسية لزيد على الحقيقة .

٤ - ان ما يصلح دخول أداة التشبيه عليه فهو تشبيه ، وما لا يصلح دخول الاداة
 عليه فهو استعارة

٥ - في التشبيه يذكر المشبه باسمه أولاً ثم يجري اسم المشبه به عليه مثل
 « زيد أسد » أما الاستعارة فلا يذكر فيها المشبه .

وهذه الفروق التي ذكرها نطبق على الاستعارة التصريحية . ولم يشر
 إلى المكنية أو يذكر أمثلة لها . ولعله رأى أنها لا يشم منها التشبيه مثل التصريحية
 وأما تقوم على التوهم والتعطيل . ويمكن ان نطبق فروقه عليها اذا أضفنا بالرأي
 القائل ان الاستعارة المكنية أو بالكناية هي تشبيه حذف المشبه به والاداة ووجه
 الشبه .

وفرق بين الاستعارة والتشبيه^(١) . ورأى انه لا بد من أن يكون للفظ
 المعنوي أصل ثم ينقل عن ذلك الأصل في حين ان التشبيه هو التشبيه المتعز

(١) انظر أسرار البلاغة ص ٢١٩ وما بعدها .

من مجموع أمور ولا يحصل إلا بفساد الكلام لو أكثر مع التأويل. ثم إن الاستعارة يجب أن تنفرد حكماً زائداً على أفراد التشبيه، إذ لو كان المراد بها هو المراد بالتشبيه لوجب أن يصبح أملاً لها في كل شيء يقال فيه أنه تمثيل ومثل . والاستعارة تقتضي تردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز ، وليس كذلك التشبيه . ومن شأن الاستعارة أن تسقط ذكر المشبه من اليمين وتطرحه وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به في حين أن التشبيه كالتشبيه يقتضي وجود المشبه والمشبه به .

وهذه الدروق قريبة مما أشار إليه في الفرق بين التشبيه والاستعارة ولا سيما قبول التشبيه للأداة وعدم قبول الاستعارة لها . وبذلك فتح عبد القاهر الطريق لمن جاء بعده في هذه المسألة . ووضع الرازي فصلاً صغيراً للفرق بين الفئتين لم يأت فيه بجديد بل لم يستطع أن يتحسم حول ما ذكره عبد القاهر واكتفى بأن قال : « فإن بعضهم أنه لا فرق بينهما وهو باطل » لأن التشبه حكم إضافي لا يوجد إلا بين شيئين . وإذا قلت : « رأيت اسداً » لم تذكر شيئاً آخر حتى تشبهه بالاسد فظهر أن هذا ليس من التشبيه في شيء بل الغرض المطلوب منه المبالغة في التشبيه . ولكن غرض الشيء ليس هو عين الشيء . وإيضاً فكما أن التشبيه مطلوب في الاستعارة فكذلك الإيجاز مطلوب فيها . ألا ترى أنك إذا قلت : « رأيت اسداً » فقد أهدت أنك رأيت رجلاً شيئاً بالاسد في شجاعته . فإن ذلك الشيء على أتم ما يكون فقد ثابت تلك اللفظة مناب هذا الكلام الطويل . فالتشبيه إذن أحد غرضي الاستعارة . فكما لا يجوز أن يقال الاستعارة من باب الإيجاز فكذلك لا يجوز أن يقال أنها من باب التشبيه^(١) . وليس في هذا الكلام ما يوضح الفرق بين الفئتين كما فعل عبد القاهر . وفرق ابن الأثير بينهما من حيث تدبير الأداة وقال : « والفرق إذن أن التشبيه المظهر للأداة بمن إظهار أداة التشبيه فيه والاستعارة لا يعين ذلك فيها . وعلى هذا فإن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له الذي هو المقول

إليه ويكتفى بالذكر المستعار الذي هو المنقول (١) ، ثم أشار إلى مسألة فوقية تتصل بالفصل بينهما وهي أن الحكم للاستحسان لا للجواز ، ولذلك إذا أظهرت الأداة والمستعار له في الكلام ذهب حسنه ، قال : « وقد علم وتحقق أن من الواجب في حكم الفصاحة والبلاغة ألا يظهر المستعار له ، وإذا ظهر ذهب ما على الكلام من الحسن والرواق ، ألا ترى أنا إذا أوردنا هذا البيت الذي هو :

فأمطرت لؤلؤاً من إنرجس وسكت
ورداً وعطت على الغناب بالورد

وجد عليه من الحسن والرواق ما لا يخاف به ، وهو من باب الاستعارة ، فإذا أظهرنا المستعار له صرنا إلى كلام عث ، وذلك أنا نقول : فأمطرت دعماً كاللؤلؤ من عين كالنرجس ، وسكت غداً كالورد ، وعطت على أنامل مضمومة كالغناب بأسمان كالورد ، وفترق بين هذين الكلامين لتمامي واسع . (٢) ، وفترق كذلك بين كلام عبد القاهر والرازي من جهة وكلام ابن الأثير من جهة أخرى ، فالأولان نظراً إلى المسألة نظرية عقلية ، ونظر الأخير نظرة تتخذ من اللوح حكماً ومن الاستحسان لا الجواز منطقاً .

بلاغتها :

الاستعارة من أساليب العرب القديمة وتنفذ مع التشبيه في التصوير الأدبي وإن كانت أكثر منه تخيلاً . وقد جاءت صور كثيرة منها في الشعر الجاهلي وكتاب الله وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم . وحفل الشعر العربي بعد ذلك بأمثلة كثيرة منها ، وقد حظيت باهتمام كبير من الشعراء العباسيين

(١) النثر السائر ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) النثر السائر ج ١ ص ٢٥٩ .

وكانت أهدأ أوجه الخلاف بين القدماء والمحدثين ، وثالث أربعة عينية على أي تمام لانه خرج على عموم الشعر ، وكانت الاستعارة أهدأ تلك الأربعة . وعابوا عليه كثيراً من الاستعارات ، من ذلك قوله (١) :

يا دهرُ قَرِّم من أهدعيت فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

فطربت الشتاء في أهدعيسه ضربة غادرته عتوقاً ركوبا

قال الأحمدي معلقاً على البيت الأول : « أي ضرورة دخلته إلى الأندلسين ؟ وقد كان يمكنه أن يقول : « من أعوجاجك » أو « قَرِّم معوج » صنعتك ، أو يا دهر أحسن بنا الصنيع ، لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل ، وضد الصنيع .

وكذلك قوله :

تدأبت ما لو حسبت الدهر شطره
لفكر دهر أي حيايه الفصل

فجعل الدهر غداً ، وجعله مفكراً في أي العيان أكل ، وما شيء هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة . وكان الأكلب والأليق بهذا المعنى لما قال : تحدث ما لو حمل الدهر شطره ، أن يقول : « لتضعف » أو « لا تكهد » أو « لأمين » الثامن صروفه ونوازل ، ونحو هذا مما يعتمد أدل المعاني في البلاغة والأفراط .

وقال معلقاً على بيته :

(١) انظر النوازل ج ١ ص ٢١٤ وما بعدها .

لم تُسَلِّ بعد الميرى ماءً أَقْلَ قَدَى

من ماءٍ قَالِيَةٍ يَسْطِيكُهُ فَهَيْسَمُ

« فجعل للقافية ماءً على الاستعارة . فلما أراد الرواقى التصريح . ولكنه قال : « يَسْطِيكُهُ » ففسد معنى الرواقى . لأنك إذا قلت : « هذا ثوب له ماء » أو « لفظ له ماء » لم يجعل الماء مشروباً على الاستعارة فتقول : « ما شربت ماءً أُعْطِبَ من ماء ثوب شربته عند غُلال » و « رأيت على هلال » وكذلك لا تقول : « ما شربت ماءً أُعْطِبَ من ماء قفا تَيْك » أو « أُعْطِبَ من قصيدة كذا » . لأن للاستعارة حداً تصلح فيه فإذا جاوزته فسدت وقبحت » .

وهذا الموقوف من استعارات أبي تمام يدل على شروع هذا الفن في الشعر واصراف الشعراء فيه . ويدل أيضاً على التفتن الذي طرأ عليه في البيت الجديد وما نال من تقدم على يد الشعراء المولدين ومن جاء بعدهم من المبدعين . وقد كثُر الحديث عن الاستعارة وخروج بعضهم على عمود الشعر فيها . لذلك وضع البلاغيون والنقاد حُسنها وجملها شروطاً واعتماها بها . لأنهم يرونها « أفضل المجاز وأول أبواب البديع » . وليس في حل الشعر أعجب منها . وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها وارتلت موضعها ^(١) .

والاستعارة المصيبة من الموقع ما ليس للحقيقة . فإن قوله تعالى : « يَوْمَ يَكْشِفُنَا عَنْ سَائِي ^(٢) » . « أَيْلَهُ وَأَحْسَنَ وَأَدْنَى » مما قصد له من قوله لم قال : « يوم يكشف عن شدة الأمر » وإن كان اللغويان واحداً . قال أبو هلال : « ألا ترى أنك تقول لنحتاج إلى الجدي لمرء : « شتمت عن ساقك فيه » وأشد حيازتك له » فيكون هذا القول منك أو كدت في نفسه من قولك : « جدي في أمرك » . وقول دريد بن الصمة :

(١) التمام ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) القلم ٤٢ .

كثيراً الأثر خارج نصف ساقه
مستور على العزم طلائع أنجسدر

وقال الخليل :

وكنث إذا جداري دعماً لنصفه
أشهر حتى ينصف الداني مئزري^(١)

ويرى عبد القاهر أن ليست الميزة فيها زيادة في المساواة بين طرفيها بل التأكيد والتشديد والفرق في أيات هذه المساواة وتوزيعها . فليس تأثيرها إذن في ذات المعنى وحقيقته بل في إيجابه والحكم به^(٢) . وقال : « ومن التفصيل الجامعة فيها أنها تبرز هذا الأثر الهدأ في صورة مستجدة تزيد قدرة ليلاً وتوجب له بعد الفصل فصلاً . وأتت لتحدد القطعة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع . وظأ في كل واحد من تلك المواضع شأن منفرد وشرف منفرد وفصيلة مرموقة وخلاصة مرموقة . ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من القاطعة حتى تخرج من الصدفة الواحدة عادة من الدرر . وتنتهي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر . وإذا تأملت أسماء الصنعة التي بها يكون الكلام في حد البلاغة ومعها يستحق وصف البراعة وجدتها تغفر أن أعبرها حلاها وتقتصر عن أن تثار عنها مداها ومصادفها لجرما هي بدورها وروضا هي زهرها وعرائس ما لم تعرها حليها فهي عواطف . وكواعب ما لم تعينها فهي ذا في الحسن حظ كامل . فأنك ترى بها الجهاد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مينة والمعاني الخفية بادية جليلة . وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا تاهراً لها أعز منها ولا روتراً لها لم ترها . وتجد التشبيهات على الحسنة غير معجبة عالم تكنها . إن شئت أرئت المعاني القضيعة التي هي من عجايب العقل كأنها قد جسيمت حتى رأتها

(١) كتاب الصناعات ص ٢٦٤ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٥٧ .

العيون وإن شئت لظفت الأوصاف الجسدية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا
الظنون^(١) .

وهذه لوحة أدبية تلخص فيها عبد القاهر ميزة الاستعارة وفائدتها وقبحتها في
التعبير ، وكانت هذه الكلمات منطلقة في الحديث عن هذا الفن وأقسامه
وصوره المختلفة . وقد أوضح خصائصها بالأمثلة الكثيرة وتحليلها والوقوف على
مواطن الجمال فيها .

ويرى أن "جمال الاستعارة يعود إلى ما توشي في جعلها من نظم وما
توشي في وضع الكلام من ترتيب على نعر خاص . وأخذ لذلك مثلاً قول
الشاعر :

سألت عليه شعابُ الحَيِّ حين دعا
أنصاره بوجوه كسالدناير

وقال : « فإني ترى هذه الاستعارة على لفظها وغمريتها إنما تم لما الحسن
وانتهى إلى حيث انتهى بما توشي في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجهدها قد
ملحت ونظمت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها . وإن شككت فاصد إلى الجارين
والطرف فأزل "كلاً" منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل : » سألت
شعابُ الحَيِّ بوجوه كالدناير عليه حين دعا أنصاره ، ثم انظر كيف يكون
الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة وكيف نعدم أريختك التي كانت وكيف
تذهب النشوة التي كنت تجهدها^(٢) .

ومن سر محاسنها أن اللفظة تستعار في عدة مواقع ثم يكون لها في بعض
ذلك ملاحظة لا تكون في الثاني . ومن ذلك لفظة « الجسر » في قول أبي تمام :

(١) أسرار البلاغة ص ٤١ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٨ .

لا يطلع المرأة أن يجتاب بنفسه
بالقول ما لم يكن جيسراً له العسل

وقوله :

تصرت بالراحة العظمى فلم تترها
تسال إلا على جسر من التعجب
فترى لها في البيت الثاني حسناً لا تراه في الأول - ثم نظر إلى الكلمة
لدها في قول ربيعة الرقي :

قولي : نعم ، ونعتم إن قللت واجبة
قالت : عسى وعسى جيسراً أن تعتم

فترى لها لطفاً وخلاصة وحسناً ليس الفضل فيه بقليل (١)
وبالطاقة الاستعارة - عنده - لا تكون في الثبت وإنما في الالابات ، فلي
قول الشاعر :

فأسليت لؤلؤاً من لرجس وسققت
ورداً وعففت على العناب بالبرق

قال عبد القاهر : : إذا نظرت إلى قوله فربته قد أفادك أن الدمع كان لا
يخرم من شبه اللؤلؤ ، والعين من شبه الرجس شيئاً ، فلا تحسن أن سبب
الحسن الذي تراه والأريحية التي تجدها عنده أنه أفادك ذلك فحسب ، وذلك
أنك تستطيع أن تبي به صريحاً فتقول : فأسليت دمعاً كأنه اللؤلؤ بعينه من عين
كأنها الرجس حقيقة ، ثم لا ترى من ذلك الحسن شيئاً ، ولكن اعلم أن سبب
أن راقك وأدخل الأريحية عليك أنه أفادك في إثبات شدة الشبه مزية وأوجدك
فيه خاصية قد غررت في طبع الإنسان أن يرتاح لها ويجد في نفسه هزقة عندها :

(١) ذلك الامجاز ص ٦٢ .

ومكنا حكمهم أظنهم كقول أبي نواس :

تبيكي فتلوي للدر مسن ترجس

وللهم السوراة بعثت

وقول الشامي :

يحدث قبرا ومالئت خلوة بال

ولاحثت خديرا ورئت عزالا^(١)

وكذا ازداد التشبيه خطأ كانت الاستعارة أحسن حتى أنها تكون أقرب ما يمكن إذا كان الكلام مؤثرا تأليفا حيث إذا أفصح فيه بالتشبيه خرج الـ ما تعافه الناس ويلفظ السبع . فثبت إن المعنى :

انصرفت أعضائهم راحة يسان الحزن ضيقا

لو أظهر التشبيه وأفصح به قليل : « انصرفت أعضايع يده التي هي كالأصابع لعظامي الحزن لمبه العذاب من أطرافها المخصوصة » . وهذا تحت بارقة بجات البيت كما نظمها الشاعر ورثب ألقافه ووصل بينها .

وذكر أن امر جداها - أيضا - ليس في نقل كلمة من معنى إلى معنى - لأن ذلك ينفقدها قوتها بل يضيع معناها . لأننا لو قلنا « الأسد » من معناه الحقيقي إلى معنى الرجل الشجاع لصار معنى « رأيت أسدا » : « رأيت رجلا » شجاعا . فننقد الاستعارة قوتها ولا تكون أقوى من الحقيقة في شيء ، ولكن مصادر قوتها إنما هي في ادعاء أن الرجل من جنس « الأسد » حقيقة له صفاته وطبيعته .

وتجلى دوعة الاستعارة في تحليله للآيات :

(١) دوائر المعارف ص ٣٤٤ .

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالركبان منى هو ماسح
وشد على ذهم المهاري رحلتنا
ولم ينظر العادي الذي هو راسح
أخذنا بأطراف الأحاديث ينسا
وسالت بأعناق المني الأباطح

يقول : « ثم راجع فكرتك . واتخذ بصيرتك . وأحسن التأمل ، ودع
عنك التحيز في الرأي . ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثائهم
ومديحهم منصرفا إلا إلى استعارة وقعت موقعها ، وأصابت غرضها . أو
حسن ترتيب تكامل مع البيان حتى وصل المني إلى القلب مع وصول القبط إلى
السمع . واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن . وإلا إلى سلامة الكلام
من الحشو غير المفيد » ثم قال عن البيت الأخير : « وأخير بعد بسرعة السير
ووظامة الظاهر . إذ جعل سلامة سيرها بهم كالثاء تسيل به الأباطح ، وفي ذلك
ما يؤكد ما قبله . لأن الظهور إذا كانت وطيلة ، وكان سيرها السير السهل
السرير زاد ذلك في نشاط الركبان ومع ازدياد نشاط يزداد الحديث طيا (١) » .

وتلخص الرازي ما ذهب إليه عبد القاهر وقال الله ليس من صحة الاستعارة
حسن التصريح بالتشبيه . وأنه كلما زاد التشبيه انقضاء ازادات الاستعارة
حسنا . وكلما جنع بين عدة استعارات كان الكلام أروع وأجود . وذكر
أن حسن الاستعارة يكون إذا تضمنت للبالغة في التشبيه مع الإيجاز (٢) .

والشرط السكافي لحسن الاستعارة شروطاً هي :

١ - رعاية جهات حسن التشبيه بين المستعار له والمستعار منه .

(١) لمرار البلاغة ص ٢٦ - ٢٣ .

(٢) ينظر أدب الإيجاز ص ٩٠ وما بعده .

٢ - أن لا نشع في الكلام من جانب اللفظ راحة من التشبيه . ولكنه رفق في أن يؤدي ذلك إلى التعمية والإلغاء .

٣ - أن تكون الاستعارة التمثيلية بحسب حسن المكنية إذا كانت تابعة لها .

٤ - أنها تحسن إذا انضم إليها المشاككة ^(١) .

والى ذلك ذهب أيضا القرويني فلذكر أن من جملة التعليلية والتشليل أن لا تشم راحة التشبيه من اللفظ . على أن يكون الشبه بين طرفيها جلياً بنفسه أو ضَرْفٌ أو غيره والأمر تعمية لا استعارة وتمثيلاً . وإذا ما قوي الشبه بين الطرفين بحيث صار القصر كالأصل لم يحسن التشبيه واعتبرت الاستعارة . ويكون حسن المكني عنها برعاية جهات حسن التشبيه . ولا تخرج عن هذه القاعدة إلا التعليلية التي ينبغي أن يكون حسنها بحسب حسن المكني عنها لأنها - في رأيه - لا تكون إلا تابعة لها ^(٢) .

وبذلك لم يستطع القرويني أن يظهر قيمة الاستعارة . وربط بينها وبين التشبيه ربطاً محكماً . لأنها مبنية عليه كما ذهب - من قبل - عبد القاهر الذي أكد أنها ليست تمثيلاً حتى لا تكون معانيها من كذب الخيال وعمل الوهم وصنع التأويل الذي ينزه عنه القرآن الكريم والحديث الشريف .

والاستعارة بعد ذلك شديد شرح المعنى وتعمل في النفس ما لا تفعل الحقيقة . وتعبد تأكيد المعنى والمبالغة فيه والابحاز وتحسين المعنى وإبرازه . ثم هي إلى جانب ذلك كله طريق للتأويل والتجديد . لأنها تكشف عن صور جديدة ومعاني جديدة .

(١) منتقاه السوم ص ١٨٤ .

(٢) الملخص ص ٣٦٢ .

وربط جادو عبد القادر بين الاستعارة وتداعي المعاني ، وقسم ان
الصورانية تتضمن عمليتين :

الأولى : متشعبة مع الحقيقة والواقع قائمة على قاعدة تداعي المعاني ، هي إدراك
ما بين المشبه والمشبّه به من تشابه ، ولأن التشبيه هو أساس الاستعارة
لأنهما يشتركان في هذه العملية .

الثانية : تتحقق في الاستعارة دون التشبيه وتتميز بما منه وهي عملية خيالية غير
واقعية ، تلك هي ادعاء أن المشبه والمشبّه به متجانسان في الحقيقة فهو
شخص واحد لا شخصان .

اما في المكتبة فتجد ثلاث عمليات عقلية هي : العمليتان السابقتان مضافا
إليهما عملية ثالثة متصلة بالعملية الثانية هي تحليل الصفات المشبه بها هو مسن
لخصائص المشبه به . فهي قولنا : « إن عين القدر ترعناكم » نجد :

أولاً : شبهاً بين القدر والانسان الذي يرعى الأشياء ويرقها بعينه .

ثانياً : ادعى أن القدر هو انسان لا عقل .

ثالثاً : ثبت بعد ذلك القدر ما هو من لوازم الانسان وهو العين (١) .

وهذه محاولة جادة في فهم الاستعارة فهماً جديداً ، وربطها بدراسات
علم النفس ، وليست محاولة عبد القادر بعيدة عنها وان قصرت عباراته وغابت
عنه مصطلحات علم النفس .

(١) انظر دراسات في عالم النفس الانطوي ص ٤٢ - ٤٤ .

الفصل الخامس

الكناية

الكتابة لون من ألوان التعبير البلاغي ، وقد عُني بها نقاد العرب وعرفوا لها مكانتها في الإيضاح والتأثير ، لأنها وردت كثيراً في كلام العرب والفكر الكرمي . وكانت في كتاب الله موحية وموجزة ، مصورة للمعاني خير تصوير . وكانت مؤيدة مهذبة تتجنب ما يبدو على الأذن سباحه . ومن ذلك قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَكْلُومًا مَّحْسُورًا ^(١) » فقد أراد أن يعبر عن البخل والبذير تعبيراً مصوراً موحياً فترك التصريح وقرن البخل باليد المغلولة إلى العنق . وربط التيسير أو الكرم باليد اليسوفة التي لا ينفذ عليها شيء . وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْكُمُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ . إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ أَكْرَهٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا . أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا وَذَكَرَهُ ^(٢) » . وقد عدل عن ذكر ما ينصل بالأغنياب

(١) الأنعام : ٢٨ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

مراحة وكفى عنه بأكل لحم الأخ الميت ، وفي ذلك صورة تدعو إلى التأنيب .
لأنها جسيمة عدلية الاغتياب يسبباً يدعو إلى التأمل والخوف .

وقوله تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ..
حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شُهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١) » . وقد عبر عما لا يحسن ذكره بـ « جلودهم » وفي
هذا صورة مؤذية مهذبة جاءت بأحسن القول وأدق التعبير .

ومن الكتابة قوله - عليه السلام - : « يا أيُّها زبديك سرقك بالغوازر »
وهي كتابة لطيفة عن الله الرقيقات . ومنها قول أبي تمام :

ما لي رأيتُ رايكم بينَ الخسرى
ما لي أرى أطوادكم تشبهسدم

فهـ يس الأرى « كتابة عن تنكر ذات الين ، و « تدم الأطواد » كتابة
عن غلة الخوام وطيش العقول .

تعريفها :

الكتابة مصادر كنى بكنى وكنيته تكتبه حسنة . ولأمها ولو ويا ، يقال :
كناه بكنيه ويكونه . وذكر ابن منظور في كنى : « الكتابة على ثلاثة أوجه :
أحدها : أن يكنى عن الشيء الذي يستفحش ذكره .

والثاني : أن يكنى الرجل باسم لوقر أو تعظيما .

والثالث : أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف بها كما يعرف باسمه كآبي خب
اسمه عبد العزى عرفه بكنيته فساء الله بها .

(١) فصلت ١٩ و ٢٠ .

والكتابة والكيفية واحدة الكنى . واكتنى فلان يكتا . والكتابة : أن تتكلم بشئ . وتربد غيره . وكنى عن الأمر غيره يكتى كتابة . يعنى إذا تكلم بغيره مما يستدل عليه . واستعمل سبويه الكتابة في علامة الضمير .

وفي هذا النص جميع ابن منظور ومن المعنى القوي والنحوي والامعلاحي ، وإن لم يكن الأخير مبدءاً تعديداً دقيقاً .

ومن أقدم الذين عرضوا للكتابة في مؤلفاتهم أبو عبيدة ، وهي عنده كل ما فهم من الكلام ومن السياق من غير أن يذكر اسمه صريحاً في العبارة . فهي تستعمل قريبة من المعنى البلاغي كما في قوله تعالى : « نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ »^(١) « غير كتابة وتشويه »^(٢) . وفي قوله تعالى : « أَوَلَمْ تَسْأَلُوا النَّاسَ »^(٣) ، كتابة عن العشيان^(٤) .

وقد تأتي الكتابة بمعنى الضمير . وهو ما ذكره سبويه وتكرر ، غير بعيدة في « مجاز القرآن » . والفراء في « معاني القرآن » .

وأشار إلى ما لاحظ أن الكتابة والتعريض . وذكر أنها لا يحصلان في العفول عند الإفصاح والكشف^(٥) .

وذكر ابن المعتز في كتابه « البديع » نقلاً من محاسن الكلام هو « التعريض والكتابة »^(٦) . ولم يعرفهما وإنما ذكر أمثلة لهما . وقد يدخل فيهما الغر كالبازيل الذين ذكرهما :

-
- (١) البقرة ٢٢٢ .
 - (٢) مجاز القرآن ج ١ ص ٩٢ .
 - (٣) النساء ١٣ والذئبة ٦ .
 - (٤) مجاز القرآن ج ١ ص ١٥٥ .
 - (٥) أريدان والتبوت ج ١ ص ١٥٧ .
 - (٦) البديع ص ٦٤ .

أبسوك أباً ما زال فنانس موجداً
 لأعناقهم كقترأ كما ينقترأ القنقترأ
 إذا عوج الكتاب يوماً سطورهم
 فليس بعوج له أبسداً سطره

وقد كنى عن الخجام بيلين البيرين .

و تقع الكتابة عند المرد على ثلاثة أضرب :

أحدها : التسمية والتغطية ، كقول النابغة الجعدي :

أكني بغير اسمها وقد علم الله خفيات كل مكنتهم

وقال ذو الرمة استراحة إلى التصريح من الكتابة :

أحرب المكان القنقتر من أجل أني

بسه أتغنى باسمها غير متعجب

وثانيها : الرغبة عن اللفظ الخسيس للبحث إلى ما يدل على معناه من غيره . كقوله تعالى في المسيح وأمه : « كَانَا يَتَاكُلَانِ الطَّعَامَ »^(١) . وهو كتابة عن قضاء الحاجة .

وثالثها : التضعيف والتعظيم . ومنه اشتقت الكتابة ، وهو أن يعظم الرجل أن يدهي باسمه . وقد وقعت في الكلام على قسرين : في الهي على جهمة الضال أن يكون له ولد ويدعى بولده كتابة عن اسمه . وفي الكور أن ينادى باسم ولده صيانة لاسمه^(٢) .

وذكر قدامة بن جعفر فناً سماه « الإشارة » . وهو أن يكون اللفظ القليل مشدداً على معاني كثيرة بإيحاء إليها أو لجة تدل عليها كما قال بعضهم وقد

(١) التاج ٦٤ .

(٢) الكمال ج ٢ ص ٦٧٤ .

وصف البلاغة : « هي لغة دالة ^(١) » . وذكر في باب التلاطف اللفظ والمعنى
 أننا سماء « الإرداف » وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي
 باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو رده وتابع له فإذا دل
 على التابع أبان عن المتبوع . كقول عمر بن أبي ربيعة :

بعيدة مهوى الثرى لمسا لؤلؤ
 أبوها ولما عهدت شمس وحائب

وإنما أراد أن يصف طول الجهد فلم يذكره بلفظه الخاص به بل أتى
 بمعنى هو تابع لطول الجهد . وهو بعد مهوى الثرى ^(٢) . ويمكن أن ندخل هذين
 البيتين في الكتابة ولا سيما الثاني .

وتحدث ابن سنان عن حسن الكتابة عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي
 لا يحسن التصريح فيه . وعده أصلاً من أصول الفصاحة وشرعاً من شروط
 البلاغة ^(٣) .

وتحدث عن الإرداف وقال عنه : « ومن نعمت البلاغة والفصاحة أن
 تراء الدلالة على المعنى فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة .
 بل يأتي بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع
 وهذا يسمى الإرداف والتنبيغ . لأنه يأتي فيه بلفظ هو رده أو القيد المتعرض
 بذلك المعنى وتابعه » ^(٤) . وذكر أمثلة قدامة نفسها في هذا الفن .

والمختلط مصطلحاً « الكتابة » و « التعريض » عند أبي هلال . وقال : « هو
 أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح عن حسب ما عمدوا بالحن والتورية

(١) لغة الشعر ص ١٧٤ .

(٢) لغة الشعر ص ١٧٤ .

(٣) سر الفصاحة ص ١٩٦ .

(٤) سر الفصاحة ص ٢٧٠ .

عن النبي ^(١) . وتحدث عن الإرداف والتوابع . وقال : « أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيترك اللفظ الدال عليه الخاص به ويأتي بلفظ هو رده وتابع له فيجعله عبارة عن المعنى الذي أراد . وذلك مثل قول الله تعالى : « فيسبحن قاصرات الطرف ^(٢) » . وقصور الطرف في الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والإرداف . وذلك أن المرأة إذا عكفت قصرت طرفها على زوجها ، فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف . والعفاف ردفاً وتابع لتقصير الطرف ^(٣) . »

وتكلم على المائلة وهي : « أن يريد المتكلم العبارة عن معنى فيأتي بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر . إلا أنه يأتي إذا أوردته عن المعنى الذي أرادته كقولهم : « فلان نقي الثوب » يريدون أنه لا عيب فيه . وليس موضوع نقاء الثوب البراءة من العيوب وإنما استعمل فيه تمثيلاً ^(٤) . »

وأدخل ابن رشيق الكتابة في باب الإشارة . وهي عنده من غرائب الشعر ومثلحه . وبلاغته عجيبة تدل على بعد المرمى وفرط القدرة . وليس يأتي بها إلا الشاعر المبرز والحاذق الماهر . وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالسة واختصار وتلويح يعرف بمجمل . ومعناه يبعد من ظاهر اللفظ . ومن أنواعها التضمين والإيماء والتعريض والتلويح والكتابة والتشثيل والرمز واللمحة والقرص والمعن والتعمية والحذف والتورية والتنبيع . وقال عن الكتابة : « والعرب تجعل اللمحة شاعراً . لأنها عندهم شائعة القباء . ولذلك يسمونها نعيمة . وعلى هذا التعريف في الكتابة جاء قول الله عز وجل — في إخباره عن عيسى داود — عليه السلام — : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعيمةً . وولي نعيمة واحدة ^(٥) » . كتابة بالنعيمة عن المرأة .

(١) كتاب الصانعين ص ٢٦٨ .

(٢) الرحمن ٥٦ .

(٣) كتاب الصانعين ص ٢٧٠ .

(٤) كتاب الصانعين ص ٣٤١ .

(٥) سورة ص ٢٤ .

وقال عمرو القيس :

وبيضه عيذر لا يبرام عيذر حسدا

تفتحت من لهنن بها غير مغلجل

كتابة بالبيضة عن المرأة^(١) . وقال إن من الكتابة اشتقاق الكتابة لأكثر
تكني عن الرجل بالآبوة . ثم ذكر الأعراب الثلاثة التي ذكرها المبرد من غير أن
يفصل فيها أو يعرف الكتابة تعريفا دقيقا .

ولكن هذا الفن بدأ يأخذ طابعه العلمي عند عبد القاهر الذي تحدث عنه في
عدة مواضع من كتابه ، دلائل الإعجاز ، وقال : « الكتابة أن يريد المتكلم
البيات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يحيي
ال معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه وتجعله دليلا عليه^(٢) » .

وقال الرازي : « اعلم أن اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلي غير
معناها فلا يخلو إما أن يكون معناها مقصودا أيضا ليكون دالا على ذلك الغرض
الأصلي ، وإما أن لا يكون ، فالأول هو الكتابة ، والثاني هو المجاز^(٣) » .

وقال ابن الزملاكي : « وهي أن تريد إثبات معنى فتترك اللفظ الموضوع له
وتأتي بتاليه وجودا لثومي به إليه وتجعله شاهدا له ودليلا عليه^(٤) » .

وقال السكاكي : « هي ترك التصريح بذكر الشيء أن ذكر ما هو معلوم
لينقل من المذكور إلى المبروك^(٥) » .

وذكر ابن الأثير عدة تعريفات ورجح : « أنها كل لفظة دلت على معنى

(١) نسخة ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٢ .

(٣) نهاية الإعجاز ص ١٠٢ .

(٤) أبرحان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ٦٥٥ . - إنبات ص ٣٧ .

(٥) مفتاح العلوم ص ١٦٩ .

بحرر حده على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز^(١) .
وقال القزويني : « الكتابة : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه
حينئذ^(٢) » .

وقال ابن أبي الأصبغ : « هي أن يعبر للكلم عن المعنى القبيح بالنظ
الحسن وعن الفاحش بالطاهر^(٣) » . وليس في هذا التعريف دلالة واضحة بل
هو جزء من مفهوم الكتابة . وكان ابن أبي الأصبغ لم يستفد مما كتب السابقون .
« ذكر العنوني تعريفات السابقين وتقدمها » . ثم قال : « فالمختار عندنا في بيان
ماهية الكتابة أن يقال : هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين حقيقة ومجازاً من
غير واسطة لا على جهة التصريح^(٤) » .

وقال الزركشي : « الكتابة عن الشيء : الدلالة عليه من غير تصريح
بلدء . وهي عند أهل البيان أن يريد للكلام ثبات معنى من المعاني فلا يذكره
باللفظ الموضوع له من اللغة . ولكن يعني إلى معنى هو تأليه وردفه في الوجود
فيومي به إليه ويجعله دليلاً عليه قبل أن على المراد من طريق أول^(٥) » .

وميز ابن حجة الحسوي بين الكتابة والإرداف فقال في الكتابة : « الكتابة
هي الإرداف بعينه عند علماء البيان . وإنما علماء البديع أفردوا الإرداف
عنها . والكتابة : هي أن يريد للكلم الثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ
الموضوع له في اللغة ولكن يعني إلى معنى هو ردكته في الوجود فيومي به إليه
ويجعله دليلاً عليه^(٦) » . وقال في الإرداف : « نوع الإرداف قالوا : إنه هو

(١) لسان المستخرج ٩ ص ١٩٤ . وديلمر المجمع الكبير ص ١٤٩ .

(٢) الأصبغ ص ٣١١ .

(٣) تحرير التبيين ص ١٥٣ . وديلمر لفرق ص ٥٣ .

(٤) الطراز ج ١ ص ٢١٣ .

(٥) الإرداف في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٦) حاشية الذهب ص ٣٥٩ .

والكنائية شي، واحد، قلت : وإذا كان الأمر كذلك كان الواجب اختصارهما ،
وإنما أتت البدع كقدامة الخاتمي والرماني قالوا : إن الفرق بينهما ظاهر ،
والإرداف هو أن يريد المتكلم معنى فلا يعتبر عنه بلفظه للوضوح له بل يعتبر
عنه بلفظه هو رديفه وتابعه (١) .

وفي هذه التعريفات صورة لتطور مفهوم البلاغين للكنائية . وقد اتضح
أن الأوائل لم يعدوها وخططوها بفنون أخرى التفت أبوابا وفصولا عند
المؤخرين ، ولكن حينما جاء عبد القاهر حدت الكناية وتبعه في ذلك المتأخرون
كالرازي والسكاكي والمزويبي وشرآح التلخيص وظل تعريف هذه الجماعة
سائما في كل ما كتب حتى الوقت الحاضر .

الكناية والمجاز :

اختلف البلاغيون في الكناية ، هل هي حقيقة أو مجاز ؟ وقد أنكر الرازي
أن تكون مجازاً وأوضح ذلك بقوله : « ويانه أن الكناية عبارة عن أن تدسم
لفظة وتفيد بمعناها معنى ثانياً هو المقصود . وإذا كانت تفيد المقصود بمعنى
اللفظ ويعب أن يكون معناه معتبراً ، وإذا كان معتبراً فما قلت اللفظة عن
موضوعها فلا يكون مجازاً . مثاله إذا قلت : « كثير الرماد » فأنت تريد أن
تجعل حقيقة كثرة الرماد دليلاً على كونه جواداً . فأنت قد استعملت هذه
الأكشاف في معانيها الأصلية . ولكن غرضك في إفادة كونه كثير الرماد معنى
ثان يلزم الأول وهو الجود . وإذا وجب في الكناية اعتبار معانيها الأصلية لم
تكن مجازاً أصلاً (٢) .

وقال العلوي : « اعلم أن أكثر علماء البيان على عادة الكناية من أنواع

(١) عزارة الأدب ص ٢٧٦ .

(٢) نهاية الإيجاز ص ١٠٣ .

المجاز خلافاً لابن الخطيب الرافعي فإنه أنكر كونها مجازاً وزعم أن الكتابة عبارة عن أن تذكر لفظة وتفيد معناها معنى ثانياً هو المقصود . فإذا كنت تفيد المقصود بمعنى اللفظ وجب أن يكون معناه معتبراً فيما تلت اللفظة اليه عن موضوعها فلا يكون مجازاً^(١) . وقال : « وهكذا اسم المجاز فإنه شامل لأقسامه من الاستعارة والكتابة والتشبيه^(٢) » .

ولم يذكر العبري الشيخ عز الدين بن عبد السلام الذي قال : « الظاهر أنها ليست بمجاز لأنك استعملت اللفظ فيما وقع له وأردت به الدلالة على غيره ولم تخرج عن أن يكون مستعملاً فيما وضع له^(٣) » .

والذي عليه معظم البلاغيين أن الكتابة من المجاز ، وقد اعتبرها كذلك ابن رشيد الذي قال : « وأما كون التشبيه داخلًا تحت المجاز ، فسلطان التشبيه في أكثر الألفاظ إنما يشاهد بالفقارة على المساهة والاصطلاح لا على الحقيقة ... وكذلك الكتابة في مثل قوله — عز وجل — إخباراً عن عيسى وعمره — غايةما السلام — : « كَلَّا يَا كِلَانِ الطَّعَامُ^(٤) » . كتابة عما يكون عنه من حاجة الإنسان^(٥) » .

وقال السكاكي إنها : « ثابتة من المجاز منزلة المركب من البند^(٦) » ولذلك نعترها عن المجاز . وفرق بينهما من وجهين :

أولهما : أن الكتابة لا تأتي بإرادة الحقيقة بلقطها فلا يمنع في قولك : « فلان طويل الجاد » أن تريد طول لجاده من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته . ولي قولك : « فلانة لزومة الضحى » أن تريد أنها تنام ضحى ، لا من

(١) الفرائد ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) الفرائد ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) البرهان في علوم الفرائد ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤) الباقية ٧٥ .

(٥) الباقية ج ١ ص ٢٦٦ .

(٦) مفتاح العلوم ص ١٤٧ .

تأويل يرتكب في ذلك مع إزادة كونها خامسة مرفهة . والمجاز يأتي ذلك فلا يصح في نحو « رعبنا الغيث » أن تريد معنى الغيث ، وفي نحو قولك : « في الحسام أسد » أن تريد معنى الأسد من غير تأويل ، وأثنى والمجاز ملزوم قرينة معاندة لأرادة الحقيقة كما عرفت . وملزوم معاندة الشيء معاندة لذلك الشيء .

والثاني : أن معنى الكتابة على الانتقال من اللازم إلى الملزوم ومعنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم ^(١) .

وكان ابن الأثير أكثر وضوحاً في معالجة هذه المسألة . واعتبر الكتابة جزءاً من الاستعارة ولا تأتي إلا على حكمها ، لأن الاستعارة لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المستعار له . وكذلك الكتابة قائماً لا تكون إلا بحيث يطوى ذكر المكتنى عنه . ونسبتها إلى الاستعارة نسبة خاص إلى عام ، فيقال : كل كتابة استعارة ، وليس كل استعارة كتابة . وفرق بينهما من وجه آخر . وهو أن الاستعارة لفظها صريح ، والصريح هو ما دل عليه ظاهر لفظه . والكتابة ضد الصريح لأنها عدول عن ظاهر اللفظ .

وهذه ثلاثة فروق :

الأول : الخصوص والعوم .

الثاني : أن لفظ الاستعارة صريح .

الثالث : الخيال على جانب الحقيقة والمجاز ^(٢) .

ويرى أن بحث الكتابة في باب الاستعارة أولى ، ولكنه أفردنا من أجل التعريض ، لأن من العادة أن يذكر جميعاً في بحث واحد .

وقد يأتي في الكلام ما يجوز أن يكون كتابة ويجوز أن يكون استعارة .

(١) مدح العلوم ص ١٩٠ . وينظر رد القردني على الفرق الثاني في الانصاح ص ٢١٩ .

(٢) المقار المستتر ج ٢ ص ١٩٧ . وينظر الطرالح ج ١ ص ٢٧٨ .

وذلك يختلف باختلاف النظر إليه بمرده والنظر إلى ما بعده ، كقول نصر بن
سبار في أبياته المشهورة التي يخرّص بها بني أمية عند خروج أبي مسلم
الخراساني :

أرى حُكْلَ الرّماذِ وميضَ جمرٍ
وَبُوشِكْ أَنْ يَكُونَ لَهُ خِرامٌ
فإنّ الدارَ بالزندانِ تسوّرُ
وإنّ الطربَ لولُها كلامٌ
أقول من العجب أيت شعري
ألفاظٌ ثَمِيّةٌ أمْ نَبَسامٌ ؟
فإنّ ههنا فذلك يقامُ مَلِكٌ
وإنّ رَمَدُوا قاتِي لا ألامُ

فالبيت الأول لو وُرِدَ بغيره كان كتابة ، لأنّه يجوز حمله على جانب
الحقيقة وحمله على جانب المجاز ، أما الحقيقة فانه أخبر أنّه رأى وميض جمر
في خلل الرماذ وأنه مضطرب . ولما المجاز فانه أراد أن هناك ابتداء شعر كاهن .
ومثله بوميض جمر من خلل الرماذ . وإذا نظرنا إلى الأبيات حملتها اختص
البيت الأول منها بالاستعارة حول الكتابة .

ويرى القروي أنّ الكتابة واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وعلى الدسوقي
ذلك فقال : « الكتابة أخرجهما بناءً على أنّها واسطة لا حقيقية ولا مجاز . أما أنّها
ليست حقيقة لأنّها — كما سبق — اللفظ المستعمل فيما وضع له ، والكتابة ليست
كذلك . وأما أنّها ليست مجازاً لأنّه الشرط فيها القرينة المانعة عن إرادة الحقيقة ،
والكتابة ليست كذلك . وغذا أخرجهما من تعريف المجاز (١) » .

ونخص السمرطني المذاهب المختلفة في الكتابة وحصرها في أربعة :

(١) « لغة الدسوقي (ترويح القاص) ج ٤ ص ٢٦ .

الأول : إنها حقيقة قاله ابن عبد السلام . وهو الظاهر . لأنها استعملت فيما وضعت له وأريد بها الدلالات على غيره .

الثاني : إنها مجاز .

الثالث : إنها لا حقيقة ولا مجاز . وإليه ذهب صاحب المخلص لما عده في المجاز أن يراد المعنى الحقيقي مع المجازي والتجريد ذاك فيها .

الرابع : وهو اختيار الشيخ تقي الدين السبكي أنها تقسم إلى حقيقة ومجاز . فإن استعمل اللفظ في معناه مراداً من لازمه المعنى أيضاً فهو حقيقة . وإن لم يرِدَ المعنى بل عبّر بالمجاز . عن اللازم فهو مجاز لاستعماله في غير ما وضع له ^(١) .

وفرى أن الكتابة مجاز . لأن اللفظ فيها لا يدل على المعنى المحدود حقيقة . وهي أخص من التشبيه بالمجاز .

أقسامها :

لم تكن للكتابة تقسيمات واضحة في أول الأمر . وليس في تقسيم المبرء ما يوضحها أو يرسم الحدود بين أقسامها بل لم يرِدَ بها الكتابة كما عرفها المتأخرون ولذلك ظلت أقسامها عند القوم تلوه تدرس في باب واحد وإن اختلفوا في الأسماء . ولكن المتأخرين قسموها وأوضحوا معالم كل قسم . وعندنا تقسيمان واضحان هما : قسم ابن الأثير ، وقسم السكاكي ومن سار على نهجه .

أما ابن الأثير فقد قسمها في كتابه « الجامع الكبير » ^(٢) إلى أربعة أقسام :

الأول : التعليل . وهو التشبيه على سبيل الكتابة . وذلك أن تُراد الإشارة

(١) الأندلس ج ٢ ص ٤١ .

(٢) الجامع الكبير ص ١٥٧ وما بعدها .

أن معنى فتوضع ألفاظ تدلّ على معنى آخر ، وتكون تلك الألفاظ وذلك المعنى مثلاً للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه ، مثل : « فلان لقي الثوب » أي : منزله عن العيوب . ومن يدبج التمثيل قوله تعالى : « أَيْسِبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْنَاهُ ^(١) » ، فتمثل الاغتيا بأكلي لحم انسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله لحم الأخ ، ولم يقتصر على الأخ حتى جعله ميتاً ، ثم جعل ما هو الغاية من الكراهية موصولاً بالحية . وهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله ، فشدّيد المناسبة جداً .

ومنه قوله : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ^(٢) » . فتمثل البخل بأحسن تمثيل ، لأن البخل لا يمدّ يده بالعطية كالملغول الذي لا يستطيع أن يمدّ يده ، وإنما قال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك » ولم يقل : « ولا تجعل يدك مغلولة » من غير العنق ، لأنه قال : « ولا تبسطها كل البسط » فكانت أراد : « ولا تجعل يدك مغلولة كل الغل ولا تبسطها كل البسط » ، فتاب ذكر العنق عن قوله : « كل الغل » ، لأن قل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة بفعل اليد إليها .

ومن التمثيل قوله ابن الدعيّة :

يُسَيِّئُ أَيُّ يَسْنَى إِلَيْكَ جَعَلَنِي

فَأَفْرَحُ أَمْ حَيَّرَنِي فِي شَيْءٍ لَيْسَ ؟

فذكر السنين وجعلها مثلاً لأكرام المترلة ، وذكر الشمال وجعلها مثلاً لغرور المترلة ، لأنّ اليمن أشرف منزلة من الشمال أو أكرم محلاً .

الثاني : الإزداد ، وأكثر علماء البيان أدخلوه في التمثيل مع أن بينهم

(١) الضميرات ١٢ .

(٢) الزمراء ١٩ .

فرقا . فالأشيل فهو أن تُراد الإشارة إلى معنى فتعني الألفاظ الدالة على معنى آخر وتكون تلك الألفاظ وتلك المعنى مثالا للمعنى الذي قصدت الإشارة إليه والعبارة عنه مثل : « فلان نقي الثوب » أي : مثاره عن العيوب . وأما الأزداف فهو أن تُراد الإشارة إلى معنى فيترك اللفظ الدال عليه ويؤتى بما هو دليل عليه ومرادف مثل : « فلان طويل النجاد » . والمراد به طول القامة . إلا أنه لم يتلفظ بشول القامة الذي هو الغرض . ولكن ذكر ما هو دليل على طول القامة ، وليس نقاد الثوب دليلا على النزاهة عن العيوب وإنما هو تحييل لها .

ومنه قول بعضهم :

وددتُ وما تعني الردادة أنسي
بما في ضمير الخافية عسالم
فإن كان غيراً مَرَّتِي وحسبته
وإن كان شرّاً لم تُلني الدوائم

فإن المراد من قوله : « لم تلني المرائم » : أي أهجرها . فأصرب عن ذلك جانباً ولم يذكر اللفظ المختص به . ولكنه ذكر ما هو دليل عليه وردف له .

الثالث : المجاورة ، وهي أن يريد المتكلم ذكر شيء فيترك ذكره جانباً إلى ما جاوره فيقتصر عليه بدلالته على المعنى المقصود كقول عنزة :

وشككتُ بالرمح الأصم ثيابه
ليس الكريم على القسا يحترم

أراد بالثياب هنا نفسه لأنه وصف المشكوك بالكريم ولا توصف الثياب به ، فثبت حينئذ أنه أراد ما تشتمل عليه الثياب . وفي ذلك من الحسن ما لا ينكره العارف بهذه الصناعة .

الرابع : الكتابة التي ليست تحيلاً ولا إدافاً ولا مجاورة . كقوله تعالى :

« أَوْ مَنْ يَنْتَشِئُ فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ »^(١) ، فكشَى عن النساء أنهم يتزيتون في الخلقة أي الزينة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى محاورة الخصوم كان غير مبين .

ومنه قول أبي نواس :

تقولُ التي من بيتها خفٌ منحملي
عزيرُ علينا أن نراكُ تسيرُ

فكشَى عن امرأته بقوله : « التي من بيتها خفٌ محملي » .

ولكن ابن الأثير نفسه ذكر في « المثل السائر » أن هذا التقسيم غير صحيح ، لأن من شرط التقسيم أن يكون كل قسم منه مختصاً بصفة خاصة تفصله عن عموم الأصل مثل : « الحيوان ينقسم أقساماً منها الإنسان وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الأسد وحقيقته كذا وكذا ، ومنها الفرس وحقيقته كذا وكذا ، ومنها غير ذلك » ، وههنا لم يكن التقسيم كذلك^(٢) .

ولذلك فالكتابة عنده قسمان : ما يحسن استعماله ، وما لا يحسن استعماله وهو عيب في الكلام فالحش^(٣) . ويبدو أنه بعد أن قسم الكتابة الحسنة إلى أربعة أقسام في كتابه « الجامع الكبير » عاد فالتكر هذا التقسيم الذي نقله عن السابقين ورد عليهم ، واكتفى بتقسيم الكتابة إلى ما تحسن وإلى ما لا تحسن وذكر الأمثلة التي توضح هذين القسمين . وبذلك قلل الأقسام التي أهم بها البلاغيون كثيراً وأسرفوا فيها أينما أسراف .

وأما السكاكي ومن سار على نهجه فقد قسموها إلى ثلاثة أقسام تختلف عن تقسيم السابقين ، وهذه الأقسام هي^(٤) :

(١) الأعراف ١٨ .

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٦٠٠ .

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ١٩٩ .

(٤) ينظر برنامج العلوم ص ١٦٠ ، والأبصار ص ٣١٩ .

الأول : الكتابة المقارن ، بالفتح الموحدة ، وهي قرينة ويعنيده ، وقال
الغزيرة قول الشاعر كتابة عن القلب :

الداريون بكل أبيض حلسه

ولله أبيض حلسه

و : جمع الأضداد ، كتابة عن المقارن .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

و : كتابة عن الجعري .

(١) الأضداد ، المقارن ، المقارن .

وقول الآخر :

وعدت لها في - رضى الخيل من عيلة

فأنا كالميلال الرقيق من شدة ديسر

و - رضى الخيل « كناية عن السدور .

أما الكناية لعدة فهي أن يتكاثرت التكاثم الخاصة بها وأن يضم أن لازم
لأمرها أمر وأمر آخر حتى يكثر مجزعا ومثليا مادام من داخل كل ما عسدا
والضموم . « كأن يكون في الكناية عن الفاسد : « حتى يصيرى العامة عريض
الامتداد » .

الثاني : الكناية المضاربة بها نفس الصفة . وهي كالأول قريبة وبعيدة .
والقريبة مثل : « فلان ضويل الشجاع » أي « ضويل القاعة » . و « فلان كئيب
أصباغ » أي : « ضويل كرم » . و « خرصاء الأساور » أي « صينة » .

ومن هذا القسم قول طرفة :

أما الرجل القدرم الذي تعرفناه

مخشاش كرامر أخيك الشوقسدر

وقد كنى في هذا البيت عن ساذجة جسده وبخله حسه ومعنى رأيه وطرفه
لهذه وذلكه .

وقول الآخر :

وكنت على الأعتاب تدمي كعجنا

وأكن عن أقدامنا قلصم الداسا

وهنا كناية عن الشجاعة . لأن الشجاع يواجه العدو فيضرب من قدام
ولذلك قلصم الدماء على قدميه . في حين يضرب الجبال حين يمر على قفاه
والثالث تسيل الدماء على عثره .

وبالغ النافعة في وصف عن المرأة بالعلول فقال :

إذا ارتفعتْ خافتُ الجبانُ ارتعاشها

ومن يتعلَّنْ حُرْتُ علتسُق يفرق

فجعل القرمح يخاف أن يسقط من هناك فيهاك .

أما الكتابة البعيدة فهي الانتقال إلى المطاوع من لازم بعيد بواسطة أوزام متسلسلة كقول نصيب :

لعبس العزير على قومه وخيريه منسِنٌ طاهره

فبأبلك شهلُ أبوابهم ودارك مأهولةٌ عامره

وكأبلك آسر بالثرزين من الأمْ يابنتها الراسره

فإنه انتقل من وصف كآله بما ذكر أن الرثرزين معارف عنده . ومن ذلك أن اتصال مشاهدتهم ليلاً ونهاراً . ومنها أن لزومهم بابه . ومنها أن وفور إحسانه . وهو المقصود .

ومنه قول المتنبي كتابة عن الكذب :

لشككي ما اشكتك من ألم الشوق

في إليها والشوق حُبْتُ النحول

ويحتاج الوصول إلى المعنى إلى عدة تنقلات . فالشوق يبيع المحب ويبيع في نفسه الألم . وهذا يحرمه من النوم . ويمنعه من الأكل . وهذا يؤدي إلى النحول والمرض .

الثالث : الكتابة التي يطلب بها تخصيص الصاعه بالموصوف وهي الكتابة عن نسبة . ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه ، أو كما قال ابن الزملاكي : « أن يأتي المراد منسوباً أن أمر يشتمل عليه من هي له حقيقة ^(١) » .

(١) أي هذا من ١٠٤ . والوجهان من ٢٨ .

ومن هنا الضرب قول زباد الأعجم :

إنَّ السَّاحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّسْدَى

في قبسة ضربت على ابن الحشر

فانه أراد أن يثبت اختصاص ابن الحشر بهذه الصفات أي ثبوتها له ،
وأراد أن لا يصرح بالبات هذه الصفات له فجعله في قبة وجعلها مضروبة عليه
فأفاد إلبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ومنه قول الشُّنْفَرِي في وصف امرأة بالعبقة :

بيتٌ بمنجافٍ عن النورِ بيتُها

إذا مسا بيوتٍ باللامِ حنَّتْ

وقول حسان بن ثابت :

بني المجدُ بيتاً فاستقرتْ عمادُه

عليها فأعياها الناسُ أنْ يتحولوا

وقول الآخر :

اليُسُوسُ يتبعُ ظلُّه والمجدُ يمشي في ركابه

وقول أبي نواس :

فمسا جلالةُ جودٍ ولا حُلٌّ دونه

ولكنْ بصيرُ الجودِ حيثْ بصيرُ

وقول المتنبي :

إنَّ في ثوبك الذي المجدُ فيه

لقبياءٍ يَبْزُرِي بكلَّ ضياءٍ

وليس عند المكاكي غير هذه الأقسام الثلاثة لذلك قال : « وقد بطن أن

هنا قسماً رابعاً، وهو أن يكون المطلوب بالكثرة الراسخ والتعريض معاً مثل ما يقال : « يكثر الرماد في صحراء مصر » في الكثافة عن أن « عمراً غريباً » فليس بذلك إذ ليس ما ذكر بكثافة واحدة ، بل هما كثافتان والتقال من لازم أن « مازووين » أحد الأسماء كثرة الرماد والتي تعيدنا مرة قرات : « في صحراء مصر »^(١).

وهذه الأقسام هي ما ذكره عبد القادر^(٢) غير أنه لم يحددوا تعديداً دقيقاً لم يتصل الأمثلة فضلاً عما ، ولكنه مع ذلك يمتد قول من حدد التواتر الكثافة هذا التعديل الذي أوضح معاملة السكاكي والمتشعرون .

وإذا ربطت بحث (كثافة) التعريض .

التعريض :

التعريض خلاف التعريض . يقال : « عرضت اللسان في الكلام » ، إذا قلت قولاً وأنت تعزبه ، واشتداده من قولك : « عرض له كذا » ، إذا عارضه ، لأن الواحد قد يعرض له أمر خلاف التعريض فيؤثرو ويقصد به .

وقد استعمل العرب هذا الفعل في كلامهم كثيراً وذلك حينما كانوا لا يريدون للكشفة في كل شيء فيصلون بهذا القول إلى ما هم ألقاه وأحد من الكتاب التعريض . بل كلمة يعيدون الوجه إلى كلمة يكاشفون في كل شيء^(٣) .

وقول الجاهلون ولقد كان الكثرة بالتعريض . « ذلك لأن الكثرة تشعب إلى

(١) مفتاح العلوم ص ٤٣ .

(٢) نظر دكتور الأخصار ص ٢٢٦ ، إيضاح دكتور الأخصار ص ٢٢٦ ، وفيه الشعر آخره في ص ١٥٧ وما بعده .

(٣) الشعر الأخير مشكور الترتيب ص ٢٠٤ .

أقسام . قال السكاكي : « متى كانت الكتابة عريفية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسبا . وإذا لم تكن كذلك نظر فإن كانت ذات مسافة بينها وبين المكتفي عنه عليها لم يمتد لرمزها كفا في « كثير الرماد » وأشباهه كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسبا . لأن « الخرج » هو أن تشير إلى شيء من يده . وإن كانت ذات مسافة قريبة مع خروج من الخفاء كـ « عريض القفا » و « عريض الوسادة » كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسبا . لأن « الرمز » هو أن تشير إلى قريب منك من سبيل الخفية . قال :

وذكرت أن « محمدا » من يتعلها

من غير أن يُبدي هناك كلامها

وإن كانت لا مَنَعَ نوع الخفاء كقول أبي تمام :

تَبَيَّنَ مَسَا يَتْرُكُ سِرِّي كَرِيمٍ

وحبك أن يترُك أبا مكبر

قاله في إفادة أن « تبيَّن » كرم غير خفاء . كان إطلاق اسم الأجزاء والاشارة عليها مناسبا^(١) .

ومع ذلك أن الكتابة باسم التعريض والتعريض والرمز والإيماء والاشارة . وهو ما يشبه بعض البلاغيين في قبول مستقلة ولائمة أصحاب التلميحات أو المناسبات كـ « اعتبار معاني الأسماء » كان في الاصراع المصري .

وكان ابن رشيق من أوائل الذين اتصلوا بين الكتابة والتعريض حيثما جعلها من أنواع الاشارة وباعدها بينهما في الأمثلة التي ضربها . قال وهو يمدح عن الاشارة : « ومن أقرادها التعريض كقول كعب بن زهير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

(١) مادح الخدم من ١٩٥ .

في قيسية من قريش قال قائلهم
يطير مكنة لما أسكفوا زولسوا

تعريض بمعنى الخطاب . وقيل بأي بكر الصديق . رضي الله عنهما .
قيل يرصد الله صلابته عليه وسلم . تعريض منح . ثم قال :

المجال من التعريض
عُرب إذا عرد السود التنايل

في هذا البيت بالنصار . فغضبت الأنصار (١) .

وقد مر من قبل أن هذا الخلط وفصل بين المتن . ابن الأثير الذي
قال : في هذا البيت من جهة التعريض قد خلطوا الكتابة بالتعريض ولم
يعرفوا بينهما ولا جعلوا كلا منهما بعد يفصله عن صاحبه بل أوردوا لها أمثلة
من التلمذ والنحو وخلطوا أحدهما في الآخر فذكروا للكتابة أمثلة من التعريض
وللتعريض أمثلة من الكتابة . فمعنى فعل ذلك الغائي وابن سنال الخفاحي
والعسكري (٢) .

وعرف التعريض بقوله : هو اللفظ آتال على الشيء من طريق المفهوم لا
بالوضع الحقيقي ولا المجازي (٣) .

والتعريض أخفى من الكتابة : لأن دلالة الكتابة لفظية وضعية من جهة
المجاز . ودلالة التعريض من جهة المفهوم لا الوضع الحقيقي ولا المجازي .
ومما جاء منه قوله تعالى : « قَالُوا : أَأَتَتْكُمْ مَعَلَّتْ هَذَا بَالِهَتُنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ »
قال : بل فعلته كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون (٤) .

(١) الصدوق ١ ص ٢٠٢ .

(٢) النخل السراج ٢ ص ١٩١ .

(٣) النخل السراج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) الأبيات ٦٢ و ٦٣ .

وخرس إبراهيم - عليه السلام - من هذا الكلام إقامة الخبة عليهم . وذلك على سبيل الاستهزاء . وهذا من رموز الكلام .

وقوله تعالى : « فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا تَبْشُرَ آمِثَلْنَا وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَنْبَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْبَارِي الرَّايِ ، وَمَا تَرَاكَ إِلَّا تَكُفُّمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِي بَلْ نَقْصِبْكُمْ كَذَابِينَ لَأَيُّهَا » . فقوله : « ما تراك إلا بشراً مثلاً » تعريض بأنهم أئمن بالنبوة منه ، وإن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم .
ومن أمثله قول الشاعر :

بني عتسما لا تذكروا الشعرَ بعدما
دَقَنْتُمْ بِصحراء الغنمِ القوافيَا

فليس قصده ما قال الأبيات الشعرية . ولكنه قصد تعريفهم بما كان جرى في ذلك الموضع من الظهور عليهم والقتل لأشرافهم : فذكر الشعر وجعله تعريضاً . أي : لا تظنوا بعد تلك الواقعة .

ولا يرد التعريض في الكلم المفردة . وإنما يكون موقعه في الجمل والألفاظ المركبة . والسبب في ذلك هو أن دلالة على ما يدل عليه لم يكن من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز فيجوز وروده في الألفاظ المفردة والمركبة كما جاز في الخفائض والمجازات .

فالفرق بينه وبين الكناية من ثلاثة أوجه :

أولها : أن الكناية واقعة في المجاز ومعدودة منه بخلاف التعريض فلا يعد منه . وذلك من أجل أن التعريض يفهم من جهة القربة فلا تعلق له باللفظ لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه .

وثالثها : ان الكناية كما تقع في المفرد فقد تكررت واحدة في المركب . بخلاف التعريض فإنه لا موقع له في باب اللفظ المفرد .

ورابعها : ان التعريض أخفى من الكناية ، لأن دلالة الكناية مدلول عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز بخلاف التعريض فإنه دلالة من جهة الفريسة والأشارة . ولا شك أن كل ما كان اللفظ يدل عليه فهو أوضح مما لا يدل على اللفظ وإن علم بدلالة أخرى (١) .

وبذلك الفصل الثاني وأصبح لكل منهما تعريفه وأمثله فإن قيل يظهر البلاغين المتكلمين يتسعون بينهما .

ووجه حسن التعريض ظاهر ، لأنه يتضمن إعلال السامع على ضرورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب الشكر . ولذلك قالوا عنه إنه : أعلى في محاسن الأملاني . وأقرب لقبول وأدعى لتأريض (٢) .

بلاغة الكناية :

الكناية أحد الأقناب التي تدور البلاغة عليها ، اعتمادا على تعدد الدلالة بها . وهي أبغ من الانصاح في كثير من المواضع ، لأنها تزيد في الباطن المعنى فتجعله أبلغ وأكثر وأشد . قال عبد القاهر : « فليست المزية في قولهم : « جو أرماذ » أنه دل على قبح أكثر بل لأنه أنك أنت له أقبح الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبه إيضا » (٣) . وأدعيته دعوى أنك بها أفضل ويصححها أوتق (٤) . وقال : « أمّا الكناية فإن السبب في أن كان للاتيات بها مزية لا يكون للمصريح أن كل عاقل يعلم . إذا رجع إلى نفسه . أن الباطن الصفة بالبات عليها وإيجابا ما هو شائد في وجهها . أكند وأبلغ في الدعوى من أن

(١) ينظر إلى أسطر ٢ ص ١٩٥ . والعراق ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) كبرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٦ .

وإن كان القصد منه إثبات الجود والمجد للمدح فانه لا يصح أن يقال انه نظير بيت زياد :

إنَّ السَّامِحَةَ والمَرْوَةَ والنَّدَى
فِي قُبَّتِهِ قُضِرَتْ عَلَى ابْنِ الْخَنْزَرِ

كما يقال في بيت أبي نواس :

فمسا جازه جُودٌ ولا حِلَّ دونه
ولكنَّ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ

كما انه لا يجوز أن يجعل قوله :

وكذلك ألس بالثرين من الأم بالانسق الزاثره

نظير لقوله :

ومسا بك في من عيب فساني
جبان الكلب مهزول الفصيل

وإن كان الغرض منهما جميعاً الوصف بالفقر والضيافة وكاتا جميعاً كتابتين عن معنى واحد ، لأن تعاقب الكتابات على المعنى الواحد لا يوجب تناسبها . وقد يجتمع في البيت الواحد كتابتان المفزى منهما شيء واحد ثم لا تكون إحداها في حكم النظر للأخرى ، مثال ذلك أنه لا يكون قوله : « جبان الكلب » نظير لقوله : « مهزول الفصيل » بل كل واحدة من هاتين الكتابتين أصل بنفسه وجنس على حدة ، وكذلك قول ابن هُرْمَةَ :

لا أمتع العوداً بالقصا ولا أبتاع إلا قرية الأجل

ليس إحدى كتابتيه — وهما الكناية عن حرمان الولادات من أولادها ، وشراء ما يقرب أجلها أي بالشراء للذبح — في حكم النظر للأخرى

وإن كان المكنى بهما عنه واحدا^(١).

وليس في كتب البلاغة المتأخرة أروع من هذا التعليل ، وكل ما فعله السكاكي والقزويني وشرّح التلخيص أنهم رتبوا ما في « دلائل الإعجاز » وقسموا الكناية إلى أقسامها الثلاثة واختصروا أمثلته وعلة حسنها وتأثيرها . ولبيّتهم وقفوا عندما ذكره عبد القاهر ونقلوه نقلاً صحيحاً وأما اختصروه وأصبحت العلة في بلاغة الكناية الانفعال من اللزوم إلى ملزوم معين ومعلوم ، وإن حالها « كحال المجاز في كون الشيء معها مدعى ببيّنة » ومع الإفصاح بالذكر مدعى لا ببيّنة^(٢) ، ونخلص الركني أسباب الكناية بما يأتي^(٣) :

- ١ - التنبيه على عظم القدرة - كقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ »^(٤) ، كناية عن آدم - عليه السلام - .
- ٢ - فطنة المخاطب - كقوله تعالى في قصة داود : « خَصَمَانِ يَتَغَيَّبُ يَعْصِمُنَا عَلَى بَعْضِهِ »^(٥) ، فكنى داود بخصم على لسان ملكين . وقوله في قصة النبي - صلى الله عليه وسلم - وزيد : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ »^(٦) ، أي : زيد .
- ٣ - ترك اللفظ على ما هو أجمل منه كقوله تعالى : « إِنَّ هَذَا لَعِجْبٌ لَهُ يَسْعُ وَيَسْعُونَ فَعَجَةٌ وَلِيَّ نَعِجَةٍ وَاحِدَةٌ »^(٧) ، فكنى بالنعجة عن المرأة .

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٩٥ ، وينظر الإفصاح ص ٣٢٩ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٠١ وما بعدها .

(٤) الأعراف ١٨٩ .

(٥) سورة ص ٢٢ .

(٦) الأحزاب ٤٠ .

(٧) سورة ص ٢٣ .

٤ - أن ينعش الذمير في السمع فيمكنه عندئذ أن يسمع منه الحاج "كقوله تعالى :
 "وَلَا تَمْنُوا بِالْعَنَاءِ وَتَمْنُوا كَيْدًا"^{١٢١} ، أي كنوا عن الغفلة (والتورود) و
 على صيغته .

٥ - تحزين القلب . كقوله تعالى : "وَيُحْزِنُكَ انْكَسَارُكَ"^{١٢٢} ، أي من انكسارك عن
 الدنيا .

٦ - قهره بالظلم . كقوله تعالى : "أَرَأَيْتَ إِنْ بَدَّلْنَا فِي الْخَلْقِ الْوَسْوَآتِ
 الْأُخْرَىٰ" ^{١٢٣} ، أي تلك الوجوه التي هي عن الله وأمره ببدلته
 في الخلق .

٧ - قصد القاطعة في التشيع . كقوله تعالى : "وَلَا تَتَّبِعِ الْيَهُودَ" : يندأ بقر
 "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ"^{١٢٤} ، أي القاطعة كقوله في الرجال : "وَقَرَأَ : "عَلَىٰ بَدَأَ
 مَبْنًى" ^{١٢٥} ، أي كقوله من كرهه .

٨ - التذلل على صغيره . كقوله تعالى : "تَوَسَّلْ بِمَا هِيَ بَيْنُ يَدَيْهِ"^{١٢٦} ، أي :
 "توسل به بين يدي القريب" ، وقوله : "حَسْبُكَ اللَّهُ الْخَلْقُ"^{١٢٧} ، أي تخلفه
 وصغيره إلى أن تكون حجة على الخلق .

٩ - الاعتذار . ومنه الكتابة من أعمال متعددة بلغة . مثل : كقوله تعالى :
 "تَوَسَّلْ بِهَا" كاتلوا بكتبكم يكون"^{١٢٨} .

-
- (١) الفرقان ١٢٢ .
 (٢) شعراء ٤٩ .
 (٣) الزمر ١٠ .
 (٤) الحديد ٦٤ .
 (٥) الأنعام ٦٤ .
 (٦) البقرة ١٠ .
 (٧) البقرة ٢٠ .
 (٨) البقرة ١٧٨ .

١٠ - أن يحدد أن جسمه وردت على عاتق المأمور فأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالخطيئة أو الجواز فغير بها من المقصود ، كثرة تعالى : « الرحمن على العرش استوى »^(١٠) . فانه كتابة عن التأمل .

والكتابة باب رابع ، ونسبته لابن عبد القادر : « وليس لشعب هذا الأصل ورواه وأصله وصوره وطرقه ومساكنه حاداً ونهاية »^(١١) . وبذلك فتح الطريق أمام المارسل وإن كان المعاصرون لم يأثروا بتجديده إلا ربط الكتابة بتداعي المعاني^(١٢) . أو ربطها بأساليب الزمر الحديثة . وفي ذلك بعض التكلف أن جانب أن المسألة لا ينظر إليها بهذه السهولة . لأن الأمر لا يتعلق بالتطبيق بين التاميم والمجديدين وإنما يحتاج إلى دراسة في ضوء التقادير الحديث . يظهر التلامم ويوضح الفرق بين المشرق .

(١٠) طه .

(١١) رسائل التاج من ٢٤٠ .

(١٢) انظر دراسات في علم النفس الحديث ص ٤٦ .

قائمة

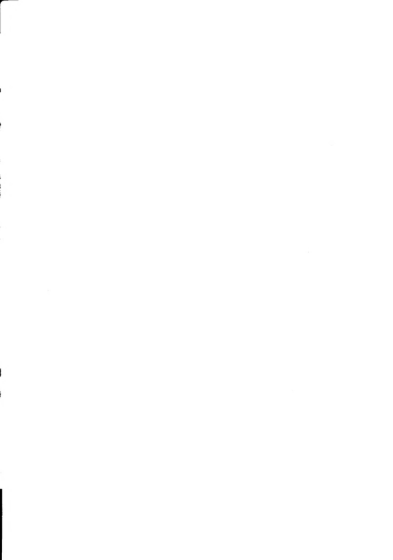
الاسماء

التي وردت في

الكتاب

البَدِيع

الكتاب الثاني



الفصل الأول البديع

- ٩ -

في اللغة :

جاء في لسان العرب : « بدع الشيء يبدعه بدءاً وابتدعه : أنشأه وبدأه . وبدع الركبة : استنيطها وأخذتها . وركي بديع : حذيفة الحفر . والبديع والبدع : الشيء الذي يكون أولاً . وفي التنزيل : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ »^(١) أي : ما كنت أول مَنْ أُرسل . قد أُرسل قبلي رسل كثير . والبدعة : الحدث وكل محدثة . والبديع : المحدث العجيب . والبديع : البدع . وابتدعت الشيء : اخترعته لا على مثال . والبديع : من أسماء الله تعالى لا بداعه الأشياء وإحداثه إياها . وهو البديع الأول قبل كل شيء . وسقاه بديع : جنيد . وكذلك زعماء بديع .

وأشدد ابن الأعرابي لأبي محمد الفقير :

(١) الاعتدال ٩ .

تَصَحُّنٌ مَاءَ الْبَدَنِ الْمَرِي
تَصْنُوعُ الْبَدَنِ الْعِنَقُ الْمَصْفُورُ

وحمل يابغ : جديد ، واليدبع : المتفرع والمتداع ، وأبدع الشيء : جاء بالبدع ٩ .

ولا يفرح معنى كلمة « البدع » في المعاجم الأخرى عن معنى الجدة والبراعة وهي من الألفاظ التي وردت في الشعر القديم فقال عدي بن زيد :

فلا أما بدع من حوادث تعري
رجلاً غدت من بعد يؤس بأسعد

وفي القرآن الكريم قوله تعالى : « بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »^(١) ، وقوله : « بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ، وَتَخْلُقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ »^(٢) .

المصطلح :

أما مصطلح « البدع » بمعناه الفني فقد ذكر الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) أن الرواة أول من أطلقه على المستطوف الجديد من القنن الشعرية وعلى بعض الصور البيانية التي يأتي بها الشعراء في أشعارهم فتزيدنا حسنا وجمالا . قال معلقا على بيت الأشهب بن زميلة :

هَمْ سَاعِدُ الدَّعْرِ الَّذِي يَشْكِي بِهِ
وَمَا خَيْرَ كَفِّ لَا تَنُوءُ بِسَاعِدِ

« قوله : « هم ساعد الدعر » إنما هو مثل . وهذا الذي تسميه الرواة

(١) البقرة : ١١٢ .

(٢) البقرة : ٢٥٥ .

البدیع ^(١) . لكن أبا الفرج الأصفهاني ذكر أن الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (٢٠٨ هـ) كان أول من أطلق هذا المصطلح ، يقول : « وهو فيما زعموا أول من قال الشعر المعروف بالبدیع . وهو لقب هذا الجنس البدیع والمطيف ، وثبته فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائي فإنه جعل شعره كله مدحيا واحداً فيه ^(٢) » .

ودفع الملاحظ غلوه في حب العرب والرد على الشعوبية إلى أن يقول : « والبدیع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأريت على كل لسان ^(٣) » .

وكان المولودون من شعراء العصر العباسي قد أكثروا في أشعارهم من العصور البيانية التي سميت « البدیع » . فكلثوم بن عمرو يذهب بشعره هذا المنهج وتبعه كثير من الشعراء كمنصور النمري ومسلم بن الوليد . يقول الملاحظ : « ومن الخطباء الشعراء . ممن كان يجمع الخطابة والشعر البعيد والرسائل الفاعرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتاني وكثيره أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البدیع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشياهما . وكان العتاني يحتذي حلوه بشار في البدیع . ولم يكن من المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هريرة ^(٤) » . ويقول : « والراعي كثير البدیع في شعره ، وبشار حسن البدیع ، والعتاني يذهب شعره في البدیع ^(٥) » .

وهذه ظاهرة ليست غريبة بعد أن نخرج العرب من جزيرتهم وانصافوا بالأمم ، ودخلت ألوف مجتمعاتهم الخديج وتأقروا في حياتهم . وكان لا بد من أن

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) الأملاني ج ١٩ ص ٢١ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٥١ .

(٤) البيان ج ١ ص ٥٦ .

(٥) البيان ج ٤ ص ٥٦ .

يصطف أديبهم بهذه الصيغة البديلة وأن يكثر الشعراء من البديع . وقد حمل
 لبواء هذا الاتجاه بشار وابن هزّمة ومسلم بن الوليد وأبو تمام . وشاع هذا اللون
 في الأدب ولجّ المولودون في اصطناعه وتباهوا بأنهم السباقون إليه لما حدا
 بالخلقة العباسي الشاعر عبد الله بن المعتز (- ٢٩٦ هـ) أن يقول : « كتاب
 البديع » ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأنا نواس ومن قبلهم^(١) . وسلك سبيلهم لم
 يسبقوا إلى هذا الفن . ولكن كثّر في أشعارهم تعرف في زمانهم حتى سمي بهذا
 الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه . ويعرف أن المحدثين لم يسبقوا المتقلعين إلى
 شيء من أبواب البديع . يقول : « ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم
 شغف به حتى غلب عليه ونفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء
 في بعض . وتلك عظمي الافراط ونمرة الاسراف . وإنما كان يقول الشاعر من
 هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شيء أحدهم قصائد من غير
 أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً . ويزداد
 حقوة بين الكلام المرسل^(٢) » .

الملاحظ :

ولعل الملاحظ كان أول من اعتنى بالبديع وصوره وأطلقه على فنون
 البلاغة المختلفة . وتعليقه على بيت الأشهب بن زميلة يؤيد ذلك حيث سمى
 الاستعارة بديعاً . ولكنه لم يعرفه أو يشير إلى فنونه بل كان يعلق هذا المصطلح
 إطلاقاً فيقول مثلاً : « وقطعة من البديع قوله :

إذا حدها صاصي ورجعاً وصاح في كسارها فأسمعها
 يتبع منهنّ جلّالا أناعها أدمك في ماء المهاوي منقعا^(٣)
 وقال الراجز في البديع المحمود :

(١) تليهم : حاكمهم .

(٢) البديع من : .

(٣) الجلال - الناعم - العظم - الناعم - العويل - العنق .

قد كنت إذ حبَّلتُ صباك مُدْمَسٌ^(١)
 وإذا أعاصيبُ الشبابِ تَبَعَّشُ^(٢)
 ومن هذا البديع المستحسن قول حجر بن خالد بن ورد :
 سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجسد^(٣)
 كفعل أبي قابوس حُرماً وثاليلاً^(٤)
 يساق الغمامُ الغرُّ من كسلِ بلدة^(٥)
 اليك فأعصى حولُ بيتك فلزلاً^(٦)

وليس في هذه العبارات ما يوضح رأيي بالمحافظ . وهو يذهب في البديع
 مذهبه معاصريه من أدخل الاستعارة والعلاق والجناس والتورية وتشبيهاً والكتابة
 في أبياته . وإذا نظرنا إلى البديع هذه النظرة الواسعة رأينا كثيراً من فنونه في كتبه .

ابن المعتز :

وكان ابن المعتز ينظر إليه هذه النظرة أيضاً . وقد ألف « البديع » ليرد ما
 ذهب إليه معاصروه من أن هذا الفن طارئ . وأن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن
 تبعهم لم يسبقوا إليه . ولكني يبرهن على ذلك قدّم في أبواب كتابه أمثلة منه .
 يقول في المقدمة : « وقد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدناه في
 القرآن والفقهاء وأحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكلام الصحابة
 والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثسون
 البديع^(١) » .

والبديع عنده خمسة أنواع : الاستعارة . والجناس . والعلاق . ورد

(١) مدحى : مدح . الأعصوبة : الدقة من النظر . العجر : العقب ما بين الشاة . وقد كنى بقوله

عن قوة الشباب وقوته وره .

(٢) أبو قابوس : كناية عن كسل .

(٣) الثوبان : ٣ من ٥٧ - ٥٨ .

(٤) البديع من ٥ .

أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي . وقد قال بعد أن تكلم عليها :
 « قد قدمنا أبواب البديع الخمسة وكل عندنا . وكأني بالمعاند انفرم بالاعتراض
 على الفضائل قد قال : « البديع أكثر من هذا » . وقال : « البديع باب أو
 بابان » من القنون الخمسة التي قدمناها فيقبل من يحكم عليه . لأن البديع اسم
 موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم . فأما العلماء
 باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو . وما جمع فنون
 البديع ولا سبقني إليه أحد » . ثم قال : « ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام
 والشعر ، ومحاسنها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدعي الإحاطة بها حتى يتبرأ
 من شلوة بعضها عن علمه وذكره . وأحيانا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا
 للمتأدبين ويعلم الناظر أننا اقتصرنا بالبديع على القنون الخمسة اختياراً من غير
 جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة فمن أحب أن يتقدي بنا ويقتصر بالبديع على
 الخمسة فليعمل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع ألزم
 باباً غير رأينا فله اختياره ^(١) » .

ومحاسن الكلام والشعر التي ذكرها ثلاثة عشر . وهي : الالفاظ ،
 والاعتراض ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيده المدح بما يشبه المم ،
 وتجاهل العارف ، والمزول الذي يراد به الجدل ، وحسن التضمين ، والتعريض
 والكتابة . والاقتران في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعانات الشاعر نفسه في
 القواني ، وحسن الإبداعات .

والبديع كما تشير إليه هذه الفنون يشمل موضوعات البلاغة المختلفة .
 ومعنى ذلك أن هذا المصطلح كان ذا دلالة واسعة في القرن الثالث للهجرة .

قدامة :

وعاصره قدامة بن جعفر (— ٣٣٧ هـ) . وجمع من البديع أنواعاً كثيرة
 بعضها مما ذكره ابن المعتز وبعضها جديد كالنظم ، والترصيع ، والمقابلات .
 والتفسير ، والسلاوة ، والاشارة ، والشلال اللفظ مع الوزن ، والتشليل ،

(١) "بديع" ص ٥٧ - ٥٨ .

والتوضيح . والأيصال . والتلاصق للشيء مع الوزن . والتلاصق القافية . والإرداف^(١) . ولم يستعملها بدعها . وإنما هي من محاسن الكلام وتعبيره .

العسكري :

وعقد أبو هلال العسكري (- ٣٩٥ هـ) الباب التاسع من « كتاب الصنائع » للشرح البدعي . وهو عنده مختلف الصور البيانية كالاستعارة والمجاز والطائفة والتجنيس . وصور البدع خمس وثلاثون . وقد قال عنها : « فهذه أنواع البدع التي أدعى من لا روية له ولا فداية عنده أن المحدثين ابتكروها وإن القدماء لم يعرفوها وقتل لما أراد أن ينظم أمر المحدثين » لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبريء من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الخردة^(٢) . « وزاد سبعة قنون هي : التشطير . والمجاورة . والتطويز . والمضاعفة . والاستشهاد . والتلطيف والتشبيك^(٣) .

القاضي الخرجاني :

ولم يهتم القاضي الخرجاني (- ٣٩٢ هـ) بألوان البدع . ولم يذكر منها إلا قدرًا قليلًا . وقد أشار إلى أن المحدثين سموا الاستعارة والمطابقة والجناس وغيرها بدعها . وقال : « وقد كان يقع ذلك في خلال قصائدنا ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعدد وقصد . فلما أغشى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن . وتميزها عن أخبارنا في الرشاقة واللفظ تكلفوا الاحتذاء

(١) لغة جديدة قديمة ينظر : « اللغة » لغوي وأدبي ص ٩٢ . وقوله بن يعقوب والنفق الأدبي ص ٣٧٠ . وأبيات العربي ص ١٤٤ . ومنهج بلخامة ص ١٧٧ . وأخبار في الشعر العربي ص ١٥٨ . و« بدع » .

(٢) كتاب الصنائع ص ٩٦٧ .

(٣) لغة جديدة أي خلال أربع جملات أرسطو بن العرب واليونان ص ٢٥٨ . وأبو هلال العسكري ومندوبيه البلاغية والتعبير ص ٢٧٧ . والبيان العربي ص ١٧١ . واللغة لغوي وأدبي ص ١٤٢ . ومنهج بلاغية ص ١٥٨ .

عليها قسموه البديع فمن حسن ومسيء - ومحدود ومفهوم ، ومقتصد ومفرط^(١) .

البلاغي :

وكانت نظرة أبي بكر البلاغي (- ٤٠٣ هـ) إلى البديع شاملة ، وقد ذكر في كتابه « إعجاز القرآن » كثيراً من فنون البلاغة كالاستعارة والتشبيه والعلو والمائلة . ومع أن هذه الفنون تضيق إلى الكلام رونقا وجمالا ، غير أنها لا توصل إلى معرفة إعجاز كتاب الله ، قال : « لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه . وذلك أن هذا الفن ليس فيه مما يفرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له كقول الشعر ووصف الخطب وصناعة الرسالة والحلق في البلاغة ، وله طريق يسلك ، ووجه يقصد ، وسلم يرتقي فيه إليه ، ومثال قد يقع طالب عليه^(٢) .

ابن رشيق :

واهتم ابن رشيق القيرواني (- ٤٦٣ هـ) بالبديع . وفرق بينه وبين المخترع . فالمخترع من الشعر هو « ما لم يسبق إليه قائله ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه^(٣) » . والبديع هو الجديد ، وأصله في الجبال وذلك أن يغفل الجبل جديداً ليس من قوى جبل تقصت ثم فلتت فتلأ أكثر ، يقول : « والبديع ضروب كثيرة وأنواع مختلفة . أنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة^(٤) » . وأدخل في البديع المجاز . والاستعارة ، والتشبيه ، والمثل السائر ، والتشبيه ، والإشارة . وغيرها .

عبد القاهر :

ولا يختلف عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ - أو ٤٧٤ هـ) عن سابقيه ،

(١) الوساطة بين اللغوي وعصمه من ٣٤ - وينظر كتابات : الجوزجات النقدية في القرن الرابع للهجرة من ٩٩٥ وما بعده .

(٢) إعجاز القرآن من ١٦٨ .

(٣) المعجم ١ من ٢٦٢ .

(٤) المعجم ١ من ٢٦٤ .

والبدیع عنده فترن البلاغة المختلفة كالاستعارة والتشبيه والتلميل والتجنيس والخيال . وعلة ذلك أن المصطلحات الكبرى لم تستقر عنده . وتكاد البلاغة والقصاحة والبراعة والبيان والبدیع تكون بمعنى واحد . وإن كان يردد مصطلح « البيان » في « دلائل الإعجاز » و مصطلح « البدیع » في « أسرار البلاغة » فيقول عن التطبيق والاستعارة مثلاً : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البدیع ^(١) » . ويقول : « وهكذا نراهم يعدونها في أقسام البدیع حيث يذكر التجنيس والتطبيق والتوشيح ورد العجز على الصدر وغير ذلك ^(٢) » .

ابن مقبل :

وسمى أسامة بن مقبل (- ٥٨٤ هـ) أحد كتبه « البدیع » فقد الشعر « جمع فيه خمسة وتسعين فصلاً بلاغياً . ولم يعرف البدیع أو يتحدث عنه وإنما أشار إلى أنه جمع في كتابه ما تفرق في كتب العلماء المتقدمين المصنفة في نقد الشعر وذكر محاسنه وعيوبه ليكون معياراً عن تلك الكتب لطبقته أحسن ما فيها ^(٣) » .

المصري :

وسار ابن أبي الأصم المصري (- ٦٥٤ هـ) في كتابه « تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن » و « بدیع القرآن » على خطا ابن مقبل ، فلم يعرف البدیع وإنما ذكر موضوعات بلاغية تزيد على المائة منها الاستعارة والتشبيه والتواضع والتشكيك والتخيير . وهذه الفنون لا تخص البدیع وحده . بل تشمل علوم البلاغة كلها . ومن القنون التي ذكرها ولما صلة بالبدیع « فن الإبداع » الذي عرفه بقوله : « وهو أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر أو الفصل من النثر أو الجملة الشبابة متضمنة بديها بحيث تأتي في البيت الواحد

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٦٩ - ٣٦٨ . وينظر كذلك : عبد الشعر المرحلي - بلاغة ولقد -

ص ١٦٢ - ١٧٠ .

(٣) انظر مقدمة الإبداع في نقد الشعر ص ٨ .

والقربة الواحدة عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملة . وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان فصاعداً من البديع ، ومن لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بابديع . وما رأيت في جميع ما استقرت من الكلام المنثور والشعر الموزون كآية كريمة من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحدًا وعشرين ضرباً من المحاسن وهي قوله تعالى : « وقيل يا أرضُ ابلغي ماءك ، ويا سماءُ اقلعي ، وغيض الماءُ ، وقضي الأمرُ » واستوتت على الجودي ، وقيل بُعثتُ للقوم الظالمين ^(١) .

والإبداع هنا غير البديع . وبذلك لا نخرج معنى محدد لمصطلح البديع عند المصري . وإنما نفهم منه المعنى البلاغي الواسع .

- ٢ -

ولم يهتم المشارقة بالبديع كما اهتم به المغاربة . فعبد القاهر والزمخشري لم يذكرها إلا فتوحاً بديعية قليلة ؛ لأنهما كانا ينظران إلى البلاغة نظرة تقوم على الاهتمام بالمعنى ونظم العبارة . وتابعهما فطر الدين الرازي في « نهاية الإيعاز » والمطرزي في كتابه « الأيضاح » في شرح مقامات الحريري ^(٢) .

السكاكي :

وكان للبيئة المشرقية التي نشأ فيها السكاكي (- ٦٢٦ هـ) أثر في بجهت البديع . ولذلك لم يهتم به اهتماماً كبيراً ، وكان ينظر إليه نظرة عبد القاهر والزمخشري وغيرهما من اهتم باللغة والبيان . ولم يذكر منه إلا ستة وعشرين بيتاً ، ورأى أنه أكثر من ذلك وقال : « فلك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلًّا من ذلك بما أحببت » ^(٣) . ولم يسم هذا القسم من البلاغة بديعاً ،

(١) تحف السجدة ص ٦٦٦ ، وديع القوافل ص ٢٥٠ .

(٢) انظر هذه الفتون في كتابنا « عبد القاهر الجرجاني ص ١٦٢ وما بعدها » و« جامع بلاغية ص ٥٩ » وبالبلاغة عند السكاكي ص ٢٥٨ .

(٣) « نتائج العلوم ص ٢٠٤ » .

وأما هو محسنات أو وجوه يصار إليها لتحسين الكلام ، ولم يدخله في البلاغة ، لأنها عنده تخص بعلمي المعاني والبيان ، ويتضح ذلك جلياً في تعريفه للبلاغة حيث يقول : « البلاغة : هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حداً له اختصاص بتوفيق خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكتابة عسل وجهها ^(١) » وبعد أن انتهى من بحث المعاني والبيان قال : « وإذا قد تقرر أن البلاغة بمرجعها ، وإن الفصاحة بتوحيها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أهل درجات التحسين ، فما هنا وجوه مخصصة كثيراً ما يصار إليها لتقصد تحسين الكلام ، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى ، وقسم يرجع إلى اللفظ ^(٢) » .

فمن القسم الأول : المطابقة ، والمقابلة ، والمشاكلة ، ومراعاة النظر ، والمراوحة ، واللف والنشر ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والتفريق مع التقسيم ، والأيام ، وتأکید المدح بما يشبه الذم ، والتزجيه ، وسوق المعلوم مساق غيره ، والاعتراض ، والاستنباط ، والالفاظ ، وتقليل اللفظ ولا تقليله .

ومن القسم الثاني : التجنيس ، ورد العجز على الصدر ، والقلب ، والسجع ، والتمريض ، والترصيع .

ابن مالك :

وكان هذا التقسيم جديداً في البلاغة ، وحينما نخص بدر الدين بن مالك (٦٨٦ هـ) القسم الثالث من « مفتاح العلوم » في كتابه « المصباح » أطلق مصطلح « البديع » على القسم الثالث من البلاغة وهو المحسنات ، وقسماً في تعريفه : « هو معرفة أنواع الفصاحة ^(٣) » ، وقال عن المحسنات إنها « مما

(١) مفتاح العلوم ص ٦٩٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٠٠ .

(٣) المنبر ص ٧٤ .

يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين . ويتفرع منها وجود كثيرة بصار إليها في باب تحسين الكلام ، (١) . وقسمها الى لفظية ومعنوية . والمعنوية إما مختصة بالألفاظ والتبيين أو مختصة بالتزيين والتحسين . وهذا القسم جديد آخر لم نألفه عند السكاكحي أو غيره من البلاغيين .

والنوع الأول المراجع الى فصاحة اللفظة أربعة وعشرون فناً هي :
الترديد . والتعطيف . ورد العجز على الصدر . والتشظير . والرضيع .
والسجع . والتجزئة . والتسميط . والمعاذلة . والتوشيع . والتطريز .
والتشريع . والالتزام . والتعويف . والأطراد . والمراوغة . والتجنيس .
والمعاقبة . والمقابلة . والتدريج . والمشاكلة . والتسليم . والتوشيح . والغلب .

والنوع الثاني المراجع الى الفصاحة ويتخصص بالفهم المعنى وثيبته ثمانية عشر فناً هي : حسن البيان . والإيضاح . والمذهب الكلامي . والتبيين . والتسميع .
والتفصيل . والاحتراس . والتكميل . والتدليل . والاعتراض . والمبالغة --
ومنها الإغراق والغلو -- والإيغال . والتكرار . والاستطراد . والتجريد .
والتفريع . وتأكيذ المدح بما يشبه الذم . والتعلييل . والتهاكم .

والنوع الثالث المراجع الى فصاحة المختصة بتحسين الكلام وتزيينه خمسة عشر فناً هي : الغف والنثر . والتفريق . والجمع . والجمع مع التفريق .
والجمع مع التقسيم . والاختلاف . والتورية . والقسم . والمراجعة . والإدماج .
والتعطيل . وحسن الابتداء . وحسن التخلص . وحسن الخاتمة . وسقط الفن الخامس عشر في المطبوع من « التصباح » ولعله « الاستخدام » . فقد ذكر ابن حجة الحموي أن ملعب ابن مالك فيه هو « إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ثم يأتي بلفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك . وقد يكونان متقدمين . وقد يكون اللفظ المشترك متوسطاً بينهما » (٢) .

(١) المصباح ص ٦٦ .

(٢) حركات الكتاب ص ٥٢ .

وبلاحظ في عمل ابن مالك :

١ - أنه قسم البديع الى ثلاثة أقسام . وكان القسمان الآخران يخصان المعنى للثنيين أو التزيين . وهما ما سماه البلاغيون « المحسنات المعنوية » .

٢ - أنه أدخل المطابقة والمقابلة في فصاحة اللفظية ، وهما من « المحسنات المعنوية » عند السكاكي والبلاغيين .

٣ - أنه لم يضع حداً واضحاً بين القسمين الثاني والثالث .

ويبدو أن البلاغيين لم يأخذوا بهذا التقسيم . وقيل تقسيم السكاكي أساساً في دراسة فنون البديع . وبذلك أخذ هذا المصطلح في القرن السابع للهجرة طابعاً جديداً لم تألفه من قبل . وأصبح يضاف على قسم من موضوعات البلاغة وهي : المحسنات اللفظية والمعنوية .

الفروبي :

وفصل الخطيب الفروبي (٧٣٩ هـ) البديع فصلاً تاماً عن البلاغة التي جعلها محصورة في المعاني والبيان ، وقال : « إن البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الكلام القصيح من غيره » . والثاني - أعني التمييز - منه ما يثبت في علم من اللغة أو التصريف أو النحو ، أو يدرك بالحدس وهو ما عدا التعقيد المعنوي . وما يخترز به عن الأول - أعني الخطأ - وهو علم المعاني ، وما يخترز به عن الثاني - أعني التعقيد المعنوي - هو علم البيان . وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الخيال وفصاحته هو علم البديع ^(١) .

والبديع عنده ضربان : ضرب يرجع إلى المعنى ، وضرب يرجع إلى اللفظ . وقد تكلم في الأول على : المطابقة ، والمقابلة ، ومراعاة النظر ، والأرصاد ، والمساكنة ، والاستطراد ، والمزاوجة ، والعكس ، والتبديل .

(١) الأندلس ص ٢٢٤ .

والرجوع . والتورية . والاستخدام . واللف والنشر . والجمع . والتفريق .
 والتقسيم . والجمع مع التفریق . والجمع مع التقسيم . والجمع مع التقسيم
 والتفريق . والتجريد . والمبالغة . والمذهب الكلامي . وحسن التعليل .
 والتفريع . وتأکید المدح بما يشبه الذم . وتأکید الذم بما يشبه المدح . والاستتاع .
 والاضعاج . والتوجيه . والفزل الذي يراد به البعد . وتجاهل العارف . والقول
 بالموجب . والاطراد .

وتكلم في الثاني على : الخناس ، ورد العجز على الصدر ، والسجع .
 والموازنة . والقلب . والتشريع . ولزوم ما لا يلزم .

لقد تابع السكاكي في هذا التقسيم وزاد عليه فعدّ من المعنوي ثلاثين ضرباً في
 كتابه « التلخيص » واحداً وثلاثين في كتابه « الايضاح » ليس فيها الالتفات .
 والاعتراض . والابجاز . والاضطراب . لأنه ذكرها في علم المعاني . وجعل
 الطباق مشتملاً على المقابلة .

والفنون البدعية التي زادها على السكاكي في المعنوية : الارصاد . والعكس
 والرجوع . والاستخدام . والتجريد . والمبالغة . والمذهب الكلامي . وحسن
 التعليل . والتفريع . وتأکید الذم بما يشبه المدح . والاضعاج . والفزل الذي يراد
 به البعد . والقول بالموجب . والاطراد . والاستطراد .

وزاد عليه في المحسنات القفية : الموازنة . والتشريع . ولزوم ما لا يلزم .

وذكر أن بعضهم يذكر أشياء في البدع لا قيمة لها ، وقد تركها لعدم
 دخولها في فن البلاغة نحو ما يرجع في التحسين أن الخط دون المنطق على أنه لا
 يخلو من التكلف لكون الكلمتين متماثلتين في الخط وكون الحروف منقوطة أو
 غير منقوطة ، ونحو ما لا أثر له في التحسين كما يسمى « التردد » ، أو لانتفاء
 جنبوا نحو ما يوجد في كتب بعض المتأخرين مما هو داخل فيما ذكره كما سماه
 « الايضاح » فإنه في الحقيقة راجع إلى الاضطراب ، أو خلط فيه كما سماه « حسن
 البيان » . كما أنهم يدخلون فيه ما يخص المرافقات وحسن الابتداء والتخلص

والانتهاء . وقد عقد القزويني لما فصلين نظم فيما كتابه .

إن البدیع عند القزويني وغيره يعود على الكلام بالتحسين العرضي لا الذاتي . مع أن كثيراً من أواله يقتضيهما الحال ويحتاج إليها الكاتب والشاعر كصحة التفسير والمقابلة والمطابقة والمبالغة واللف والنشر .

وسار أكثر البلاغيين على خطأه وخالفه بعضهم . يقول بهاء الدين السبكي معاناً على تعريف القزويني للبدیع : « يشتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه وضوح الدلالة . ويكون المراد هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح . ومعرفة التطبيق والوضوح سابقان على معرفة التحسين فيكون المعاني والبيان جزأين للبدیع . ويشتمل أن يراد قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين . فلا يكون المعاني والبيان جزأين للبدیع بل مقدمتين له . وقد صرحوا بأن المراد هو الأول .

والحق الذي لا ينزع فيه منتصف أن البدیع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة . وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال ومن الأبراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين . وأول برهان على ذلك أنك لا تجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون لاشتماله على التطبيق والأبراد . بل تجد كثيراً منها غالباً من التشبيه والاستعارة والكتابة التي هي طرق علم البيان .

هذا هو الانصاف . وإن كان مخالفاً لكلام الأكثرين (١) .

واضطربوا في توزيع فنون البدیع فوضعوا قسماً منها في علم المعاني . وأعادوا بحثها في علم البدیع . وعادة ذلك أنهم كانوا ينظرون إليه من زاويتين : الأولى : أن تحسبه عرضي .

الثانية : أن تحسبه ذاتي .

(١) مدرّس النحاج (شرح النحاج) ج ٣ ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

فإن كان من الأول فهم من اليديع . وإن كان من الثاني فهم من علم المعاني
والى ذلك أشار الدسوقي بقوله : « وأعلم أن المحسّنات اليديعية إنما يكون
تحسينها عرضيا إذا اعتبرت من حيث أنها محسنة ، وهي من هذه الجهة يبحث
عنها في علم اليديع . وأما إذا اعتبرت من حيث أنها مطابقة لمتنقى الحال لكون
الحال اقتضاها كانت موجهة للحسن الذاتي . ومن هذه الجهة يبحث عنها في
علم المعاني . ولهذا ذكر المصنف فيه الالتفات الذي هو من المحسّنات
اليديعية (١) » .

وكان ابن يعقوب المغربي قد ذهب الى هذا الرأي من قبل وقال : « إن
اليديعيات إذا قصد بها مناسبة الأحوال التي توردت لأجلها عادت معاني
والمعاني إذا دمل عن تلك المناسبات فيها ونفى بها لأجل طرافتها فقط كانت
بديعيات (٢) » .

وليس وراء هذا النزاع كبير فائدة ، لأن كل فن بديعي إذا استعمل
بلغة وعناية ووضع الموضوع الذي يقتضيه كان جميلا سواء عدّ تحسبه عرضيا
أم ذاتيا ، وما تقسيمنا للمحسنات الى لفظية ومعنوية إلا لتسهيل بحثها وجمعها
في فصول واضحة . وليس معناه أن اللفظية لا قيمة لها فكثيرا ما يكون لها دور
كبير في تأكيد المعنى وتثبيته . أو إيضاحه وتفريبه . أو تلطيف جو مناسب
للمعنى ليسهل إدراكه وتصوره . أو إضفاء موسيقى تجذب إليها القلوب
وتؤثر فيها .

(١) حاشية المصنف (شرح المعاني) ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) مرآة البصائر (شرح المعاني) ج ٣ ص ٢٢٦ .

الفصل الثاني

البدعيّات

كان لفصل البديع عن المعاني والبيان أثر في إلهام الأدباء أن دراسته والتفصيل فيه والاكتثار من قائله . وقد شهد القرن السابع للهجرة لونا جديداً من التأليف في البلاغة هو « البدعيّات » التي كانت قصائد تتضمن فنوناً بلاغية ومعظمها في مدح النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن البحر البسيط وعلى روي الأئم . وكان الاهتمام بالصنعة قد بدأ منذ عهد مبكر وشغف المتأخرون بها حتى أن عبد القاهر الجرجاني ضاق ذرعاً بمن هلموا بالبديع ، وقال : « وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول ليبيّن ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عيبه وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء . وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كل أقل العروس بأصناف الخلق حتى ينلوا من ذلك مكروه في نفسها ^(١) » .

(١) أسرار البلاغة ص ٦ .

نشاطها :

والبديعيات كثيرة جداً، وقد اختلف الباحثون في نشأتها فذهب الدكتور زكي مبارك إلى أن أبا عبدالله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي (٧٨٠هـ - ٨٧٨هـ) ابتكرها ورسم أصولها^(١) . وذهب ابن معصوم المدني إلى أن صفي الدين الخلي (٧٥٠هـ) أول من نظم البديعيات ، ولكنه استلزم وقال : « وكنت أظن أن تولد من نظم من أنواع البديع على هذا الأسلوب البديع فضمن كل بيت نوعاً واقتاد له شمس هذا المرام متبعاً هو الشيخ صفي الدين الخلي - رحمه الله تعالى - حتى وقفت في ترجمة الشيخ علي بن عثمان بن علي بن سليمان أمين الدين السليمان الأرملي الصوفي الشاعر على قصيدة لامية له نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمن كل بيت منها نوعاً منه أولها أجناس الثام والمطرف وهو :

بعض هذا السلال والإدلال حال بالخير والتجنب حالي

ثم قال في الجناس المصنف والمركب :

جرت إذ حُرِّت رُبْعٌ قَلِيٌّ وَإِذَا

لَالِي ، صَبْرًا ، أَكْثَرَتْ مِنْ إِذْ لَالِي

فعلمت أن الشيخ صفي الدين لم يكن أبا علم هذا المرام ولا أول من نظم جواهر هذا العقد في نظام . فإن الشيخ لعن الدين المذكور توفي قبل أن يولد الشيخ صفي الدين بسبع سنين . وذلك أن وفاة الشيخ لعن الدين في سنة سبعين وستمائة وولادة الشيخ صفي الدين في سنة سبع وسبعين وستمائة .

ولما نظم أنواع البديع على هذا الوزن والروي الذي نظم عليه الشيخ صفي الدين فلا تحقق أيضاً أن الشيخ صفي الدين هو أول من نظم عليه فإنه كان معاصراً للشيخ أبي عبدالله محمد بن أحمد بن علي القواربي المعروف بشمس الدين ابن جابر الأندلسي الكعبي صاحب البدعية المعروفة ببديعية العميان . ولا

(١) تاريخ الدولة من ٦٠٤ .

أعلم من السابق منهما إلى نظم بديعته على هذا الأسلوب . وإن كان الشيخ صفى الدين قد حاز قصبات السبق في مضمنا براءة هذا المطلوب . فإن جابر لم يستوف الأنازع التي نظمهها الشيخ صفى الدين بل أدخل بنحو سبعين نوعاً من الأنازع . وكلاهما لم يلتزما التورية باسم النوع البدعي . ولول من التزم ذلك عز الدين الموصلى ثم تلاه الشيخ تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي المعروف بابن حجة . والتزم ما التزمه الشيخ عز الدين وزاد عليه في أكثر الآيات حسن النظم والاستجمام . إلا أن لذلك فضل المتقدم على المتأخر والمبتدع على المتبع . وقل من التزم بعدهما هذا الالتزام وما ذلك إلا لصعوبة هذا المرام ^(١) .

ورجح الدكتور جواد علوش أن يكون صفى الدين سبق من ابن جابر الأندلسي . لأنه توفي سنة ٧٥٠ هـ ولولي الثاني سنة ٧٨٠ هـ . وأن ابن حجة الحموي اعترف بأسبقيته في عدة مواضع من غزائته ^(٢) . ولكن ذلك ليس دليلاً أكيداً . وقد يكون ابن جابر الأندلسي سبق . لأنه كان قد خطى الحسين حين مات الخلي . ولعله نظمه في هذه السن أو قبل ذلك بكثير فيكون له سبق في هذا المضمنا .

الأدلي :

والبديعيات كثيرة ، ومن أولها بديعية علي بن عثمان الأدلي (٦٧٠ هـ) الذي أشار إليه ابن معصوم المدني وعدّه أول من نظم هذا اللون . وبديعته في مدح بعض معاصريه وفي كل بيت أول من ألوان البدع . وقد ذكر ابن شاذان الكندي ^(٣) سنة ثلاثين بيتاً منها اشتملت على فنون بلاغية مختلفة . ويبدو أن هذه البديعية أول ما عرفه الأديب العربي من البديعيات . وهي ليست في مدح النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - ولا من البسيط بل من الخفيف ، وليست على روي الميم بل على اللام . ولعل سبق نظمها لم يجعله يكره فيما فكر

(١) أول الرابع ج ١ ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) شعر صفى الدين أدخل ص ١٢٦ .

(٣) حرات التوفيق ج ٢ ص ١١٨ وقد انظر .

فيه غيره من أخذ قصيدة البردة أبو صيري نهجاً له .

واتجه الشعراء ينظمون البديعيات في مدح الرسول أو في الغزل ويحسرون
البديع فيها معارضين بردة أبو صيري (- ٦٩٧ هـ) التي مطلعها :

أعين^(١) تذكر جيران بلدي مكسوم

مَرَجَتْ دمعاً جرى من مقلتي بسدم

الحلي :

ومن ذلك بديعة صافي الدين الحلي (- ٧٥٠ هـ) وهي في مائة وخمسة
وأربعين بيتاً ومطلعها :

إن جئت سلعاً فسك عن جيرة العلكم

واقراً السلام^(٢) على غريب بلدي مكتم

وطمست كل بيت فيها حسناً وطمست قصيدته مائة وخمسين إذ جعل فيها
الجناس التي عشر قريبا . وسماها « الكافية البديعة في اللطائف النبوية » وشرحها
بكتاب سماه « النتائج الآتية في شرح الكافية » وأتم الأدياب^(٣) بها وشرحها عبد الغني
الثعالبي بكتاب سماه « الجوهر السني في شرح بديعة الصافي » وأثنى عليها
الحدادي في خرافته وفضائلها على البديعيات الأخرى . ووازن بينها وبين بديعة
الموصلي^(٤) . ولا عجابه بالخلي نراه يقلده ويجاريه ويخذه جلوه .

ابن جابر :

ونظم ابن جابر الأندلسي (- ٧٨٠ هـ) بديعة في مائة وسبعة وعشرين بيتاً
استهلها بقوله :

بطيخة الزل^(٥) ويستم سياد^(٦) الأمر

والتر^(٧) له المدح وأنشأه أطيب الكاتم

وسماها « الحلة السرا^(٨) » في مدح خير أئمة^(٩) . وهي المعروفة ببديعة

(١) ينظر حركات الأوزن ص ٢٧ - ٢٧٠ .

(٢) السرا : الحلة . أنشأ : لم يخلعها حرير .

الديان . وقد عدّه الدكتور زكي مبارك مبتكر هذا الفن . ولكننا رأينا الأرمي والحلي قد نظما في البديعيات وإن كانت بديعية الأول ليست نهجا فريدة . ولم يتحقق لدينا السبق لأحدهما . وتختلف هذه البديعية عن غيرها . ذلك أنه لم يجعل فون البلاغة كلها بديعاً بل اقتصر على أبواب البديع التي ذكرها في القزويني . ولذلك اعتبروه عملاً بالبديع غير مستوفٍ له .

وشرحها أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الرعيّني الغزنائي (٨٧٧٩) بكتاب سماه « طراز الخلة وشفاء الغلة » وقدّم لنا خمسة فصول : الأول في البديع لغة واصطلاحاً ، والثاني في الفرق بين الفصاحة والبلاغة ، والثالث في مكان البديع من المعاني والبيان والرابع في تقسيم البديع الى لفظي ومعنوي ، والخامس في بيان أن البديع أحد علوم الأدب الستة وهي : اللغة ، والتصرف ، وعلم العربية ، والمعاني ، والبيان ، والبديع . وأشار الى أن ابن جابر اتبع في سرد المعينات الخطيب القزويني ولكنه بدأ باللفظ متابعاً بدر الدين بن مالك في كتابه « المصباح » وهو « ترتيب حسن ، لأن اللفظ وسيلة الى المعنى وحق الوسيلة أن تكون متتابعة » . وأيضاً فإن ما يتعلق بالمعنى لا يكون إلاّ بعداً التركيب بخلاف ما يتعلق باللفظ . وحال الأفراد مقدم على حال التركيب^(١) .

وأثنى السيوطي على بديعية ابن جابر وقال : « إنّ نفعها عال »^(٢) . غير أنّ الحموي قال : « ونظم هذه القصيدة سافلاً بالنسبة الى طريق الجماعة » . غير أنّ الشيخ الامام العلامة شهاب الدين أبي جعفر الأندلسي شرحها شرحاً مفيداً^(٣) .

الموصل :

ونظم عن الدين الموصل (- ٧٨٩ هـ) بديعية في ١٠٠ وأربعين بيتاً التزم فيها تسمية الفن البديعي موزعاً بكلمة عنه في البيت الذي يتضمنها ومطلعها :

(١) طراز الخلة وشفاء الغلة ص ١٧ .

(٢) بداية النور ح ١ ص ٢٥ .

(٣) بحرّال الأذن ص ١١ .

براعسة "ستهل" الدبع في العلم

عبارة عن تعداد المظهر العكس

وكان الموصلي أول من فعل ذلك ليشير على الحل الذي لم يلزم بنسبة النوع

وتوال نظم الديدعيات وظهر شعراء عنوانوا كوجيه الدين عبد الرحمن بن محمد البجلي (— ٨٠٠ هـ) ، وشرف الدين عيسى بن حجاج بن عيسى بن شداد البغدادي القاهري (— ٨٠٧ هـ) . وزين الدين شعبان بن محمد بن داود الأثاري القرشي (— ٨٢٨ هـ) .

الحوي :

وظهر في القرن الثامن أدب ناقد كان له أكبر الأثر في الديدعيات ، وهو أبو بكر علي بن حجة الحسوي (— ٨٣٧ هـ) الذي وجد عصره يزخر بالديدعيات وكان قد أعجب بديعني الحل والموصلي فلما أد أن يضع بديعية لنفوقهما وتعلو عليهما . فنظم بديعية ضمن كل بيت فيها لوناً بديعياً وأشار إلى اسمه في البيت نفسه وسماها « تقديم أبي بكر » . وأبناها مائة وأثنان وأربعون ، ومطلعها :

لم في ابتدا مدحك يا عرب ذي سكر

براعسة "ستهل" الدبع في العلم

ورأى أن هذه البديعية لن تكون ذات فائدة عظيمة إن بقيت آيات شعر تحفظ وتروى من غير تبصر بقانونها البديعية فوضع لها شرحاً سماه « غزاة الأدب وغاية الأرب » ووزن بينها وبين بديعني الحل والموصلي .

ومنهج ابن حجة في خزانته يختلف عن منهج البلاغين في عصره الذي يسيطر فيه تلخيص القرويني وشروحه على الدراسات البلاغية . فلم يقسم البلاغة إلى قانونها الثلاثة . ولم يلزم بالحدود والتقسيمات التي فرضتها بلاغة السكاكي وأتباعه . وإنما سلك مذهبا آخر فيه ابتعاد عن كل ما يفسد الذوق . لقد كان يعرض الفن الذي ضلّه نبأ عن البديعية فيعرفه تعريفاً بلاغياً ويذكر أمثلة شعرية ولغوية كثيرة ويرد آراء بعضهم ويزاين بين الآراء . ويمكن أن تعد

خبراته من خبرة كتب البلاغة والنقد في عصره ، لأنه لم يلتزم بالشهج السائد ولم يقلد المتقدمين ككل التقاليد وإنما جاء بكل طريف في عصره الذي سادت فيه معوجة التقليد .

ونأتي أخيراً هذا الشرح من تفسير فنون البلاغة المختلفة وذكر التعريفات والآراء الكثيرة ، وفيها كثير من الأقوال الذين طمس الزمان آثارهم . قال عن التتبع : « التتبع كان اسمه التمام ، وإنما سماه الخاقاني التتبع ، وسماه ابن العزري أتم الفس كلام في كلام لم يتم معناه . والتتبع عبارة عن الاتيان في المظم والنثر بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه وهو على ضربين : ضرب في المعاني وضرب في الألفاظ (١) » .

وأبدى رأيه في بعض فنون البديع وقال عن عتاب المرء نفسه : « هذا النوع - أعني عتاب المرء نفسه - لم يجد العُشْبُ مرتباً إلا على من أدخله في البديع وعدة من أنواعه . وليس بينهما نسبة والذوق السليم أعدل شاهد على ذلك . ولولا أن الشروع في المعارضة مازم ما نطمت حصاه مع جواهر هذه العقود . ونهاية أمره أنه صفة لحال واقعة ليس تحتها كبير أمر . وهو من أفراد ابن العزري ولم يورد فيه غير بيتين ذكر أن الأسيدي أشدهما عن الإحاطة وهذا :

عصافى قومٌ في الرشاد الذي به
أعزأتُ ومن يعصّر المحارب يشدّم
فصبراً بنى بكر على الموت أني
أرى عارضا ينهل بالموت والدم (٢)

ولا يخفى شرح ابن حجة من آراء شخصية والمفاتيح نقدية كثرأيسه في الجنس ، الذي لا تكون قيمته لما فيه من محسن لفظي وإنما تأتي قيمته وأهميته من

(١) حاشية المصنف ص ١٢١ .

(٢) حاشية المصنف ص ١٢١ .

كونه محسناً معنوياً له أثر في التعبير . ولذلك بحث الجناس المعنوي الذي أحسا
معظم البلاغيين . قال : « أما الجناس فانه غير مذهبي وبمذهب من نسجت على
منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن "كلاً" منهما يؤدي
إلى العقادة عند إطلاق عتات البلاغة في مفسار المعاني البتكرة كقول القائل
واستحيي أن "أقول إنه أبو الطيب :

فَقُلْتُ بِالْهَمْ "الذي قلل الحشا قلائل عرش كُتُهْن" قلائل

ولقد تصفحت ديوانه فلم أجد لوافد هذا النوع ترولاً "إلا ما قل" في
أبياته وهو نادر جداً ولا العرب من قبله خيبت بأبياتها عليه . غير أن هذا البيت
حكمت على أبي الطيب به المقادير^(١) .

وفي « خزنة الأدب » كثير من العلوامات والنصوص التي تقع العارفين
والمحققين.^(٢)

السيوطي :

وخلال الدين السيوطي (- ٩١١ هـ) بديعية سماها « نظم اليبع في مدح
خير شقيق » في مائة وأربعين بيتاً مشتملة على مثلها من الأنواع . ومطلعها :

من العقيق ومن نكح كاز ذي سلكم بتراعة تستهل الدعج في العنكر

وشرحها شرحاً موجزاً وأشار إلى أنه عارض بها بديعة ابن حجة الحموي
في التورية باسم النوع البديعي .

الياعونية :

ونظمت عائشة الياعونية (- ٩٢٢ هـ) بديعة في مائة وثلاثين بيتاً سميتها

« الفتح المبين في مدح الأمين » . ومطلعها :

(١) خزنة الأدب ص ٢٠ .

(٢) خطر كتابنا : القروي وشرح التلخيص ص ٤٤٧ وما بعدها . وكتابنا : مدافع بلاغة ص

في جُسْرٍ مشتملٍ أفعاري بنى سائِم
أصبحت في زَمرة العشاق كالعلم

وأقلبتها عل منازل بدعية ابن حجة من غير تسمية النوع البديعي تحسُّكاً
بطلاقة الألفاظ والنسجام الكلمات . وشرحها واستمدت عل ابن حجة كثيراً^(١)

أعرون :

ونظم الشعراء بعد ذلك البدايات . ومنهم علي بن دقاق الحسيني
(- ٩٤٠ هـ) وعبد الرحمن الحميري (- ١٠٠٥ هـ) وشمس الدين الحموي
(- ١٠١٧ هـ) وعبد الله الزنوازي (- ١٠٥٩ هـ) . وصدر الدين بن معصوم
الحسيني المدني (- ١١١٧ هـ) . وبديعته في مائة وسبعة وأربعين بيتاً ومطلعها :
حُسْنُ ابتدائي يذكرى جيرة الخمر
له براعة شوقٍ يستهلّ مسمي

وتنضم ألفاظ أبياتها أسماء المحسنات البديعية . وقد شرحها بكتابه
« أنوار الربيع في أنواع البديع » . وتحدث في المقدمة عن البديع لغةً واصطلاحاً
وعن أول من سماه . وأشار إلى قدامة أبي هلال وأبي ريشة وابن أبي
الاصبع . وحاول أن يفتق أول من نظم هذا اللون وذكر أن الأربلي كان
سابقاً إلى ذلك . ولا يفرج في طريقة شرحه عن السابقين . فهو يذكر بيته
البديعي وتعريفه من البلاغي وما قيل فيه . ثم يردف ذلك بأمثله تدل عل ذوق
مصلته التجربة وهدية الاطلاع الواسع .

ونظم عبد الغني التناطسي (- ١١٤٣ هـ - ١٧٣١ م) بديعتين ، ولم يلتزم
في إحداهما تسمية النوع والتزمه في الثانية . ومطلع الأولى :

يا منزل الركب بين البان فالعلم من سطح كاطمة حبيت بالديم

(١) انظر شرح البديع (دمشق) (حاشية خرافة الأوب لعمري) ص ٣١٠ . وكذا : منابع
بداية ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

وشرح هذه البديعة بكتاب سماه «تفحات الأزهار على نسبات الاسماح
في مدح النبي المختار» ، وذكر بديعات الخلي والموصلي وابن حجة والباعونية .

ومطلع الثانية

يا حُسْنِ مطلعٍ منْ أهْوَى بذي سَلَمٍ

براعة الشوق في استهلاكها السلي

والنظم فيها التورية باسم النوع بعد ان اتفقد ذلك في مقسمة شرح بديعته
الاولى ؛ لأن ذلك يكسب « تنافر الكلمات » و« غرابة الجاني » ، وقلاقة المعاني ^(١) .
وقال : إن أبيات بديعته مائة وخمسون بيتاً مشتملة على مائة وخمسين فنا بعد
زيادة أنواع لطيفة لا توجد في البديعات ، وربما اتفق في البيت الواحد النوعان
والثلاثة بحسب انسجام القرعة في النظم .

وهناك بديعات أخر منها : بديعة أبي الوفاء بن عمر العرضي الشافعي .
وبديعة قاسم بن محمد البكره جي (- ١١٦٩ هـ) وبديعة غلام علي آزاد
(- ١٢٠٠ هـ) . ولحمود صفوة الساعاتي (- ١٢٩٨ هـ) وعبد القادي بن
رضوان نجا الأبياري (- ١٣٠٥ هـ) وعبد القادر الحسيني الأدهمي الطرابلسي
وعبد الحميد قلنس بن محمد علي الخطيب (- ١٣٣٥ هـ) بديعات قلدوا فيها
السابقين .

ونظم المسيحيون بديعات في المسيح - عليه السلام - ومنهم الخوري
نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ (- ١١٧٠ هـ) الذي يقول في مطلع بديعته :

يلدح حسن امتداحي رسل ربهم براعة في افتتاحي حيدرهم

والخوري أرمانيوس القناصوري (- ١٣٠١ هـ) الذي ألزم في إحدى
بديعاته التورية عن اسم النوع البديعي ، ومطلعها :

(١) تفحات الأزهار ص ٤٤ - ٤٥ .

دراسة المدح في نجم خدياء مسمي تهدي بمطاعها من عن سناوعمي

ومطلع الثانية :

فحري هي الخليل الجامع العظمير وبيت لحم وآلا قد سمع بهم
ولم يلتزم في الثالثة البحر البسيط ولا الميم المكسورة وإنما اتخذ من الكامل
والميم المضمومة سبيلاً . ومطلعها :

إني لأحكام القضاء مسليسم^١ ولسان حالي بالهوى مشكل^(١)

وهذه البديعيات الكثيرة تدل على اهتمام عظيم بفنون البديع في الفترة
المتأخرة ، وإما كان فيها إصراف في الصنعة والفن في إيجاد أنواع بديعية دعا
الدارسين أن انتقادها وتصويرها بغير حقيقتها - فإن الجهد المبذول فيها عظيم
ويدل على ما كان يتمتع به أولئك الشعراء من صبر على النظم وإطلاق على اللغة
وذكاء في معالجة المتن والتورية عنها . وهي تمثل اتجاهًا جديدًا في تأريخ البلاغة
يختلف كل الاختلاف عما عرف من شروح التلخيص التي سيطرت على الدرس
بعد القرن السابع ، وتصور حياة الأدب في تلك الفترة التي جنت فيها الشعراء إلى
العناية بصور البديع . وكانت تطبيقاً لذلك الأدب وما حفل به من فنون بديعية
لجها الشعراء الأوحدون وأخصى ابن المعتز ثمانية عشر وترك الباب مفتوحاً
لمن أراد التوسع فيها . وكان البديعيات كانت استجابة لتلك الدعوة . وتمثل
أيضاً العودة إلى البديع كما عرفت إلخا لحظ وابن المعتز وقدامة وغيرهم من البلاغيين
الذين سبقوا تقسيم البلاغة وحصر البديع في المحسنات . يضاف إلى ذلك أن
العصر الذي عاش فيه أصحاب البديعيات كان يعني بنظم علوم اللغة تقريباً لها
وعصباً لغواً لها . وقد رأى البديعيون أن البلاغة ينبغي أن تقيد ليسهل حفظها
ويعمدونها ، وقاموا بذلك خبر قيام مع ما في النظم من تكافؤ وإعساف .

(١) تنظر آثار العرب الادبية (مقدمة العربية) ج ٣ ص ٤٧٠ . والبلاغة تطور وتأريخ ص
٣٠٨ . والفتح البديعي ص ٤٠٨ . ٤٦٦ .

ولم تكن البديعيات في مستوى واحد بل اختلفت بتعدد أصحابها وتباين
ثقافتهم ومواهبهم . ولعلّ بديعة الخلي أجود شعراً وأصدقها عاطفة . لأنّه
لم يلتزم بالضرورة عن الفن البديعي كما التزم الموصلي والحموي .
والبديعيات بعد ذلك ثلاثة ألوان :

الأول : ليس فيه تسمية النوع البديعي . ويمثله الأربلي وأخري .

الثاني : فيه تسمية النوع . ويمثله الموصلي والحموي .

وهذان القولان مع اختلاف في الأسلوب يمثلان البلاغة بحدوثها الثلاثة ،
لأنّ البديع عند أصحابهما لا ينحصر فيما عرّفه أصحاب الشروح والتلخيصات
وإنما يشمل المعاني والبيان والبيان .

الثالث : حصر البديع في المحسنات اللفظية والمعنوية . ويمثله ابن جابر
الاندلسي الذي اتخذ من مذهب السكاكي والقزويني سبيلاً .

وبعد هذا العرض لمصطلح « البديع » والوقوف على البديعيات « نتحدث
عن فنون البديع وهي قسمان :

١ - المحسنات اللفظية .

٢ - المحسنات المعنوية .

الفصل الثالث

المحيّنات اللفظية

الجناس :

يسميه بعضهم « التجنيس » . وللأصمعي كتاب سماه « الأجناس »^(١) .
ولاني عبيد القاسم بن سلام كتاب « الأجناس من كلام العرب وما اشبه في
اللفظ واعتلاف في المعنى » ذكر فيه اللفاظ المتفقة في الشكل والمختلفة في المعنى .

والجناس ثاني فن من بدیع ابن المعتز . وقد عرفه بقوله : « هو أن نجيء
الكلمة لجناس أخرى في بيت شعر وكلام »^(٢) . ومما استنها لها أن تشبهها في
تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس .

والجناس تعريفات كثيرة . وقد شرّق الادباء وغربوا فيه . وقسمه
المؤلفون إلى أقسام متعددة ولذلك قال ابن الأثير : « وقد تصرف العلماء من
أرباب هذه الصناعة فيه فغربوا وشرّقوا لا سيما المحاكين منهم . وصنّف الناس

(١) كتاب الأصمعي من ٣٢١ .

(٢) البدیع من ٢٤ .

فيه كتباً كثيرة وجعاهه أبواباً متعددة . واعتدوا في ذلك وأدخلوا بعض تلك الأبواب في بعض . فمنهم : عبد الله بن المعتز وأبو علي الخائمي والثاقبي أبو الحسين البرجاني وقدامة بن جعفر الكاتب وغيرهم . وإنما سمي هذا النوع من الكلام مجانساً ، لأن حروف القاطعة يكون تركبها من جنس واحد .

وحقيقته أن يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً . وعلى هذا فانه حر : «اللفظ المشترك» وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء . إلا أنه قد خرج من ذلك ما يسمى تجنيساً ، وذلك نسبة بالمشابهة لأنّها دالة على حقيقة المسى بعينه ^(١) .

وقال السكاكي : « هو تشابه الكلمتين في اللفظ ^(٢) »

وقال الخطيب القزويني : « الجناس بين اللفظين هو تشابههما في اللفظ ^(٣) »

وعرفه العلوي بقوله : « هو أن تتفق اللفظان في وجه من الوجوه ويختلف معانيهما ^(٤) »

والجناس أقسام كثيرة ولكنه بصورة عامة ينقسم إلى تام وناقص . وقسمه ابن الأثير إلى سبعة أقسام . واحد منها يدل على حقيقة الجناس . لأن لفظه واحد لا يختلف وهو الجناس الحقيقي . وستة أقسام مشبهة .

والجناس التام أو الكامل أو المستوفي هو : أن تتفق الكلمتان في اللفظهما ووزنهما وحر كائهما ولا يختلفان إلا من جهة المعنى . كقوله تعالى : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِثُ السَّجْرَ مِمَّنْ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ^(٥) » . فالساعة

(١) نقل السائر ج ١ ص ٢٨٦ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ .

(٣) التمام ص ٢٨٢ .

(٤) القرار ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٥) الروم ٥٥ .

الأول : القيامة . والساعة الثانية : واحدة الساعات . ومنه قوله — عليه السلام
« غلثوا بين جرير والجرير » أي : دعوا زعماءه .

ومنه قول أبي تمام :

فأصبحت غررُ الأيام مشرفةً بالنصرِ نصائحك عن أيامك الغرر

فالغرر الأول : استعارة من غرر الوجه . والثانية : مأخوذة من غرة الشيء
أي : أكرمه .

وقوله :

من الثوم حملاً أبهى الوجد والدى وليس بنانٌ يستندى منه بالجمد

فالجمد : الحديد . والبنان الجمد : ضد السبط . فأحدهما يوصف به السخي
والآخر يوصف به اليخيل .

ومنه :

ملعات من كرم الزمسان فانه يخيا لدى يحيى بن عبد الله

والجناس الناقص يأتي على أنحاء مختلفة ومنه :

١ — المختلف : وهو أن تكون الحروف متساوية في تركيبها مختلفة في
وزنها كقوله — عليه السلام — « اللهم كما حسنت خلقي حسن خلقي »
فهاتان اللفظتان متساويتان في التركيب مختلفتان في الوزن . ومنه قولهم « البدعة
شرك التبرك » .

٢ — المطلق : وهو أن تختلف الأحرف وتتفق الكلمتان في أصل واحد
يجمعهما الاشتقاق . كقول جرير :

فما زال معقولا عقالاً عن الندى

وما زال محبوساً عن المجد حابساً

وقول أي تمام :

لعل الطول "الضعف" في كل موقف
وتمثل بالعبر "الذي" المواسيل

وقول البحري :

صدّق "الغراب" لقد رأت حمولهم
بالأفكس تعرب عن جوابية غرضية

فجاءت ثلاثة أشياء هي : الغراب ، وتعرب ، وغراب .

وسمي هذا النوع مطلقا ، لأنه لا يشترط فيه أمر معين ، وهذه تسمية
البربري . أما إن أتى الاصبع المصري فسادا ، نجس التعبير ، وقال : " وهو
أن تكون إحدى الكلمتين اسما والآخرى فعلا " (١) .

٣ - المركب : وهو أن لا يجمع اللفظان لاشتقاق لكن بينهما موافقة من جهة
الصورة مع أن أحدهما من كلمتين والآخرى من كلمة واحدة ،
كقوله :

إذا مديك لم يكن ذاهبه ذاهبه فذوله ذاهبه
فـ ذاهبه كلمتان هما : " ذاه " و " به " أي العاه . و ذاهبه
الثانية كلمة واحدة ، بمعنى ماضية .

وقوله :

وكم بحداد أراخرين كنيه من محال سجد في محال جند

وقول الآخر :

يا من تدل "برجسة" وألملم من عندكم

(١) شرح الفصحى ص ١٠٤ .

فلي جعلت لك الفدا الحلالا عينك عن دم

٤ - المديك : وهو أن نهي الكائنات متجانسي اللفظ متطفي الحركات والركة
خلا أنه ربما وقع بينهما مخالفة. كقوله تعالى : (وَتَمَسَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)
إلى رَبِّكَ يُسَمِّئُكَ السَّاقُ^(١) . وكقوله - عليه السلام - : (المسلم من
سكبه الناس من لسانه ويده) .

وكقول أبي تمام :

يَدُونَ مِنْ أَيْدِي عَوَاصِرِ عَوَاصِمِ
تَصُولُ بِأَسْيَافِ قَوَاصِرِ قَوَاصِمِ

وقول الجحري :

لَنْ عَدَدْتُ عِلَّا قَرِيبَتْ الْقَصِيرِ
صَوَادٍ إِلَى تِلْكَ التَّغْيِيسِ صَوَادٍ

وقول الآخر :

وَكَمْ حَبَلَتْ مَاءَ أَيْ عَصَافَةٍ
ثَنَانِي مِنْ تِلْكَ الْعَوَافِ وَارْفُ
وَكَمْ غَوَّرَ مِنْ بَرَّةٍ وَأَطْلَفِ
لَشُكْرِي عَلَى تِلْكَ الطَّلَافِ طَائِفِ

٥ - المردوح : وهو أن تأتي في أواخر الاسجاع في الكلام المنثور أو القوافي
من المنظوم لفظان متجانسان إحداهما ضميمة إلى الأخرى على جهة
التثنية والتكملة لهما ، كقول أبي سبي :
أَبَا الْعِيَّاسِ لَا تَحْسَبْ لَشَيْيِ بَاتِي مِنْ حُلِّ الْأَشْعَارِ حَارِ

(١) الباء ٢٩ و ٣٠ .

فلي طبع كلسالهم معين زلال من ذرى الأحجار جاز

وذكر ابن الأثير أن اسمه «الجنب» وهو ليس من الجناس . بل بلزوم ما لا يلزم أولاً ، لأن الجناس اتفاق اللفظ والاختلاف المعنى وههنا لم يتفق إلا جزء من اللفظ وهو أقله . فالعين والراء تساويا في البيت الأول في قوله : الأشعار ، و « عسار » وألهم والراء تساويا في البيت الثاني في قوله : الأحجار ، و « جاز »^(١) . ويرى الصلدي أن هذا من الجناس المزدوج . وأن لزوم ما لا يلزم نوع التمجيز^(٢) .

٦ - المصحف : وهو الأتيان بكلمتين متشابهتين خطأ لا لفظاً . ويقال له « تجسس الخط » أيضاً كقوله تعالى : « ودمهم ينحسبون »^(٣) أنهم ينحسبون منسأ^(٤) . وكقول البحرى يمدح المعتز بالله :

ولم يكن المعتز بالله إذ شرى لي عجز والمعتز بالله طالبيه

وقال ابن سنان إن هذا اللون أقل صفات المجانس . لكنه مبني على جناس أشكال الحروف في الخط . وحسن الكلام وقبحه لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة^(٥) .

٧ - المضارع : وهو أن يجمع بين كلمتين لا يختلف بينهما إلا في حرف واحد كقوله تعالى : « وجنود يومئذ ناضرة »^(٦) إلى ربها ناظرة^(٧) وقوله : « ذلكنم بما كنتم تكفرون » في الأرمز بغير الحق وبما كنتم تكفرون^(٨) . وقوله : « وإذا جاءهم أمر من الأَمْرِ^(٩) »

(١) الفلج المخرج ١ ص ٢٦٢ - والجمع الكبير ص ٢٦٢ .

(٢) لمرة القاموس ص ١٤٤ .

(٣) الكهف ١٠٤ .

(٤) سر القصاص ص ٢٢٢ .

(٥) القاموس ص ٢٢٢ .

(٦) انفار ٧٤ .

(٧) السجدة ١٢ .

وقوله : « وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ عَنْهُمْ وَيَسْتَلْزِمُونَ عَنْهُمْ »^(١) . وكقوله - عليه السلام - : « الغيلُ معقودٌ يتوابعها الخيرُ » .

ومنه قول البحري :

هل لما فات من تلاقٍ تلافٍ أو لشاكٍ من الضايعة شافٍ

وهي تسدية قدامة بن جعفر^(٢) .

٨ - المعكوس : وهو عربان :

أحدهما : عكس اللفاظ .

وقالهما : عكس الحروف .

فالأول كضوئهم : « عاداتُ الساداتِ ساداتُ العاداتِ » . وقول الأبيات
أين قرع :

قد يجمعُ المالُ غيرَ أكيليسه وبأكلِ المالِ غيرُ من جمعة
ويقطعُ الثوبَ غيرَ لايسيه وبليسِ الثوبِ غيرُ من قطعة
وقول الشنبي :

فلا يجدُ في الدنيا لمن قال « مالهُ » ولا مالُ في الدنيا لمن قال « متجَدُّدُ »
وقول الشريف الرضي :

أسفَ ابنُ بطيرِ أن العسالي وخارَ من يسفَ أن الدبابسا
وقول الآخر :

(١) الأعم ٢٦ .

(٢) مر القضاة ص ٢٢٦ .

إنَّ القِبَالِيَّ لِلْأَنْسَامِ مَنَاهِلٌ^(١) تُطْشَرُ وَتُشْتَرُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ^(٢)
فَقِصَارُهُنَّ مِنَ الْمُسَرِّحِ طَوِيلَةٌ^(٣) وَطَوِيلُهُنَّ مِنَ السَّرُورِ قِصَارٌ^(٤)

وسمى قدامة هذا النوع « التبديل » . وذلك اسم مناسب لسماء : لأنَّ
مؤلف الكلام يأتي بما كان مقلدا في جزء كلامه الأول مؤخراً في الثاني .
وبما كان مؤخراً في الأول مقدماً في الثاني^(٥) .

ومن هذا القسم قوله تعالى : « يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ^(٦) » . وقوله عليه السلام : « جاز الدار أحق بدار
الجوار » .

ومثال الضرب الثاني قول بعضهم :

كيف السرور باقبالٍ والحرَّ
إذا تأملته مقابلاً إقبالٍ

وأراد أنَّ مقابلاً « إقبال » : لا بقاء .

وهذا النوع تادر الاستعمال لأنَّه قلما تقع كلمة تقاب حروفها فترجيء
معناها صواباً^(٧) .

والحقوا بالجناس نوعين :

أحدهما : أنَّ يجمع اللفظين الاشتقاق كقوله تعالى : « نَأْتِيهِمْ مِنْ جِهَتَيْنِ^(٨)
لِيَلْذُقُوا الْقُبْحَ^(٩) » . وقوله : « فَارْجِعْ وَارْجِعْ^(١٠) » . وقوله النبي -- عليه
السلام -- : « الظَّالِمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » . وقول أبي تمام :

(١) لفظ السائق ج ١ ص ٢٦٦ . والفرار ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) إدوم ١٩ .

(٣) لفظ السائق ج ١ ص ٢٦٢ .

(٤) إدوم ١٣ .

(٥) أوقفة ٨٩ .

وَأَعَدْتُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْسَامٍ دَارِكْسِمٍ
 فَيَا دَمْعُ أَتُجِدُنِي عَلَى سَاكِنِي الْجَدْرِ
 ويرى ابن الأثير وابن قيم الجوزية أنَّ هذا جناس وإنَّ عدَّةَ بعضهم أصلاً
 بنفسه . ويسميه بعضهم « الاقتضاب »^(١) .

وثانيهما : أنَّ تجمعهما المشابهة . وهي تشبه الاشتقاق وليس بها . فقول
 تعالى : « قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ »^(٢) . وقوله : « وَجَسَّسَ الْخَفِيِّينَ »^(٣)
 فإنَّ «^(٤) » وقول البحري :

وَأَمَّا عَارِيَا حُجْرَتِكَ هَبَّتْ صَارَ قَوْلُ الْعِدَاةِ قِيلَ هَبَّاءُ
 ويسمى هذا النوع « المشابهة »^(٥) .

وذكر علماء البديع نوعاً آخر هو « الجناس المعنوي » الذي قال عنه ابن حجة
 « المعنوي طرفة من طرف الأدب عزيز الوجود »^(٦) . وهو ضربان : تجنيس
 إضمار . وتجنيس إشارة .

المضمر : هو أن يضمر النظم ركناً التجنيس . ويأتي في الظاهر بما يرادف
 المضمر للدلالة عليه قال : « قدَّرُ المراد أي باللفظ فيه كتابة تدل على المعنى
 المضمر كقول أبي بكر بن عباد وقد اصطحب خمرة ترك بعضها إلى الليل
 قصارت خلاً » :

أَلَا فِي سَيْلِ الْهَرِّ كَأَنَّ عِدَاةً
 أَكُنَّا بَطْعَمَ عَنْهَدِهِ غَيْرَ ثَابِتٍ

(١) اللؤلؤ المكنون ج ٢ ص ٢٢٧ . وفتح الكبير ص ١٩٨ . وكنايم القول ص ٢٢٠ .

(٢) التمر ١٠٦٨ .

(٣) الرحمن ٥١ .

(٤) القول ص ٢٢٠ .

(٥) خزائن الأدب ص ٥١ .

حكمت بنت بسطام بن قيس صبيحةً
وأقسمت كجسم الشفري بعد ثابت

فبت بسطام بن قيس كأن أسها الصهباء . والشفري قال :

اسقنيها يساً يساً سواد بن عمر
إن جسمي من بعد حالي لحسل

والخل : هو الرقيق الهزول فظهر من كناية القفط الظاهر جينسان مضمران
في صهباء وخل .

والثاني : جناس الإشارة والكتابة . وسبب وروده في النظم أن الشاعر
يعقد المجاسة في بيته بين الركنين في الجناس فلا يوافقه الوزن على إبرازهما
فيفسر الواحد ويعدل إلى مرادف فيه كناية لطيفة تدل عليه . وهذا لا يتفق في
لشعر . ومنه قول دحبل في امرأته سلى :

إني أحبك حبساً لو تضمنته
سلمى سبيتك ذاك الشاهق الراسي

فالكتابة في « سديك » لأنها أشعرت أن الركن المضمر في « سلمى »
يظهر منه جناس الإشارة بين الركن الظاهر والمضمر في سلمى وسلى الذي هو الخيل .
وهذا الجناس غير ظاهر ، ويحتاج إلى ثقافة ومعرفة لوجود المعنى ، ولذلك
فهو أقرب إلى التورية أو الكتابة .

وهذه الأقسام الكثيرة متداخلة ولم يتفق البلاغيون عليها أو على تسدياتها .
فإن الكثير — مثلاً — أخرج الزدوج أو اللجنب من الجناس وعدّه من « لزوم ما
لا يلزم » وعدّه الصدقي من الجناس . وأدخل ابن الأثير « عكس الحروف »
فيه . وأدخله الصدقي في « رد الاعجاز على الصدور »^(١) وفي ذلك ما يدعو إلى

(١) ينظر مقال السائل ج ٦ ص ٢٦٥ . وإتباع الكبير ج ٢ ص ٢٦٤ . وأما الأثر ص ١٤٨-١٤٩ .

تقسيمه الى تام و ناقص وينتصر من الناقص على اوضحه وأشهره .

والجناس كغيره من المحسنات لا يحسن إلا إذا اقتضاء المعنى وتطلبه ، وكان عبد القاهر قد أولاه عناية كبيرة وأوضح ميزته وتأثيره فقال : « فذلك لا نجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه . وحتى نجد لا ينبغي به بدلاً ولا نجد عنه حولا . ومن هنا كان أهل تجنيس نسميه وأعلامه وأعلامه بالجناس الأول ما وقع من غير قصد من المتكلم الى اجتلابه وتأليب اطلابه ، أو ما هو حسن ملامته — وإن كان مطلوباً — بهذه الميزة وفي هذه الصورة وذلك كما يثلون به أبدأ من قول الشافعي — رحمه الله تعالى — وقد سئل عن السيل فقال : « أجدع أهل الحرمين على تعريته » ، ومما تحواه كذلك قول البحري :

يحيى عن المجد الغي^١ وليس توى

في مؤدد^٢ أربأ لغبير أربيس

وقال : « فان ساعدك الخد كما ساعدني قوله :

أو دعائي أمست^٣ يا أودعائي

وكا ساعد أبا تمام في نحو قوله :

وأجددكم من بعد إنهم داركم

فيا دمع^٤ أجدني على ساكني الجند

فذاك . وإلا أطلقت الشكك العيب وأفضى بك طلب الاحسان من حيث لم يحسن الطلب الى أفضح الاساءة وأكبر الذنب » .

وعلى جمال الجناس بقوله : « أما التجنيس فذلك لا تستحسن نجاس المتكلمين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ولم يكن مرمى اجتماع بينهما مرمى بعيداً ، أترك استطعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبتُ بمنزله الساحة قالتون
فيه الظنون أمتهُ خبٌ أم مذهِبُ

وامتحننتُ نجس القاتل :

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث :

ناظره فيما جنى ناظره
أو دعائي أمتُ بما أودعاني

لأمر يرجع إل اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت
في الثاني ؟ ورأيتك لم يزدك بـ « مذهِب » و « مذهِب » على أن أسمعتك
حروفاً مكررة لزوم لها فائدة فلا تجدّها إلا مجهولة منكّرة ورأيت الآخر قد
أعاد عليك اللفظة كأنه يندعك عن الفائدة وقد أعطاها ويوهبك كأنه لم يزدك
وقد أحسن الزيادة ووفّاها . فبهله السريرة صار النجس وتخصوصا المستوفى
منه المتفق في الصورة من حل الشعر ومذكور في أقسام البدع .

وقال : « واعلم أن النكتة التي ذكرتها في النجس وجعلتها العلة في
استيجابه القضيّة وهي حسن الافادة مع أن الصورة صورة التكرير والاعادة ،
وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذي لا يمكن دفعه إلا في المستوفى للمتنق
الصورة كقوله :

مسامات من كثرتم الزمان فأنه
يحيا لدى يحيى بن عبد الله

أو المرفوع الحارثي حلا المجري كقوله :

أو دعائي أمت بما أودعاني

لقد تصورني غير ثابت من أقدامه أيضا . فمسا يظهر ذاك فيه ما كان نحو
قول أبي تمام :

يتدنون من أهدى عواصم عواصم
تعدون بأسياف قواصم قواصم

وقول البحري :

لئن صدقت عينا قربت النفس
صوامر أن تلك الوجوه الصواف

وذلك أنك تنهم قبل أن يرد عليك بحر الكلمة كالم من « عواصم »
والياء من « قواصم » (أيا هي التي) فقد أراد أن تجر بك ثانية وتعود
اليك من كدة حتى إذا تمكن في نفسك تمامها و« عي سمعت أعرجها انصرفت عن
طنك الأكرال وزلت عن الذي سبق من التخلي . وفي ذلك ما ذكرت لك من
طالع القائدة بعد أن خافك الأس منها « حصول الريح بعد أن تغالط فيه حتى
تري الله الأس الخال »^(١).

وهذا أصدق تعليل بخلاف إختصاص وذلك حينما يتطأه المعنى ويستدعيه .
وقد سار القزويني على خطا عبد القاهر في الحديث عن تأثير هذا الفسح
« جماله »^(٢) . وقال السبكي عن صاحب « كنز اللغة » أن « أهدى التجنيس هي
الميل إلى الاستعارة إليه فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا » وإصلاح إليها . ولأن اللفظ
لشأنك إذا حصل على معنى ثم جاء المراد به معنى آخر كان لنفس تشوق إليه^(٣) .
ولو نظر إليه البلاغيون كما نظر عبد القاهر لما أصبح قيا مثقلا بالترساسة
والتحسين اللغوي . ولما هام به الشعراء في النهود الأخيرة . كما دفع ابن حجة

(١) أسرار اللغة ص ٩ - ١٩ . وذلك الأصح ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) الأصح ص ٣٥٤ .

(٣) عروض النراج (عروض الصغير) ج ٢ ص ٤١٢ .

الحموي - وهو المتأخر - أن أن يدعمه ويفضل عليه التورية ويقول : « وأما الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ، وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن كلاً منها يؤدي إلى العبادة والتقييد عن إطلاق عنان اليلاعة في مضمار المعاني المتكررة ^(١) » ، وهو في ذلك يشير إلى اهتمام الصلدي به وتأليفه كتاب « جناس الجناس » الذي قسمه فيه إلى ما لم يكن تقسيمه فجاء ما يقارب الستين قسماً .

وحاول المحدثون أن يعللوا جمال هذا الفن فقال الدكتور إبراهيم سلامة أنه لا يخرج عن نظرية تداعي الألفاظ وتداعي المعاني في علم النفس ، فهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضها في الجرس وألحنتها في المعنى . كما يولد المعنى الأول معنى ثانياً وثالثاً . وهذه الناحية النفسية هي التي نشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة إذا كان ملماً بلغته ، محمداً بدوقها ، عالماً بتصاريفها واشتقاقها ^(٢) .

وأرجع الأستاذ علي الجندي جمال الجناس إلى ثلاثة أسباب :

الأول : تناسب الألفاظ في الصورة كلها أو بعضها ، وهو مما يهتدئ إليه اللوق ويرتاح له .

الثاني : التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً فيطرب الأذن ويوقن النفس وينبأ أوتار القلوب .

الثالث : التلاعب الأخف الذي ياجأ إليه المجتهد لاختلاط الأذهان واختلاط الأفكار ^(٣) .

وما قاله عبد القاهر قبلهما يوضح هذا الفن ، ولا يكاد كلامهما يخرج عما

(١) بحرارة الأدب ص ٢٠ .

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ص ١١٧ .

(٣) فن الجناس ص ٢٩ .

ذهب إليه . وإن كان الدكتور سلامة قد استخدم المصطلحات الحديثة كتداعي الألفاظ وتداعي المعاني وغير ذلك مما لم يكن معروفا عند القدماء .

رد العجز على الصدر :

وهو في الشر أن يجعل أحد القطبين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أول الفقرة والآخر في آخرها ، كقوله تعالى : « وَتَخَشَّيْتُ النَّاسَ » والله أعلم أن تخشاه^(١) . وقوله : « اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا^(٢) » وفي الشعر أن يكون أحدهما آخر البيت والآخر في صدر الصدر الأول أو حشوه أو آخره أو صدر الثاني^(٣) .

وهذا الفن هو النوع الرابع من ينابيع ابن المعتز وقد سماه « رد أعجاز الكلام على ما تقدمها » وقسمه إلى ثلاثة أنواع^(٤) . وسماه ابن رشيق وابن قيسم البخوزية وابن حجة الحموي « التصدير » ، وهذا الاسم أخف على السمع وأليق بالمقام^(٥) . وأدخله ابن الأثير في الجناس وقال : « ورأيت الغاني قد ذكر في كتابه بابا وسماه « رد الأعجاز على الصدور » فخرجنا عن باب الجنبين » وهو ضرب منه وقسم من جملة أقسامه كالذي نحن بصدد ذكره هنا . فما أورده الغاني من الأمثلة في ذلك قول بعضهم :

ونشترى بجميل الصنم زكراً طيباً نشتر
ونشترى بسيف الهند من أسرف في الشتر

(١) الشراب ص ٢٧ .

(٢) توح ١٠ .

(٣) التوضيح ص ٢٩٠ .

(٤) التلخيص ص ٤٧ .

(٥) المعنى ص ٢ من ٣ - والفوائد ص ٢٢٩ - وعزلة الأدب ص ١١٤ .

وَجَرِي فِي شَرِّ الْحَمْدِ عَسَلِ شَاكِلَةِ الْيَحْيَى

وَكَلَّمْتُ قَوْلَ بَعْضِهِمْ فِي النَّبِيِّ :

يَا بِسَامِيًّا أَقْرَى هَمُوعِي حَتَّى

عَادَ مِنْهَا مَوَادُّ عَيْنِي بِرِسَالَتِي

وَكَلَّمْتُ قَوْلَ الْيَحْيَى :

وَأَعْرَفَ فِي الرُّمُوزِ الْبَهِيمِ مَحَبَّتِي

قَدْ رَحُّتُ مِنْهُ عَلَى الْخُرِّ مُتَحَيِّرٌ

كَسَالِيكِلِ الْمَيْتِي إِلَّا أَنْتَ

فِي الْحَسَنِ جَاءَ تَصَوُّرُهُ فِي هَيْكَلِي

وليس الأخذُ على المعاني في ذلك مناقشة على الأسماء وإنما المناقشة على أن

ينصب نفسه لإيراد علم البيان وتوضيح آيائه ويكون أحد الأبواب التي ذكرناها

داخلًا في الآخر فيذهب عليه وينضى عنه وهو أشهر من قلبي الصباح ^(١) .

وذكر العلوي أن الاشتقاق ورد العجز على صدر متقاربان ، والثاني

أعم من الأول . وذكر أنه وارد في النظم ثارذ وفي النثر أخرى ويأتي على

شروط ^(٢) .

الأول : أن يكون الصدر والمجز متقاربان في الصورة كقوله تعالى

« وَتَخَشَّيْتُ النَّاسَ » والله أحق أن تخشاه ^(٣) . وقوله : « لَا تَنْتَشِرُوا عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا فَيُنْصِبْ عَلَيْكُمْ بُعْدَابًا وَقَدْ خَابَ مَنْ خَدَّرْتَنِي ^(٤) » . وقولهم :

« الْقَتْلُ الْقَتْلُ الْقَتْلُ » . وقول بعض الشعراء :

(١) الفخر السراج ٦ ص ٢٥٢ .

(٢) الفخر السراج ٦ ص ٢٩١ .

(٣) الأعراب ٣٧ .

(٤) ط ٦٦ .

سُكْرَانٍ سَكْرٌ هَوِيَّ سَكْرٌ مُدَامَةٌ
أَتَى بِغَيْقٍ فَتَى بِسَهْ سَكْرَانٍ
وقول الآخر :

سَرِيعٌ إِلَى ابْنِ الْعَمِ يَتَلَطَّمُ وَجْهَهُ
وَأَيْسَ إِلَى دَاعِيِ النَّدَى بِسَرِيعٍ
الثاني : أن يتفقا صورةً ويختلفا معنى : كقول بعضهم :
بَسَارٌ مِنْ سَجِيَّتِهَا الْمَنَابَا وَيُسْنَى مِنْ عَطِيَّتِهَا الْبَسَارُ
فاليسار الأول الخارجة . والثانية من المسرة وهي تقيض الإيسار .
الثالث : أن يتفقا في المعنى ويختلفا صورة كقول ابن أبي ربيعة :
وَأَسْتَبَدْتُ مَرَّةً وَاحِدَةً
لِأَمْسَا الْعَاجِزِ مَتْنٌ لَا يَسْتَبْسَدُ
وقول الآخر :

تَحَبَّبْتُ أَنْ أَلْقَى سَلِيمًا وَمَالِكًا
عَلِ سَاعَةٍ يُنْسِي الْخَمَامُ الْأَمَانَا
الرابع : أن يتفقا في الاشتقاق ويختلفا في الصورة كقول البحري :
ضَرَابُ أَسْدَتِهَا فِي السَّمَاءِ
حَرِّ فَلَمَّا نَرَى لَكَ فِيهَا ضَرْبًا
وقول جرير :

أَحْلَبَتْهَا وَصَدَّتْ أَمَّ عُلَّامٍ
أَتَجْمَعِينَ خِلَابَةً وَصَدَدَا ؟
الخامس : أن لا يلتقيا في الاشتقاق ويتفقا في الصورة كقول الحريري :

ولاحَ يَلْحَى على جرى العنان الى
ماهى فُسْحًا له من لاسِحٍ لاح

قد « لاح » الأول ماضي « يلاح » بمعنى ظهر - و « لاح » في آخر البيت
اسم فاعل من لَحاه تعني أبعد - فهما متجانسان لفظاً مختلفان معنى ويجمعهما
الاشتقاق.

السادس : أن يقع أحد اللفظين في حشو المصراع الأول من البيت ثم يقع
الآخر في عجز المصراع الثاني وهو على ثلاثة أوجه :

١ - أن يكونا متفقين صورةً ومعنى كقول أبي تمام :

ولم يتحلَّلْ مضاعَّ العسر شيءٌ
من الألياء كالتسار المصاح

٢ - أن يقع على هذا الحد ويتفقا صورة لا معنى كقول الشاعر :

لا كان إنسانٌ تَتَبَّعَ صائدًا
صيدَ المها فاصطاده إنسانُها

٣ - أن يقع على هذه الصفة لكنهما يتفقان معنى وبخلافان من جهة الصورة
كقول امرئ القيس :

إذا الرما لم يحزنْ عليه إنسانه
فليس أن شيءٍ سواه يغسركن

وقول الحريري :

ولو استقامتْ كانتِ الأحولُ فهما مُستقيمه

السابع : أن تقع إحدى الكلمتين في آخر المصراع الأول موافقة لما في
عجز المصراع الثاني . ومنى كان الأمر كذلك فهو على وجهين :

أحدهما : أن تكون الموافقة في المعنى والصورة كقول أبي تمام :

ومن كان بالبيض الكواكب مغرماً

فما زلت بالبيض القواضب مغرماً

وثانيهما : أن تكون الولاية بينهما في الصورة دون المعنى كقول

الحريري :

فمشغولاً بآيات الشاني ومنشغولاً برسبات الشاني

الثامن : أن يلاقي أحد المتضمنين الآخر في الاشتقاق وبخلافه في الصورة

كقول الحريري :

فعلك إن سئلت لست مطيع

وقولك إن سئلت لست مطاع

التاسع : أن يقع أحدهما في أول المصراع الثاني موافقاً لما في عجزه صورة

ومعنى كقول بعضهم :

وإن لم يكن إلا معرج ساعسة

قليلاً فاني ذائع في قليلها

العاشر : أن يكونا مشبهين في الاشتقاق لفظاً والمعنى بخلافه كقول

الحريري :

ومضطربع بتلخيص المعاني

ومضطربع أن تخلص المعاني

اللفظ الأول ، المعاني « من » غنى - يعني « ، والثاني « عاني » اسم فاعل

من « عا - يعنو » . والجمع بينهما شبه الاشتقاق .

وعلا الف ياتي أن يراعى فيه جانب المعنى كأي محسن آخر ، وإلا

أصبح قللاً لا يقبله الذوق ولا تروح إليه النفس . وقد ذكر ابن المعتز بعض أمثاله
الغريبة كقول الشاعر :

يتحني بصرُ المباسم بالخصي

ولا يسارق إلا كرمه بصره

وهذا قد جمع على مثله بابين من بدیع الكلام هما رد العجز على الصادر
والاستعارة .

وكقول الآخر :

زُرْكَكْ شِمَقاً ولو أنَّ الشوى نُشِرَتْ

بُسْطُ الملا بيتاً يُعَدُّ لِرَبْسَالِكْ

وهذا أيضاً قد جمع نوعين من البدیع هما رد العجز على الصادر والاستعارة .
وليس بشيء ^(١) .

وذكر أبو حلال هذين البيتين وأضاف إليهما بيتاً معيماً ثالثاً هو :

إذا احتجب الغيث احتجب في ثيابه

فيضرب أمثالاً له أن تجيباً

وقال عن قيمة هذا الفن : « فأول ما ينبغي أن تعلمه أنك إذا قدمت ألفاظاً
لتفني جواباً والمرضي أن تأتي بتلك الألفاظ بالجواب ولا تتفعل عنها إلى غيرها
لما هو في معناها كقول الله تعالى : - وجزأه سبحانه - سبحانه مثلاًها ^(٢) » .
وكتب بعض الكتاب في خلاف ذلك : « من اقترف ذنباً عامداً أو اكتسب جرماً
قاصداً لزومه ما جاءه وحاق به ما نوحاه » . والأحسن أن يقول : « لزومه ما
اقترف وحاق به ما اكتسب » . وهذا يدل على أن لرد الاعجاز على الصادر

(١) البدیع ص ٤٣ .

(٢) الشوى ص ٤٠ .

«والله! جديلاً من البلاغة وله في الشظوم خاصة هملاً خطيراً»^(١) .

وقال ابن رشيق عن التصدير : « وهو أن يرد أصحاج الكلام على صدره فيدلّ بعضه على بعض ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ويكسب البيت الذي يكون فيه ألية ويكسوه رونقاً ودياجة ويزيدهم ألية وملاوة»^(٢) .

وقال رشيد الدين الوطواط إنه يعتمدُ من العلوم المختارة والصناعات المحببة الملبولة في باب البلاغة^(٣) .

وقال ابن حجة : « هذا النوع : أعني التصدير . ما برحت السهولة تارة بالكاف أقباله . فإنه سهل المأخذ ويعين على الأدب المعنوي أن لا يتركه سادجاً من لكمة أدبية يزاد بها بهجة»^(٤) .

وقال الدكتور إبراهيم سلامة أن الميزة تتمتع في هذا النوع من البلاغة فهي نوع من الدلالة . فالكلام الذي تردد القاطله ويرجع بعضها إلى بعض فيه تقوير وبيان وتذييل . ونوع من زيادة المعنى . ونوع من الإيحاء بالكلمة الثانية ، ونوع من الموسيقى يحدّثها التكرار .^(٥)

وأشار علي البخندي إلى مثل هذه الوجوه وأوضح ميزة هذا الفن وقيمه في التعبير .^(٦)

ويلاحظ أن رد العجز على الصدر قريب الصلة بالجناس ولذلك اضطرب عند بعض القدماء . وهو في أشكاله المختلفة ينبغي أن يراعى فيه ما يراعى في

(١) كتاب المستدرك ص ٣٨٥ .

(٢) الصمد ج ٢ ص ٢ .

(٣) خافي البحر ص ١١٠ .

(٤) خزائن الأدب ص ١١٥ .

(٥) بلاغة أرسطو ص ١٢١ - ١٢٩ .

(٦) فن الجناس ص ٢١٢ - ٢٢٠ .

الجناس وان يكون المعنى هو الذي يتقابه ويستدعيه ليزدي القذف الذي يسمى إليه التشكلم ولا سيما الشاعر الذي تعنيه كثيراً موسيقى القنط وإيقاؤه .

السمع :

هو توافق التواصيل في الكلام المأثور على حرف واحد ^(١) ، وهذا معنى قول السكاكي : « الاسجاع وهي في الشعر كما القوافي في الشعر » ^(٢) .

والسمع من أوصاف البلاغة في موضعه وعند مساحة القول فيه وأن يكون في بعض الكلام لا جميعه . فإنه في الكلام كتل القافية في الشعر . وإن كانت القافية غير مستغنى عنها في الشعر القديم والسمع مستغنى عنه . قال ابن وهب : « فلما أن يازمه الانسان في جميع قوله ورسائله وخطابه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعي من قائله » ^(٣) .

وقد ذمّه البعض واستحسنه البعض الآخر . وسبب ذمه أنهم يرون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذم سجع الكهان حينما قال لبعضهم متكرراً عليه وقد كتلمه بكلام مسجوع : « أسجعاً كسجع الكهان » ٢ . ورأى ابن وهب ان الرسول (ص) أنكر ذلك ، لأن التشكلم أتى بكلامه مسجعاً ككلامه ، وتكلف في السجع كتكلم الكهان ، فلما إذا أتى به في بعض كلامه ومنطقه وكان ذلك على سجية الانسان وطبعه فهو غير منكروه ولا مكروه . بل قد أتى في الحديث الشريف ^(٤) ، ونطق به - صلى الله عليه وسلم - في كثير من كلامه حتى أنه غير التشكلم عن وجهها اتباعاً لما يقتضيه من أجل السجع فقال

(١) التل الساتر ج ١ ص ١٩٣ - والاسجاع ص ٢٩٢ .

(٢) نفاذ المأثور ص ٢٠٣ .

(٣) البرهان في وجوه البراهين ص ٢٠٩ .

(٤) البرهان في وجوه البراهين ص ٢٠٩ .

لا إله إلا الله - عليهما السلام - : « أعبدوا من الخامة والساعة وكل عين لامة » ،
 وإنما أراد « لامة » لأن الأصل فيها من « أَلَمَ فهو ملم » . وكذلك قوله - صلى
 الله عليه وسلم - : « أرْجِعْ مازورات غير مأجورات » وإنما أراد « موزورات »
 من « الوزر » فقال : « مازورات » مكان « مأجورات » طلباً للتوازن والسجع .

ورأى ابن الأثير أن النبي الكريم لم يذم السجع كله وإنما ذم ما كان مثل
 سجع الكهان لا غير . وقد ورد في القرآن الكريم . وعمل ذم بعضهم للسجع
 بقوله : « وقد فَمَّ بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة . ولا أرى لذلك
 وجهاً سوى عجزهم أن يأتوا به . وإلا فلو كان مذموماً لما ورد في القرآن
 الكريم فانه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة
 الرحمن وسورة القدر وغيرهما . وبالحيلة فلم تخل منه سورة من السور ^(١) » .
 وقسمته إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يكون الفصلان متساويين لا يزيد أحدهما على الآخر . كقوله
 تعالى : « فَأَمَّا الْيُكْيَمُ فَلا تَنْهَضْ . وَأَمَّا السَّائِلُ فَلا تَنْهَضْ ^(٢) » . وقوله :
 « والعاديات غيبها . فالمؤريات قدحا . فالمغيرات صبتا . فالترنن به
 لنفعا . فمستطن به جستا » ^(٣) .

والثاني : أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول كقوله تعالى : « بَلَى
 كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدُوا لَيْلِينَ كَذَّبَتْ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَوْهُم مِّنْ
 مَّكَانٍ يَبْعِدُ سَمِعُوا لَهَا نَغِيغًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا خَبِيرًا
 مَّقْتَرِنِينَ دَحْنُوا هَذَا لَيْلٌ ثَبُورًا ^(٤) » . وقوله : « وقالوا اتخذنا الرحمن

(١) مثل السور ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الضمى ٩ و ١٠ .

(٣) المعجزة ٦ - ٤ .

(٤) الفرقان ١٦ - ١٢ .

ولقد لقد جيتهم شيئا إدا . تكادُ السمواتُ يَتكَطَّرنَ منه وتَشْهَقُ الأرضُ وتنبِّهُ الجبالُ هذا^(١) .

والثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول . وهو عند ابن الأثير عيب فاحش ، وذلك أن السجع يكون قد استوفى أمدّه من الفصل الأول بحكم طوله . ثم يجيء الفصل الثاني قصيرا عن الأول فيكون كالشيء المتعثر فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها .

ثم قسمه على اختلاف أنواعه إلى السجع القصير . وهو أن تكون كل واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة وكلاما قاسم الالفاظ كان أحسن لقرب القواصل للسجوعة من سجع السامع . وهذا الضرب أوعر السجع منزعا وأبعد متناولا ولا يكاد استعماله يقع إلا نادرا .

والسجع الطويل وهو ضد الأول لأنه أسهل متناولا^(٢) .

وكل واحد من هذين الضربين تتفاوت درجته في عدة ألفاظ . أما السجع القصير فأحسنه ما كان مؤلفا من لفظتين لفظتين كقوله تعالى : « والمرسلات غررنا . فالعاصيات عَصَفَا^(٣) » . ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ وأربعة وخمسة وكذلك إلى العشرة . ولما السجع الطويل فإن درجته تتفاوت أيضا في الطول فمنه ما يقرب من السجع القصير وهو أن يكون تأليفه من إحدى عشرة إلى اثني عشرة لفظة وأحمره خمس عشرة لفظة . ومنه ما يكون تأليفه من العشرين لفظة أو ما يزيد على ذلك .

وأخذ العالوي بهذا التقسيم وتابع ابن الأثير في أن القصير أحسن وأوعر مسلكا من الطويل وأصعب مدركا وأخف على القلب وأعطي على السجع ، لأن الالفاظ إذا كانت قليلة فهي أحسن وأرق^(٤) .

(١) مرجع ٥٥ - ٩٠ .

(٢) انظر السائر ج ١ ص ٢٢٨ . وإدراج الكبير ص ٢٥٣ .

(٣) المجلدات ٢ و ٣ .

(٤) النظر ج ٢ ص ٦٢ .

وأضاف القزويني قسماً ثالثاً^(١) . وهو السجع المتوسط كقوله تعالى :
« أَفَرَأَيْتُمُ السَّاعَةَ وَالشَّعْرَ الضَّمِيرَ » . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَكُولُوا :
سِخْرًا مُسْتَسْمِرًا^(٢) .

وقسمه الشاعرون إلى أربعة أقسام هي^(٣) :

١ - المظروف : وهو أن يأتي المتكلم في أجزاء كلامه لوفي بعضها بإسجاع غير متتمة بوزنة عروضية ولا محصورة في عدد معين بشرط أن يكون روي الأسجاع روي القافية . كقوله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجِعُونَ لِلَّهِ وَقَارًا » . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا^(٤) .

٢ - المولوي : وهو أن تصق اللفظة الأخيرة من القريفة مع نظيرتها في الوزن والروي كقوله تعالى : « سُرُرٌ مَرْقُوعَةٌ » . وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ^(٥) .

٣ - المشاعر : وهو أن يكون لكل نصف من البيت قافيتان مغايرتان لقافيتي النصف الأخير . وهذا القسم يختص بالنظم . كقول أبي تمام :

تدبير معصوم بالله منتقم
لله مَرْتَجِبٍ في الله مَرْتَجِبِ

٤ - المربع : وهو مقابلة كل لفظة باللفظة على وزنها ورويها كقوله تعالى :
« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجُورَ لَفِي جَحِيمٍ »^(٦) .

ونقسم ابن الأثير أكثر وضوحاً ولقرب إلى روح هذا الفن . ولكن ولع المشاعرين بالتقسيمات دفعهم إلى هذه الاسماء الكثيرة والأتواع المختلفة .

(١) الأيضاح ص ٢٩٥ .

(٢) الشعر ١ و ٢ .

(٣) حركات الأقدام ص ٢٩٢ .

(٤) نوح ١٢ و ١٤ .

(٥) الحديد ١٣ و ١٤ .

(٦) القصص ١٣ و ١٤ .

والأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقايض الكلام . والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع . وشرط السجع الحسن أن يُصغى من القناعة وأن يكون اللفظ تابعاً للمعنى . وهو كما قال عبد القاهر : « لا تجد تجسماً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه . وحتى تجده لا ينبغي به بدلاً ولا تجد عنه حواً »^(١) .

وقال ابن سنان : « والمذهب الصحيح أن السجع محدود إذا وقع سهواً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة للفظ ، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأجله وورد ليصير وصاة إليه »^(٢) . وله سرٌّ بيّنه ابن الأثير بقوله : « وأعلم أن السجع سرٌّ هو خلاصته المطلوبة فإن عرّي منه فلا يعد به أصلاً . وهذا شيء لم ينبه عليه أحد غيري ... والذي أقوله في ذلك هو أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه الأخرى ، فإن كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه ، لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى باللفاظ يمكن الدلالة عليها بدونها . وإذا وردت سيجعتان بدلاً عن معنى واحد كانت أحدهما كافية في الدلالة عليه . وجلّ كلام النحّاس المسجوع جارٍ عليه »^(٣) .

ووضع للكلام المسجوع أربع شرائط :

الأولى : اختيار مفردات الالفاظ على الوجه الصحيح ، وذلك أن تكون جيدة .
الثانية : اختيار التركيب الحسن .

الثالثة : أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تابعاً للمعنى لا العنى تابعاً للفظ .

(١) أسرار البلاغة ص ٦٠ .

(٢) سر القصة ص ٢٠١ .

(٣) الفن الباهر ج ١ ص ١٩٨ . ولفظ العرّي ج ٣ ص ٢١ - ٢٢ .

الرابعة : أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعين دالة عن معنى غير المعنى الذي دللت عليه أختها .

وتسمى الكلمة التي تحتم بها الآية « فاصلة » لقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته »^(١) ، ومع بعضهم أن تسمى سجعاً وذلك :

١ - لأن أصل السجع من « سجع الطير » فشرّف القرآن الكريم من أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في مدوت الطائر .

٢ - لأجل تعريف كتاب الله عن مشاركة غيره من الكلام في اسم السجع الواقع في كلام الناس .

٣ - لأن الكتاب العزيز من صفات الله - عز وجل - فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد إلا في شأن « صبح المعنى » .

وفرقوا بين الفاصلة والسجع فقالوا إن الفواصل تتبع المعاني ولا تكون مقصورة في نفسها ، والسجع بقصد لنفسه ثم يحيل المعنى إليه .^(٢)

ومن أشهر الذين نقوا السجع عن القرآن الكريم أبو بكر الباقلائي (-٨٤٣هـ) متابعاً في ذلك استاذة أبي الحسن الأشعري ، لأن القرآن لو كان سجعاً لكان غير خارج عن أساليب العرب في كلامهم . ولو كان داخلها فيها لم يقع بذلك إعجاز .^(٣) ولعل ما كان من أمر السجع في عصره جعله يذهب هذا المذهب ويربط السجع باللفظ دون المعنى ، وإلا فهذا الفن كثير في القرآن وقد سماه معظم البلاغيين سجعاً ، ولا يقلل من قيمته أن يسميه فواصل لأننا حينما ننظر في تعريفهم لما نجد أنها عروضة متشاككة في المقاطع وهي تابعة للمعاني . ويمكن

(١) فصلت ٢ .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٥٤ .

(٣) انظر القرآن ص ٥٧ ، و انظر كتابه : المحاضرات في القرآن الرابع المجلد ص ١٥٢ وما بعده .

ان تجعل السجع تابعاً للمعاني أيضاً كما فعل عبد القاهر وابن الأثير . ونضربهم
الفواصل إلى وجهين :

أحدهما : على الحروف الشجائمة كقوله تعالى : « طه . ما أنزلنا عليك
القرآن لتشفي . إلا تذكرة لمن يخشى ^(١) » . وقوله : « والطور .
وكتاب مسطور ^(٢) » .

والثاني : على الحروف المتقاربة كالميم من النون في قوله تعالى : « الرحمن
الرحيم . مالم يوم الله بين ^(٣) » . وكذلك مع الباء في قوله : « ف . والقرآن
المجيد ^(٤) » . ثم قال : « هذا شيء عجب ^(٥) » .

— لا يخرج السجع منها ، ولو قال الباقلي إن الأجزاء لا يؤخذ من
السجع كما لا يؤخذ من فنون البلاغة الأخرى لكان أول . وله الحق في ذلك
ما دام ينسحب إلى أن كتاب الله معجز بنظمه وحسن تأليفه .

ومهما يكن من أمر فإن أكثر البلاغيين يسمونه سجعاً . وقد عرف هذا
الأسلوب منذ الجاهلية . وزخر به الأدب العباسي وصار صفة من صفاته في
بعض العهود . وأسرف بعضهم في استخدامه حتى وقف منه بعضهم موقف
المنكر لما ظهر فيه من تكلف وإسراف ولذلك نزه الأشعرية كتاب الله من هذا
الفن البدعي .

الترصيع :

وهو مأخوذ من ترصيع العقد ، وذلك أن يكون في أحد جانبي العقد من

(١) طه ١ - ٣ .

(٢) الطور ١ و ٢ .

(٣) المائدة ٣ و ٤ .

(٤) القصص ١ و ٢ .

(٥) ينظر التكملة في إيجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص ٩٠ ، ولكتب الإعجاز

ص ٢٢٦ .

اللقن، مثل ما في الخطاب الآخر، وهو من نعوت الوزن عند قدامة بن جعفر .
وقد عركه بقوله : « هو أن ينتهي فيه تصوير مقاطع الأجزاء في البيت على
سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف » (١) .

وقال أبو هلال : « هو أن يكون حشو البيت مسجوعاً » (٢) .

وقال ابن الأثير : « هو أن تكون كل لفظ من ألفاظ الفصل الأول
مساوية لكل لفظ من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية » (٣) .

ومضى ابن الأثير أن يكون هذا الفن في كتاب الله لما فيه من زيادة في
التكليف . وقال إنه قليل في الشعر . من ذلك قول بعضهم :

مكارم أوليتها دبر عسا وجرالم ألفتها متورعا

فـ « مكارم » بإزاء « جرالم » و « أوليتها » بإزاء « ألفتها » و « متورعا »
بإزاء « متورعا » .

ومنه قول الخضاء :

حامي الخليفة . محمود الخليفة . مهدي الطريقة . نفاع وضرار
جواب قاصية . جزال ناصية . عفتاد ألوية للخيل جدرار

ويسمى هذا النوع « المضادة » . وذكر الباقلائي أنه يقارب الترصيع (٤) .

وأدخل الكروبيني هذا اللون في السجع . وقال : « وقيل : السجع غير
مختص بالثر ، ومثاله من الشعر قول أبي تمام :

(١) نكتة الشعر ص ٢٩ .

(٢) كدب المصنفين ص ٣٧٥ .

(٣) نكتة المصنفين ج ١ ص ٢٦٦ . والجامع الكبير ص ٢٦٤ .

(٤) نظير المعجم الفرائد ص ٩٧ .

يُجَلِّى بِهِ رُشْدِي ، وَائْتَرْتُ بِهِ يَسْدِي
 وَقَاضَى بِهِ مُعْدِي ، وَلَوَزِي بِهِ زُكْدِي
 وَأَدْخَلُ فِي السَّجْعِ أَيْضاً التَّشْطِيرَ ، وَهُوَ أَنْ يُعْمَلَ كُلُّ مَنْ شَطْرِي الْبَيْتِ
 سَجْعَةً مُخَالَفَةً لِأَخْتِهَا ، كَقَوْلِ أَبِي نَهْمٍ :

لَدِيرٍ مَعْصُومٍ بِاللهِ مِنْتَقِصِمٍ اللهُ مَرْتَقِبٌ فِي اللهِ مَرْتَقِبٌ ^(١)
 وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ الْمُتَأَخَّرُونَ فِي السَّجْعِ ، فَبَيْتُ أَبِي نَهْمٍ الْأَوَّلُ مِنَ السَّجْعِ
 لِلطَّرَفِ ، وَالْبَيْتُ الثَّانِي مِنَ السَّجْعِ الْمُشْطَرِ .

وَقَدْ يَأْتِي التَّرْصِيعُ مَعَ التَّجْنِيسِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « وَالسَّابِقَاتِ سَبَّحًا .
 فَالسَّابِقَاتِ سَبَّحًا » ^(٢) ، وَقَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِ :

أَلَمْ يَمِزْ عَلَى الرَّيْحِ الْمَحِيْلَ وَأَطْلَالَ وَكَثَارَ مُجْهَوْلَ
 وَقَدْ أَوْلَعَ الشُّعْرَاءُ بِهَذَا فَكُتِبُوا مِنْهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ اقْتَنَعَ بِالتَّرْصِيعِ فِي
 بَعْضِ أَطْرَافِ الْكَلَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَيَّنَّ كَلَامَهُ كُلَّهُ عَلَيْهِ كَقَوْلِ ابْنِ الرُّومِيِّ :

أُبْدَانُهُنَّ وَمَا لَيْسَ مِنَ الْخَرِيرِ مَعَهَا حَرِيرٌ
 أُرْدَانُهُنَّ وَمَا مَسَّنَ مِنَ الْعَبِيرِ مَعَهَا عَبِيرٌ

وَيَحْسُنُ هَذَا الْفَنُّ إِذَا اتَّفَقَ لَهُ فِي الْبَيْتِ مَوْضِعٌ يَأْتِي بِهِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ
 مَوْضِعٍ يَحْسُنُ وَلَا عَلَى كُلِّ حَالٍ يَصْلُحُ ، وَلَا هُوَ أَيْضاً إِذَا تَوَاتَرَ وَاتَّصَلَ فِي
 الْآيَاتِ كُلِّهَا بِمَحْذُودٍ فَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ ، دَلَّ عَلَى تَعَمُّلٍ وَأَبَانَ عَنِ تَكَلُّفٍ ^(٣)

التصریح :

وَهُوَ فِي الشُّعْرِ بِمَنْزِلَةِ السَّجْعِ فِي الْقَصَائِدِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنَوَّرِ ، وَقَالَهُ

(١) الإيضاح ص ٣٩٤ - ٣٩٧ .

(٢) التلخيص ص ٤ .

(٣) ينظر لغة الشعر ص ٤٦ ، وكتاب المناظير ص ٣٧٧ ، ورسر المصاحفة ص ٢٢٢ .

في الشعر انه قبل كمال البيت الاول من القصيدة تعلم قافيتها . وهو أدخل في باب السجع ، وقد قسمه ابن الاثير إلى سبع مراتب وثانيه العلوي في ذلك ^(١) ، وهذه المراتب التي قال ابن الاثير انه لم يذكرها أحد قبله على هذا الوجه ، هي :

الاولى : وهي أعلى التصريع درجة ، أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه في فهم معناه . غير محتاج إلى صاحبه الذي يليه ، ويسمى التصريع الكامل كقول امرئ القيس :

أفطام متهلاً يتغنى هذا التذلل
والن كئنت قد أزمعت هجراً فلجئ

وقول الخنبي :

إذا كان مدحاً فالنسب للقدم
أكل فصيح قال شعراً مثبم

الثانية : أن يكون المصراع الاول مستقلاً بنفسه غير محتاج إلى الذي يليه فإذا جاء الذي يليه كان مرتبطاً به كقول امرئ القيس :

فقا نهشك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحوصل

فالمصراع الاول غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه لكن لما جاء الثاني صار مرتبطاً به . ومنه قول أبي تمام :

ألم يتأن أن تُروى الظباء الخوائم
وأن ينظم الشمل المبدد ناطيسم

وقول الخنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المسئل الثاني

(١) ينظر لئق السائر ج ١ ص ٢١٢ ، والفرز ج ٢ ص ٢٢ .

الثالثة : أن يكون الشاعر غير آني وضع كل مصراع موزون صالحه ،
ويسمى التصريح التوازي . كقول بعضهم :



من ثمرة الصبح في القوس
فان هذا البيت صراع الاول ثلثا ومصرعه الثاني اولا .
الاولى ان يكون مصراع الاول غير مستقل بنفسه ولا يفهم معناه
الا الثاني من غير ان يكون المصراع الثاني مستقلا ولا يفهم معناه
التي :
عظم الشعب طوبا في الفاس
بمترقبي الزبير من الرمس
فان المصراع الاول مستقل بنفسه في فهم معناه دون ان يذكر المصراع
الثاني .

الخامسة : أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة وسدأ وقافية . ويسمى
التصرع المكرر . وهو قسمان :
أحدهما : أقرب حالا من الآخر ويكون بلفظة حقيقية لا مجاز فيها .
كقول حميد بن الأبرص :

فكل ذي غيبة يسؤوب وغائب المسوت لا يؤوب
وقايدهما : أن يكون التصريح بلفظة مجازية يختلف المعنى فيها . كقول
أبي تمام :

فمن كان شربا للطاف ومترعنا لأصبح لهديته ليضر مترعنا
السادسة : أن يذكر المصراع الاول ويكون معلقا على سبعة يأتي ذكرها
في أول المصراع الثاني . ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

ألا أيتها الليل الطويل ألا التمسك
 بصرح وما الإصباح منك بتمسك
 فإن المصراع الأول معلى على قوله « بصرح » وهذا معيب جداً . وعليه
 ورد قول المتنبي :

قد علمت الين من الين أجفاننا
 تدمى وألف في ذا القلب أحزاننا

فإن المصراع الأول معلى على قوله « تدمى » .
 السابعة : أن يكون التصريع في البيت مخالفاً لفاقته ، ويسمى التصريع
 المشطور . وهو أول درجات التصريع وأقبحها ، ومن ذلك قول أبي نواس :
 أفطنى قد ندمت على الذنوب وبالأقرار عذبت عن الخمود
 فصرع يعرف الباء في وسط البيت ثم فقامه يعرف الدال . وهذا لا يكاد
 يستعمل إلا قليلاً نادراً .

وفي هذا الفن دلالة على سعة القدرة في ألقين الكلام ، وكان قدامة قد
 قال وهو يتحدث عن نعمت القوافي : « وربما صرعوا أبياتاً آخر من القصيدة
 بعد البيت الأول . وذلك يكون من القنطار الشاعر وسعة بصره . وأكثر من
 كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر » . وقال : « وانما يذهب
 الشعراء الطبعيون المجيدون إلى ذلك » لأن بنية الشعر إنما هو التسجيع والتفطية
 فكأنما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه كان أدخل له في باب الشعر وأخرج له
 عن مذهب الشعر (١) .

وقال ابن رشيق : « وقد كثر استعمالهم هذا حتى صرعوا في غير موضع
 تصريع ، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة » إلا أنه إذا كثر في القصيدة

(١) لغة الشعر ص ٤٩ ، ٦٠ .

دل "على التكلف إلا من" المتضمنين (١) .

وقال ابن سنان : « وكذلك اعتمد جماعة من الشعراء في بعض قصائدهم .
والتي أراه أن التصريح بحسن في أول القصيدة ليميز بين الابتداء والبرء ويظهر
قبل تمام البيت روي القصيدة وقايتها ... فلما إذا تكرر التصريح في القصيدة
فلست أراه مختاراً ، وهو عتدي يجري مجرى تكرار الرصيع والتجيس والمطابق
وغير ذلك . وإن هذه الأشياء إنما يحسن منها ما قل " وجرى منها مجرى القادة
واللمحة فلما إذا تواتر وتكرر فليس عتدي ذلك مرضياً (٢) » .

وقال ابن الأثير : « فلما إذا كثر التصريح في القصيدة فلست أراه
مختاراً (٣) » .

وقال ابن حجة : « وهو أثبت ما يكون بمطالع القصائد ، وفي وسطها ربما
تجده الألفاظ والاصماغ ... وعلى كل تقدير ليس في نوع التصريح كبير أمر
حتى يعد من أنواع البديع ، ولكن القوم كلما تغالوا في الرخص رغبوا في
الكثرة (٤) » . وله الحق في ذلك . لأن هذا الفن اقرب إلى مباحث الثقافة ، وقد
أحسن قدماء حينما تحدث عنه في نعت القوالي .

الموازنة :

الموازنة أن تكون الفاصلتان متساويتين في الوزن دون التقفية ، وهي قريبة
من بعض ألوان السجع غير أنه يكون مع اتفاق الاواخر في حين لا يشترط
فيها ذلك .

(١) المسدح ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) سر القصيدة ص ٢٢٢ .

(٣) النثر السائر ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) معرفة الأدب ص ٣٦٦ .

ومن الموازنة قوله تعالى : « وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ » وهديناها
 الصراط المستقيم^(١) ، وقوله : « مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَتَحَمَّلُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ وِزْرًا » خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حِمْلًا^(٢) .

وهذا الأسلوب كثير في كتاب الله ، ولقد ذكر ابن الأثير أنه يختص
 بالمشهور^(٣) غير أنه عاد وذكر له قول ربيعة بن ذؤابة :

إِنْ يَفْطُلُوكَ فَقَدْ ثَلَّثْتُ عَرُوشَهُمْ

بعثية بن الخارث بن شهاب

يَأْتِدُهُمْ بِأَسْأَ عَلَى أَصْحَابِهِ

وأعزهم فقدأ على الأصحاب

والبيت الثاني هو المختص بالموازنة فإن « بِأَسْأَ » و « فقدأ » على وزن
 واحد^(٤) .

ومن الموازنة قول أبي تمام :

مَهَا الْوَحْشُ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانِسُ

قَنَا الْخَطُ إِلَّا أَنْ تَكْ ذَوَابِلُ

فقوله : « أَوَانِسُ » و « ذَوَابِلُ » من الموازنة النقطية .

ومنه قول البحرني :

فَأَحْجَمَ لِمَا لَمْ يَبْدُ فَبَسْكَ مَطْعَمًا

وَأَقْدَمَ لِمَا لَمْ يَبْدُ عَنْكَ مَهْرَبًا

(١) الصافات ١٧٧ و ١١٨ .

(٢) طه ١٠٠ و ١٠١ .

(٣) اللؤلؤ السائر ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) اللؤلؤ السائر ج ١ ص ٢٨١ .

« المهرب » و « المصنع » متماثلان في الرفة .

وإلى ذلك ذهب العاوي وقال : « وورودها عام في الشظوم والشثور ^(١) » .

وذكر ابن رشيق أن^٢ من القابلة ما ليس مخالفاً ولا موافقاً كما شرطوا
إلا في الوزن والأردواج فقط فيسمى حينئذ « موازنة » نحو قول النابغة :

أعلاقي عهد تجلت ما عا ~~احتلست~~

في البأسر والجود بين الخلم والخير

ومن أصلاح الموازنة عنده قول ذي الرمة :

استحدثت الركب^٣ عن أشباعهم خيراً

أم راجع القلب من أطرابه ضرب^٤

فوازن بين استحدثت الركب « و » أم راجع القلب « » وبين « عن

أشباعهم خيراً » و « من أطرابه طرب » « وبين « الركب » و « القلب » وبين

« أشباعهم » و « أطرابه » و « خيراً » و « طرب » ^(٥) .

وحسن هنا الفن أنه يورث الكلام ملاحظة . وإذا كانت مقاطع الكلام
معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان . ويجيء ابن الأثير أنما للسجع
في المعادلة دون المماثلة . لأن في السجع اعتدالاً وزيادة عن الاعتدال . وهي
تمائل أجزاء الفواصل لورودها على حرف واحد . وأما الموازنة ففيها الاعتدال
الموجود في السجع ولا تمائل في فواصلها ، فيقال : كل سجع موازنة . وليس
كل موازنة سجعا . أي أن^٦ السجع أحص من الموازنة ^(٧) .

وفصل القزويني بين الموازنة والمماثلة . وقال : « فان كان في إحدى

(١) الفرائح ٢ من ٣٤ .

(٢) المسلك ٢ من ١٩ .

(٣) نيل الأثر ١ من ٢٧٩ .

القرنين من الالفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى في الوزن خصص^١ باسم المائلة .^(١) وذكرها بعض الأمثلة السابقة .

والموازنة والمائلة جميلة في الكلام إذا أحسن استعمالها . وقد قال ابن الأثير إن "لكلام في تلك طلاقة ورونقا وسببه الاعتدال"^(٢) . وأعطى أبو هلال الأزدواج منزلة كبيرة وقال : « لا يحسن منشور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً . ولا تكاد تجد ليلج كلاماً يخلو من الأزدواج ولو استغنى كلام عن الأزدواج لكان القرآن » لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق . وقد كثر الأزدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزوج في المواضع منه^(٣) .

وخال ابن حجة في ذم المائلة فقال : « هذا النوع أعنى المائلة ما تستحق عقود أنواع الديق بسموها أن ينتظم النوع السافل في أسلاكها . وما أعلم وجه الابتذال فيه ما هو . ولا أرى من استطاعه وعدّه ينبغي غير الكثرة . وقد حسن أن أنشد ههنا :

وكثير هارتابت ولو شاء قللسلا

وبالله ما اختلج في فكري من حين تأدبت أن أرضعه في قصيدة من قصائدي . ولكن حكم المعارضة لوجب ذلك^(٤) .

والغريب أنه ذم هذا الأسلوب مع أنه ذكر له قوله تعالى : « والسّام والطارق . وما أدراك ما الطارق » النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها

(١) التوضيح ص ٢٩٨ .

(٢) مثل السارح ١ ص ٢٩٨ .

(٣) كتاب الصناعات ص ٢٦٠ .

(٤) غرانة الذهب ص ٣٧١ .

حافظاً^(١) ، ، وذكر له ابن أبي الأصم وابن الأثير أمثلة من كتاب الله^(٢) .
 واسلوب التوازن له رونق في الكلام ويضفي جرساً يندفع على العبارات
 مما يكون له أكبر الأثر في الاصغاء إليه .

لزوم ما لا يلزم :

سماء بعضهم الالتزام والتضييق والتشديد والاعتناء ، وهذه ابن المعتز
 من محاسن الكلام ، وقال عنه : « من إعادت الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه
 من ذلك ما ليس له^(٣) » . وقال ابن الأثير : « وهو من أشق هذه الصناعة
 ملها وأبعدها مسلكتاً ، وذلك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه . فان اللازم في هذا
 الموضع وما جرى مجراه إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام
 المتشور في قوافيها . وهذا فيه زيادة على ذلك ، وهو أن تكون الحروف التي
 قبل الفاصلة حرفاً واحداً . وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روي
 الأبيات الشعرية^(٤) » .

وزاد العلوي في تعريفه فقال : « ويقال له الاعتناء ويرد في المنظوم والمتشور
 من الكلام . ومعناه في لسان علماء البيان : أن يلتزم الناظم قبل حرف الروي
 حرفاً مخصوصاً أو حركة مخصوصة من الحركات قبل حرف الروي أيضاً ،
 وهكذا القول في الردف فإنه يعمل على حد حرف متماثل . وهكذا إذا ورد
 في النثر يكون على هذه الطريقة . فحاصل الأمر في لزوم ما لا يلزم هو أن
 يلتزم حرفاً مخصوصاً قبل حرف الروي من المنظوم أو حركة مخصوصة^(٥) » .

(١) الطراز ١ - ٤ .

(٢) ينبع الفرق ١ ص ٦٠٧ ، والنقل الساتر ١ ص ٢٨٠ .

(٣) ينبع ص ٧٤ .

(٤) النقل الساتر ١ ص ٢٦٧ .

(٥) الطراز ٢ ص ٣٩٥ .

وقد ورد هذا المثل في القرآن الكريم إلا أنه يسير . من ذلك قوله تعالى :
 « إقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ^(١) » . وقوله :
 « وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ^(٢) » . وقوله : « فَذَكِّرْهُمَا أَنَّكَ أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
 بُكَاهِينَ وَلَا تَجْنُونَ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنَيْنِ ^(٣) » ،
 وقوله : « وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ؟ فِي مِدْرٍ مَضْجُودٍ
 وَطَلْحٍ مَبْثُودٍ ^(٤) » . وقوله : « قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ
 كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ . قَالَ : لَا تَخْصِمْنِي أَلَدَيَّ وَكَدَّ قَدَمَتُ الْيَكْمِ
 بِالْوَعْدِ ^(٥) » .

ومن التزام حركة الفتح قبل حرف الروي قول ابن الرومي :

مَا تُؤَادِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صِرَافِهَا
 يَكُونُ بِكَامٍ الْعَقْلُ سَاعَةً يُؤَلْسَدُ
 وَإِلَّا فَمَا يُكَيِّهْ مِنْهَا وَبِئْسَ
 لِأَوْعٍ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَزْغَسَدُ
 إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهْلَ كَأَنَّهُ
 بِمَا سَوَفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يَبْسَدُ

ومن أمثلة التزام الحرف قول عروة بن أذينة :

إِنَّ اللَّهَ زَعَمْتَ فَوَإِذَاكَ مَكْتَهَا
 خَلَقْتَهُ هَوَاكَ كَمَا خَلَقْتَ هَوِيَّ لَهَا

(١) المثل ١ و ٢ .

(٢) الطور ٦ و ٢ .

(٣) النور ٢٩ و ٣٠ .

(٤) الزاوية ٢٧ - ٢٨ .

(٥) ق ٢٧ و ٢٨ .

يضاء باكرها العيمُ فصاعدها
 بلباقته فاذنقتها وأجلها
 حجبنت تحيتها فنقلت لصاحبي
 ما كان أكثرها لنا وأقلها
 وإذا وجدت لنا وسائوس سلوة
 شفع الضمير أن القواد فسكتها
 ومن ذلك قول كثير عزة :

غلبني هذا ربع عسرة فاعقلا
 فوصيكما ثم أحذلا حيث حكت
 وما كنت أدري قبل عزة ما اليكا
 ولا موجهات الخرد حتى نلت
 هنيئاً مريئاً غير داء غمام
 لعزة من أعرافنا ما استحل
 فما أنا بالداعي لعزة بالجو
 ولا شامت إن نعل عزة زلت
 وإني ولها بمي بعزة بدعما
 نكحت مما يشا وتغلت
 لكالمترني ظل الغمامة كالسا
 تروا منها لندقبل اضحككت
 كاتي ولهاها سحابة منحلل
 رجاءها قلنا جاورته استهلت
 فان سأل الواشين بم حجرتها ؟
 قل : لنفس حرسكيت فسلت

وهذه الأبيات من قصيدة طويلة وهي مع ذلك سهلة لينة ليس عليها من أثر الكلفة شيء (١).

وكان هذا الفن في العهد الأول يأتي سهلاً متفاداً في البيتين والثلاثة بل في العشرين كما في قصيدة كثير عزة . ولكن للشأخرين أسرفوا في استعماله . وقد نظم أبو العلاء المعري ديواناً سماه : « التروميات » والتزم فيه بهذا الفن كسل الالتزام فجاء بعضه جيداً كقوله :

بِشْتِ عَنْ الدُّنْيَا وَلَا بَشْتِ لِسِي
فِيهَا وَلَا عَرَسٌ وَلَا أُخْتُ
وَقَدْ تَعَمَّقْتُ مِنْ الْوُزْرِ مَا
تَعَجَّرُ أَنْ تَحْلِسَهُ الْبُحْتُ
إِنْ مَدَحُونِي سَاءَ فِي مَدْحِهِمْ
وَعَلَيْتُ أَنِّي فِي الْبَرَى سِخْتُ

وبعضه من الأسرار والكلفة ، كقوله :

لَا تَطْلُبْ بِالْكِسْفِ لَكَ حَاجَةٌ
قَلَمُ الْبَلِغِ يَغْرُ جَدُّ مَيْسُوكُ
سَكَنَ السَّاكِنِ السَّاءَ كَلَاهَا
هَذَا لَهُ رَمَحٌ وَهَذَا أَعْرُوكُ

وبعضه متكلف وإن أجاد كقوله :

تَنَازَعُ فِي الدُّنْيَا سَوَاكُ وَمَا لَهُ
وَلَا لَكَ شَيْءٌ فِي الْحَقِيقَةِ فِيهَا
وَلَكِنَّهَا مَلِكٌ لِرَبِّهِ مَقْدَرُ
بَعِيرُ جَنُوبِ الْأَرْضِ مَرَدُ فِيهَا

(١) « شعر النثر » شرح ١ ص ٢٢٢ .

ولم تحفظ من ذلك النزاع بشئ
 من الأمر إلا أن تعدّ فيها
 فيا نفس لا تعظم عليك خطوبها
 فتتفوقها مثل متفوقها
 تداعوا إلى التزّز القليل في فجالدوا
 عليه وعظّموها لمعرفتها
 وما أم صيل أو حيلة ضيق
 بأظلم من دنسك فاعرفها
 ثلاث الوفود القادميةا بفرحة
 وتبكي على أسرار متصرفها
 وما هي إلا شوكة ليس عندها
 وجدك لإرطاب لمخترها
 كما نبذت للغير والوحش رازم
 فألقت شروراً بين غصنها
 تاءت عن الانصاف من خيم كرم
 سبلاً إلى غيايات متصرفها
 فاعلم قدأ عنها وكفأ ومقلدة
 وقيل لغويّ الناس فاك لغها

وقد ميّز ابن الأثير بين المتكلف وغير المتكلف ، وقال : « أما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية وذلك أن ينفي الحاضر في طلبه ، ويبحث على تبعه واقتصاص أثره ، وغير المتكلف يأتي مستريحاً من ذلك كله . وهو أن يكون الشاعر في نظم قصيدته أو المصنف في إنشاء خطبته أو كتابته قريباً هو كذلك إذ سجع له نوح من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب ، ألا ترى إلى قول أبي نواس في مثل هذا الموضع :

أترك الأطلال لا تبعاً بها إنها من كل يؤس دانيه
وانشعت الراح على خربتها إنما ديسالك دار فانيه
من عفسار من رآها قال لي صيدت الشمس لنا في آليه
والحق بهذا الفن تصغير الكلمات الأخيرة من الشعر أو من فواصل الكلام
المشهور ، كقول بعضهم :

عسراً على ليل بني سدير سواه مبيتي ليلسة الغدير
مفضلاً نفسي في طعير تنتهز الرعدة في طهيري
ينغر إلى الزور من صديري طمأن في ريسح وفي مطيري
وازر قتر ليس بسالغدير من لند ما ظهر إلى سحيري
حتى بدت لي جبهة الغدير لأربع رطلون من شوير^(١)

الشرع :

سماء الأجدادي بهذه التسمية . وهو بناء البيت على قافيتين يصبح المعنى على
الوقوف على كل واحدة منهما .

وسمائه بعضهم ، التوشيح ، وقد قال ابن الأثير في هذه التسمية : « وهو أن
يبنى الشاعر أبيات قصيدته على بحرین مختلفين ، فإذا وقف من البيت على القافية
الأولى كان شعراً مستقيماً من بحر على عروض ، وإذا أضاف إلى ذلك ما بني
عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضاً شعراً مستقيماً من بحر آخر على
عروض . وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالرشاح . وكذلك يجري
الأمر في القفرتين من الكلام المشهور فإن كل قتره منهما تصاغ من سجدتين »^(٢)

(١) النثر الصادر : ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٢ .

(٢) النثر الصادر : ٢ ص ٢٥٩ .

وقال العلوي في تسميته تشريعا : « لأنَّ ما هذا حاله من الشعر فإن النفس
تشرع الى تمام القافية وكما (١) » .

وسمَّاه ابن أبي الأصم « التوام » وأراد بذلك مطابقة التسمية للمسمى .
وقال : « انه متى اقتصر على القافية الأولى كان من ضرب ذلك البحر الذي عمل
الشاعر بيته منه . فإذا استوفى أجزائه وبناء على القافية الثانية كان البيت من
ضرب غير ذلك الضرب من ذلك البحر . وغالبه أن يختلف الرويان وإن جاز
توافقهما (٢) » .

ومن هذا الفن قول بعضهم :

وإذا الرياحُ مع العشيّ تنسَّوحتْ
هُجُوجُ الرمالِ بكثبونَ شمَّالاً
ألفيتنا نفري الغيظ لضيفنا
قبل القتالِ ونقتل الأبطالاً

فإن هذا الشاعر لو اقتصر على « الرمال » و « القتال » لكان الشعر من هزوء
الكامل . وهو :

وإذا الرياحُ مع العشيّ تناوحتْ هُجُوجُ الرمالِ
ألفيتنا نفري الغيظ لضيفنا قبل القتالِ

ومنه قول الآخر :

اسلمَ ودُمُنتْ على الحوادثِ ما رَمَّما
ركنا لير أو هصاب حيراء
ونسِل المراد مكنساً منه على
رغم الدهور وفُرَّ يقول بقسما

(١) الطراز ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) تحرير التحرير ص ٤٢٢ .

وإذا نظر إلى هذين البيتين وجدا أنهما يأتیان على قافية أخرى هي « ثير »
و « الدهور » وعلى مجزوء الكامل ويكونان :

اسلم ودُمْتُ صلي الحوا وث ما رَسَا رُكْنَا نُسِير
وتَلَر المَرَادَ ثَمَكُنَا منه عل دَقَسَم الدهور

ومنه قول الحريري :

بأ خاطب الدنيا الدنيةً إنَّها شرك الردى وقرارة الأكسار
دار مَن ما أَصْحَكْتُ في يومها أبكت غداً ، بُعْدًا لها من دار
وإذا أَطْلُ سحابها لسم ينتفع منه مدى لجهاسه الغرار

ويمكن أن تبنى بصورة أخرى هي :

بأ خاطب الدنيا الدنيةً أَنها شرك الردى
دار مَن ما أَصْحَكْتُ في يومها أبكت غداً
وإذا أَطْلُ سحابها لم ينتفع منه مدى

وفي هذا الفن تكلف ظاهر ولذلك لا يكاد يستعمل إلا قليلا . قال ابن
الأكثير : « وليس من الحسن في شيء » ثم قال : « وأعلم أن هذا النوع لا
يستعمل إلا متكلفاً عند تعاطي التمكن من صناعة النظم . وحسنه منوط بما فيه
من الصناعة لا بما فيه من البراعة . ألا ترى أنه لو نظم عليه قصيد من أوله إلى
آخره بتفصيل غزلاً ومديحاً هل ما جرت به عادة القصائد أليس أنه كان يخي
بارداً غداً لا يسلم منه على محك النظر عشرة ؟ والعشر كثير . وما كان على هذه
الصورة من الكلام فأنما يستعمل أحياناً على الطبع لا على التكلف . وهو وأمثاله

لا يحسن إلا إذا كان يسيراً كالرقم في الثوب أو الشَّبة في الجلد^(١) .

ولشدة التكلف في التشريع لم يقبله أصحاب البديعيات أيضاً فقال ابن حجة : « ولا شك أن هذا النوع لا يأتي إلا بتكلف زائد ونعسف ، فانه راجع الى الصناعة لا الى البلاغة والبراعة^(٢) » .

هذه أهم المحسنات المنطقية وقد قال عنها القزويني : « وأصل الحسن في جميع ذلك - أعني القسم اللفظي - كما قال الشيخ عبد القاهر ، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني فان المعاني إذا أرسلت على سجيبتها وتركزت ومسا تريد طلبت لأقصىها الألفاظ ولم تكتسر إلا ما يليق بها ، فان كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب المتنبي :

إذا لم تُشاهد غير حسن شيئا
وأعضائها فأحسن عنك مغيب^(٣)

ولا يقدر أن يستعمل هذه الفنون إلا أديب متمكن تنقاد له اللغة ويسلس له الأسلوب وتنهال الى قلمه المعاني انبثالا ، ولذلك جاءت في أدب المتأخرين بادرة غثة لا روح فيها.

(١) القل الساري ج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

(٢) خزائن الأدب ص ١٢٠ .

(٣) الايضاح ص ٤٠٠ .

الفصل الرابع المحسّنات العنويّة

المطابقة :

وتسمى المطابق والتعطيل والتكافؤ والنضاد ، وهي الفن الثالث من يدعي ابن المعتز ، وقد قال عنها : « قال الخليل — رحمه الله — يقال : طابقت بين الشئين إذا جمعتهما على حل أو واحد ، وكذلك قال أبو سعيد : قال القائل لصاحبه : أتيته لك تسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا في ضيق الضمان ، قد طابقت بين السعة والضيق في هذا الخطاب ^(١) » .

وسمّاه قدامة التكافؤ ، وقال في تعريفه : « ومن نعوت المعاني التكافؤ وهو أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمّه أو يتكلّم فيه بمعنى ما ، أي معنى كان فيأتي بمعنيين متكافئين . والذي أريد بقولي : « متكافئين » في هذا الموضع : متقاومان إما من جهة المضادة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل ، مثل قول أبي الشغب العبي :

حطرتُ الشمايل وهو مرٌّ ^{بأسيل} يعني الدمارَ صبيحة الأرواحِ

(١) البديع ص ٣٦ .

فقوله : « حلو » و « مر » تكافؤ^(١) .

ولم يسمه التكافؤ أحد غير قدامة وأصحاب^(٢) . أما المطابق عنده فهو
إختصاص .

وقال ابن الأثير : « وهذا النوع يسمى الديق أيضا وهو في المعاني ضد
التجنيس في اللفظ^(٣) » . « ورأى أن الأليق من حيث المعنى أن يُسمّى
المطابقة ، وكان ابن منان قد أثر تسميته « المطابق^(٤) » . وقال ابن الأصبغ إن
المطابقة ضربان :

١ - ضرب يأتي بالفاظ الحقيقة .

٢ - وضرب يأتي بالفاظ المجاز .

فما كان منه بالفظ الحقيقة سمي طباقا . وما كان بالفظ المجاز سمي تكافؤا
ومثاله :

حلوُ الشمائل وهو مرٌ يساهلُ

يعني التماسا صبيحة الارهاق

فقوله : « حلو ومر » - يجري مجرى الاستعارة إذ ليس في الإنسان ولا في
شمائله ما يلائق بحاسة الذوق^(٥) .

والمطابقة بعد ذلك هي : إجماع بين المتضادين أي معينين متقابلين في الجملة
ويكون ذلك إما بلفظين من نوع واحد :

(١) لغة الشعر ص ١٦٢ .

(٢) ينظر المصباح ج ٢ ص ٤ - وكتاب الصمديين ص ٢٠٧ .

(٣) للملح الدارج ج ٢ ص ٢٧٩ - وإجماع الكبير ص ٢١١ .

(٤) من المصباح ص ٢٢١ .

(٥) تحرير التمهيد ص ١١١ .

١ - اسدين : كقوله تعالى : « وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ »^(١) ،
 وقوله : « يُطْرَجُكُمْ مِنَ الْغُلَامَاتِ إِلَى الثَّوَرِ »^(٢) ، وقوله : « يُطْرَجُ
 الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُطْرَجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ »^(٣) ، وقوله - عليه السلام - :
 « خير المال عين ساهرة لعين نائمة » ، وقول الشاعر :

فله ابتسامٌ في الوامعِ بترقيهِ
 وله يكامن ودقمِ المشربِ

وقول الفرزدق :

والشيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنه
 ليلٌ يصح بجانبيه نهارٌ

وقول أبي تمام :

ما إن ترى الاحبابَ بيضاً وضحا
 إلا يبعث ترى المشايخا سودا

وقول البحتري :

وتوقعي منك الاساءةَ جاهداً
 والعَدْلُ أنْ أتوقع الاحسانا
 وكنا يسركَ لئن مستي راضياً
 فكذلك فاحشٌ خشوني غضباناً

وقوله :

كانَ سهادَ الليلِ يعشقُ قلبي
 فبينهما في كلِّ هجر لئسا وصلٌ

(١) الكهف ١٨ .

(٢) الحزب ٤٢ .

(٣) الروم ١٩ .

٢ - أبو نعلين : كقولہ تعالى : « ثَلَاثِي الثَّلَاثِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَكِ
مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ »^(١) ، وقول النبي - عليه
السلام - للانصار : « إِنَّكُمْ لَتَكُونُونَ عِنْدَ الْفُرْعِ وَتَقْلِبُونَ عِنْدَ الطَّمْعِ » ،
وقول أبي صخر الخدلي :

أما والذي أبكى وأشعك والسلي
أماأت وأجيا والذي أشره الأملر

وقول الآخر :

لئن ساء لي أن تلثني بمسودة
لقد سرتني أني خطرت ببالك

٣ - أبو حرفين : كقولہ تعالى : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ »^(٢) ،
وقول الشاعر :

على أنني راضٍ بأن أحمل الفوى
وأخلص منه لا علي ولا ليا

وتنقسم المطابقة الى قسمين :

١ - مطابقة الإيجاب : وهي كالأمثلة السابقة.

٢ - مطابقة السلب : كقولہ تعالى : « وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » ،
يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا »^(٣) . وقول الشاعر :

ولتذكر إن شئنا على الناس قولهم
ولا يتكرون القول حين نقول

(١) آل عمران ٢٦ .

(٢) البقرة ٢٨٦ .

(٣) الروم ٦ و ٧ .

وقول البحتري :

يُغَيِّضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ الدُّوَى
وَيَسْرِي لِي الشُّوقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ^١
وَأُلْحِقُ الْقَزْوِينَ بِهَذِينَ الْقَسَمِينَ « إِيهَامُ التَّضَادِّ » . وهو أن يوهم لفظ
الضد أنه ضد مع أنه ليس كذلك . كقول دعل الخزامي :

لَا تَعْجِي يَا سَلَسَمُ مِنْ دَجْسَلٍ
فَتَحْبِكَ الْمَشْبُورُ بِرَأْسِهِ فَبَكْسٍ
فإن « الضحك » هنا من جهة المعنى ليس بضد « البكاء » . لأنه استعارة عن
كثرة الشيب . ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة .
ومنه قول قُرَيْطِ بْنِ أَيْفٍ :

يَسْجُزُونَ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الظُّلَمِ مَغْفَرَةً^٢
وَمَنْ إِسَاءَ أَهْلَ السُّوءِ إِحْسَانًا
فـ « الظلم » ليس بضد « المغفرة » . وإنما يوهم بلفظه أنه ضد .

وَأَدْخَلَ فِي « إِيهَامِ التَّضَادِّ » قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ :
مَا إِنَّ تَرَى الْأَحْسَابَ بَيْضًا وَضُحَى^٣
إِلَّا يَحِثُّ تَرَى الثَّانِيَا سَوْدَا^٤
فـ « البيض » هنا الثقيات . و « السود » المؤلمات .
وقوله :

لَهُ مَنَظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَيْضًا نَاصِعٌ^٥
وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدٌ أَسْفَعُ^٦

(١) التامع من ٢١٠ .

وأراد هنا أنه مؤلف مؤلف لا المؤلف الذي هو عبد الأبيض .

وقد يتطاع الجناس بالمطابقة كقولهم : « جلال » بمعنى صغير ، و « جلال »
بمعنى عظيم . فإن بطلانه مطابقة وإن كان ظاهره جناساً ، وكذلك « الجون »
الأبيض ، و « الجون » الأسود . وكذلك إن دخل الهمزة كما في بيت البحري :

يقبض لي من حيث لا أعلم النوى

ويسري الي الشوق من حيث أعلم

فهذا جناس في ظاهره . وهو في باطنه مطابقة . لأن قوله « لا أعلم »
كقوله : « أجهل ^(١) » .

ولا يكفي أن يتوًى بالمطابقة عبادة عن أي هدف مجردة عن كل تأثير .
وإنما ينبغي أن تأتي مرشحة بنوع من البديع لكي تكسب جمالاً وبياءً . وإن
ذلك ذهب البلاغيون ومنهم ابن حجة الذي قال : « والذي أقوله إن المطابقة
التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر . ونهاية ذلك أن يطابق القصد
بالضد وهو شيء سهل » . اللهم إلا أن نرشد بنوع من أنواع البديع تشاركه في
البهجة والرواق كقوله تعالى : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ . وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي
الْأَيَّامِ . وَتَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ . وَتَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ » ، وتُرَاقِي
من نشاءً بغير حساب ^(٢) . فهي العطف بقوله تعالى : « وتُرَاقِي من نشاءً
بغير حساب » دلالة على أن من قدر على الأعمال العظيمة فبغير أن يرزق
بغير حساب من شاء من عباده . وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرته الرب -
سبحانه وتعالى - . فانظر أن عظم كلام الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة
الحقيقية والعكس الذي لا يدرك لوجازته وبلاغته . ومبالغة التكميل التي لا
تأتي بقدرته . ومثل ذلك قول امرئ القيس :

(١) انظر المصباح ٢ ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) سورة النجم ٢٧ .

وذكر مفر مُكْتَبِل مُدَيَّر مع

كجلمود صخر حطه السيل من غير

المطابقة في الاقوال والادبار . ولكنه لما قال « معاً » زادها تكميلاً في غاية الكمال . فان المراد بها قرب الحركة في حالتي الاقبال والادبار وحالتي الكر والفر . فلو ترك المطابقة من هذا التكميل ما حصل لما هذه البهجة ولا هذا الموقع . ثم انه استطرد بعد تمام المطابقة وكان التكميل الى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي ... وقد اشتمل بيت امرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد^(١) .

ومن المطابقة التي اكنست بالضرورة قول المتنبي :

يرغم شيب فارق السيف كفته

وكانا على العلات يصطحبان

كان رقاب الناس قالت لبيبة :

رفيقتك قبي وأنت عساني

ومن المطابقة التي اكنست بالجناس قول أبي تمام :

بيض الصغائع لا سود الصخائف في

متون جلاء الشك والزنس

٦ ولكن ليس معنى ذلك أن المطابقة حينما تأتي وحبها من غير ارشيع بطن عر . لا قبة ظا . بل لما قيمتها لأن التصادم نفسه يؤدي الى ايضاح المعنى وتقريب الصورة وهي كما قال الشاعر :

قدبان لمسا اجتماعا حسنا

والضد يظهر حُسْنَه الضد

(١) حركات ادب ص ٦٦ .

وقد جاءت في كثير من الكلام مجردة - فأدت دورها في التعبير .

المقابلة :

تكلم **عبد الوهاب** عن أنواع المعاني . وقد قال عنها : « ومن أنواع المعاني أنجاناسها أيضا صيغة المقابلات ، وهي أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض ، أو المخالفة فيما في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على المنهج ، أو يشرط شروطا وبعدد الأحوال في أحد الطرفين فيجب أن يأتي فينتهوا فتمثل الذي شرطه أو عدده وفيما يخالف بأعداد ذلك كما قال بعضهم :

فأعجبنا بكيف التفسير

بأنه معطوي على الغل غسادر

فقد أتى براء كليا وصفه من نفسه بما يضاده على الحقيقة ممن عاتبه حيث قال بازاء « لا يصح » : « معطوي على الغل » وبازاء « وفي » : « غادر »^(١) .

وأدخلها جماعة في المطابقة كما بين الأكبر الذي قال : « أعلم أن الأكيين من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة^(٢) ! » والقزويني الذي قال : « ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة . وهو أن يلقى بعينين متوافقتين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب^(٣) » . ولكن ابن حجة قال : « وهو غير صحيح . فإن المقابلة أعم من المطابقة وهي التنظير بين شيئين فأكثر » وبين ما يخالف وما يوافق . فيقولنا : « وما يوافق » صارت المقابلة أعم من المطابقة فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة^(٤) . »

(١) نقد الشعر ص ١٤٤ .

(٢) جامع الكبير ص ٢١٢ .

(٣) الأناض ص ٤١ .

(٤) حركات الألف ص ٤٧ .

وفرق البلاغيون بين المطابقة والمقابلة من وجهين :

الأول : إن الطابق لا يكون إلا ضدin غالباً ، كقوله تعالى : « وهو الذي يبينكم ثم يبيحكم ^(١) » ، والمقابلة تكون غالباً بالجمع من أربعة أضداد : ضدin في أصل الكلام وضدin في عجزه وتبلغ إلى الجمع من عشرة أضداد : خمسة في الصدر وخمسة في العجز .

الثاني : لا يكون الطابق إلا بالأضداد ، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها ^(٢) .
ونأتي المقابلة على أنواع منها :

١ - مقابلة التين بالتين : كقوله تعالى : « فَتَلْبَسْ حَكْلًا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ^(٣) » ، وقول النبي - عليه السلام - : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زله ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » ، وقول النابغة الجعدي :
فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ
على أن فيه ما يسوء الأعداء

وقول الآخر :

فَوَاعِجِبْ كَيْفَ انْفَقَسَ اقْصَابُ
وَفِي مَطْوِيٍّ عَلَى الْعَلِّ غَسَادِرُ
٢ - مقابلة ثلاثة بثلاثة : كقوله تعالى : « وَيُحِيلُ لَهُمُ الطُّيُوتَ وَيَعْرَمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَابَ ^(٤) » ، وقول أبي دلالة :
مَا أَحْسَنَ الدِّينَ وَالْدُنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا
وَأَقْبَحَ الْكُفْرَ وَالْإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

(١) التوبة ٨٢ .

(٢) انظر تحرير التمهيد ص ١٧٩ ، وفتح القرآن ص ٣١ ، والقواعد ص ١٢٩ .

(٣) الأعراف ١٧٩ .

(٤) الأعراف ١٨٢ .

وقول المتنبي :

فلا الجودُ يُغني المالَ والجِدُّ مَقْبُولُ
ولا البخلُ يَبْقِي المالَ والجِدُّ مَدْبُورُ

٣ - مقابلة أربعة بأربعة كقوله تعالى : « فَأَلَمَّا مَنَّ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ »
بالحسنِ فَسْتَنْبِشُهُ لِيَسْرِي . وَأَمَّا مَنْ يَخْشَلُ وَاسْتَعْلَى وَكَتَبَتْ
بالحسنِ فَسْتَنْبِشُهُ لِيَاغْتَرِي ^(١) . وقول أبي تمام :

يا أمةَ كَلالٍ قُبِحَ الْخَوَرُ بِسُخْطِهَا
دَحْرًا فَأَصْبَحَ حُسْنُ الْعَدَدِ يَرْضِيهَا

٤ - مقابلة خمسة بخمسة . كقول الشاعر :

بِوَاطِيءٍ فَوْقَ حَدِّ الصَّبْحِ مَشْهُورُ
وَهَاطِرٍ تَحْتَ ذَيْلِ الْجَيْلِ مَكْتُمُ

وقول المتنبي :

أَزْوَرُهُمْ وَصَرَادُ الْقَبْلِ يَشْقَعُ لِي
وَأَتَّقِي وَبِإِضْاحِ الصَّبْحِ يُغْثَرِي لِي

ولم يدخل القزويني هذا البيت في هذا النوع . لأنَّ اللام والياء . فيهما
صائتا التعلين ، فهما من تمامهما ^(٢) .

والمقابلة إذا استعملت في موضعها كانت بدیعاً كما ظهر في الأمثلة . وهي
والمطابقة تزيد المعنى وضوحاً . أما إذا استعملت في غير موضعها كانت فاسدة
ثابتة . وقد أشار قدامة إلى ذلك وتكلم على فساد المقابلات وقال : « ومن
عيوب المعاني فساد المقابلات . وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بأكثر
أما على جهة الموافقة أو المخالفة فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر ولا يوافقه .

(١) الجن ٤ - ٦٠ .

(٢) الأصح ص ٣٤٦ .

مثال ذلك قول أبي عدي القرشي :

يا ابن خبيرة الاختيار من عهد شمسة
أنت زين الدنيا وغيث الجحود

فليس قوله : « وغيث الجحود » موافقاً لقوله : « زين الدنيا » ولا مضاداً
وذلك عيب^(١) .

وقال أبو حلال عن فساد المقابلة : « وفساد المقابلة أن تذكر معنى تقتضي
الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة فيؤني بما لا يوافق ولا يخالف مثل أن يقال :
« فلان شديد البأس بقي الثغر » أو « جواد الكف أبيض الثوب » أو تقول :
« ما صاحب خبيراً ولا فاسقاً » و « ما جاءني أحمر ولا أسود » .

ويجوز الكلام أن تقول : « ما جاءني أحمر ولا أسود » و « ما صاحب خبيراً
ولا شريراً » و « فلان شديد البأس عظيم النكاية وجواد الكف كثير العرف » .
وما يجري مع ذلك . لأن السمة لا تخالف السواد غاية المخالفة . ولقاء الثغر لا
يخالف شدة البأس ولا يوافقه^(٢) .

وفي ذلك ما يعطي هذا الفن أهمية في التعبير ويجعله أكثر من عسّن معنوي
يؤتي به لونية والتحسين .

مراعاة الظير

ويسمى التناسب والاتلاف والتوفيق والمؤازاة . وهو أن يجمع الناظم أو
النثر أمراً وما يناسبه لا باللفظ ، بل بالخارج المطابقة سواء كانت المناسبة لفظاً
للمعنى أو لفظاً فقط أو معنى للمعنى . إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه

(١) نقد الشعر ص ٢٢٩ .

(٢) كتاب المحسنين ص ٣٢٩ .

أو يلائمه من إحدى الوجوه^(١).

ومثال ذلك قول البحري في إبل أعطها السير :

كالقسي^٢ المقلّعات بل الأسهم ميرة^٣ بسل الأوتسار

فانه لما شبه الأبل بالقسي^٤ وأراد أن يكرر التشبيه كان يمكنه أن يشبهها بالعراجين أو بتون الخط^٥ : لأن^٦ المعنى واحد في الاتناء والرقعة . ولكنه قصد للنسابة بين الأسهم والأوتار لما تقدم ذكر القسي^٧.

وكقول ابن رشيق :

أصبح^٨ وأقوى ما سمعناه في الندى

من الخير المأسور منذ قدسهم

أحاديث ثرويسا السيول^٩ عن الحيا

عن البحر عن كعب الأمير تمسهم

فانه ناسب فيه بين الصحة والقوة والسماع والخير المأسور والأحاديث والرواية ، ثم بين السيل والحيا والبحر وكعب تميم . مع ما في البيت الثاني من صحة الترتيب في العننة . إذ جعل الرواية لصاخر عن كعب كما يقع في سند الأحاديث . فان السيول أصلها المطر . والمطر أصله البحر . ولذلك جعل كعب المأسور أصلاً لبحر على سبيل المبالغة .

ومن مراعاة النظر : تشابه الأعراف . وهو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى^(١٠) . وهذه تسمية ابن أبي الأصم المصري . وكان اسمه «التسليم» فعبّره لما رأى هذه التسمية غير لائقة^(١١) .

ومنه قوله تعالى : « لا تُدْرِكُهُ الأبصار » وهو يُدْرِكُ الأبصار وهو الغليظ

(١) الأضاح ص ٢٤٢ . وفرائد الأدب ص ١٢١ .

(٢) الأضاح ص ٢٤٤ .

(٣) ينظر تحرير التمهيد ص ٥٢٠ . وفتح لقرآن ص ٢٢٩ . وفرائد الأدب ص ١٠٢ .

الخير^(١) ، فان المضاف يناسب ما لا يدرك بالبصر ، والخير في تناسب من يدرك شيئاً فان من يدرك شيئاً يكون خيراً به .

وما يلحق به ، إيهام التناسب ، وهو الجمع بين معنيين غير متناهيين بلقطتين يكون هما معنيان متناهيان وإن لم يكونا مقصودين . كقوله تعالى : « الشمس والقمر يحسبان » ، والنجم والشجر يسجدان^(٢) ، فالنجم بمعنى الثبات وإن لم يكن مناسباً للشمس والقمر . فقد يكون بمعنى الكوكب وهو مناسب لهما ، ولذلك سمي هذا الفن ، إيهام التناسب .

وذكر القزويني فناً بديعاً سماه « التوقيف » وعرفه بقوله : « وهو أن يؤتى في الكلام بمكان متلائمة في جمل مستوية المقادير أو متقاربتا^(٣) » . ومنه قول الشاعر يصف سحاباً :

تستريح^(٤) وتشتب^(٥) من عزوزي تطرأت
مطارقها طرراً من البرق كالنهر
فروشي بلا زقشر ، ونقش^(٦) بلا بسد
ودع^(٧) بلا عيش ، وعيشك بلا لفر
وقول عنتره :

إن إلهجتوا أكرره وإن يستلحقوا
أشد^(٨) وإن تزلوا بهنك أنزل

وقال القزويني بعد ذلك : « فبعضه من مراعاة النظر وبعضه من المطابقة » . وقد عرفت أن حجة التوقيف بقوله : « والتوقيف في الصناعة عبارة عن اتیان المتكلم بمكان شئ من المدح والفرل وغير ذلك من القنن والأغراض . كل فن

(١) النظم ١٠٣ .

(٢) الرحمن ٤ ، ٦ .

(٣) الأصح ص ٣٤٤ .

في جملة من الكلام منفصلة عن أختها مع تساوي الجملة في الوزن . ويكون بالجملة الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة وأحسنها وأبلغها وأصعبها مسلكتاً القصار (١) . ولم يعجب بهذا الفن . لأنه لا يفيد غير إرشاد ناظمه إلى طرق التعقيد ، والأمثلة التي ذكرها تزيد كلامه . كقول ابن زيدون :

له احتمال واحتكم أصبر وعز أهمل
وذلك أنضغ وقل اسمع ومر أطع

وقول المتنبي :

أقل أنل أقطع أحمل على "أسئل" أهد
زه هش "بش" تفضل أدن مر صر
وأي روعة في مثل هذين البيتين وإن كان الأول أقرب إلى الفهم .

المبالغة :

تحدث ابن المعتز في بديعه عن « الإفراط في الصفة » وهو أحد محاسن الكلام والشعر . وأدخل قدامة المبالغة في نعمات المعاني وقال : « هي أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر أو وقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذي قصده فلا يوقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبغ فبها قصده له (٢) » . وكان قدامة هو الذي سماها المبالغة وسار أكثرهم على تسميته . لأنها أخف وأعرف من مصطلح ابن المعتز (٣) .

وللبلاغيين والنقاد ثلاثة مذاهب فيها :

الأول : إنها غير معدودة من محاسن الكلام ولا من جملة فضائله . وحجتهم

(١) حركات الأوب من ١١٢ .

(٢) نقد الشعر من ١٩٠ .

(٣) تحرير النظم من ١٤٧ ، وحركات الأوب من ٢٢٥ .

على هذا هو أن "خير الكلام ما عرخ عرخ الحق من غير إفراط ولا تفريط . أو
كما عبر عنه حسبان بن ثابت بقوله :

وإنما الشعرُ عقلُ المرءِ يعرضه
على الأنام فإن كسباً وإن حقدسيا
وإن الشعر بيت أث قائله
بيتٌ يقال إذا أنشدته: صدقسيا

قال ابن حجة : « وعدد أهل هذا المذهب أن المبالغة لم تسفر عن غير
التحويل على السامع ولم يفر الناظم إلى التخرير عليها إلا لعجزه وقصور همته عن
اختراع المعاني المبتكرة . لأنها في صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا
أعياه لإيراد المعاني الغريبة فيشغل الاستراح بما هو محال وتحويل ^(١) » .

الثاني : إنها من أجل "القاصد في القصيدة وأعطائها في البراعة . وحيثهم
على ذلك أن "خير الشعر أكده وأفضل الكلام ما بولغ فيه .

الثالث : إنها من فنون الكلام وتوحد من همته . ومتى كانت جارية
على جهة العلم والافتراق فهي مبنوعة . وعلى هذا المذهب سار معظم البلاغيين
والنقاد . وقال ابن حجة في تعريفها : « هي إفراط وصف الشيء بالمكن القريب
وقوعه عادة ^(٢) » .

ومن أمثلة المبالغة المقبولة قول الشاعر :

دهنت يدي بالعجز عن شكر بره
وما فوق شكري للشكور مزيد
ولم كان لما يستطيع استعطسه
ولكن ما لا يستطيع شديده

(١) خزائن الأدب ص ٢٢٥ .

(٢) خزائن الأدب ص ٢٢٥ .

وحفل القرآن الكريم بالمبالغة البديعة فقال الله تعالى : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهِدَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالْقَبْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ »^(١) وما يتصل بالمبالغة فن « الاغراق » وهو : « إفراط وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه عادة »^(٢) . وفن « الغلو » وهو « الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عادة »^(٣) وعقلا^(٤) .

ولا يحسن هذان القتان إلا إذا افترنا بما يقربهما إلى القبول كما استعمال « قد » للاحتمال ، و « لولا » للامتناع ، و « كاد » للمقاربة . ولم يقع شيء من ذلك في كتاب الله أو الشعر الرابع إلا كان مقرونا بما يخرج من باب الاستحالة ويدخله في باب الامكان كقوله تعالى : « وَيَكَادُ سَنَآ بِرُكْبِهِ يَنْجُصُ بِالْأَبْصَارِ »^(٥) ، وقول زهير بن أبي سلمى :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قومٌ بأوتهم أو مجدهم قعدوا

ومنه قول المتنبي :

روحٌ ترددٌ في مثل الخلال إذا
أطارت الريحُ عنه الثوبُ لم يبر
كفى بحسي نحولاً أني رجلٌ
لولا غامضي إليك لم تسدري

وهذه أمثلة الاغراق ، أما الغلو فهو نوعان : مقبول وغير مقبول ، والمقبول ما قُرب بأحدى الصيغ الدالة على قبول العقل لما كقوله تعالى :

(١) ترجمه ١٠ .

(٢) غرارة الأدب ص ٢٢٢ .

(٣) غرارة الأدب ص ٢٢٩ .

(٤) النور ٤٣ .

« يكادُ زَيْتُهَا يُنْقِي » ولو لم تَمْسَسْهُ نَارٌ^(١) » وقول المعري :

لكاد قسبته من غير زامٍ تُمكنُ في قلوبهم التبالا
تكادُ سيوفه من غير سكرٍ تجدُ الى رقابهم السلالات
وغير المقبول كقول أبي نواس :

قلما طربناها ودبَّ ديبُها الى موضع الاسرار قلت لها فني
متخافةً أن يسطر علي شعاعها فيطلع لندماني على ميرتي الخفي

وقوله :

واخضتُ أهلَ الشرك حتى أتته لخافك النطفُ التي لم تُخلق
ولعل بيته في الحرم أقرب من البيت الثالث ، وهذا والعان وان كان
العقل لا يقبل وقوع مثل ذلك ، ولكن الشعر لا يقاس دائماً بالعقل لو بما يمكن
أن يقع ، فقد يكون للخيال النصيب الأوفى في روحه وجماله كما في بيتي أبي
نواس .

واعتبر ابن رشيق « الأيغال »^(٢) ضرباً من المبالغة إلا أنه في القوافي خاصة .
وهذا الفن مما فرّعه قدامة وقال عنه : « ومن أنواع التلاف القافية مع سائر
البيت » الأيغال » وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاماً من غير أن يكون
لقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتي بها حاجة الشعر في أن يكون شعراً إليها فزيد
يعناها في تجويد ما ذكره في البيت كما قال امرؤ القيس :

كان عيون الوحش حول خيائنا
ولحلنا الجرع الذي لم يُظهِر

(١) الدور ٣٥ .

(٢) المصنف ج ٢ ص ٤٧ .

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملاً قبل الثانية وذلك أن "عيون الوحش
شبيهة بالخزع" . ثم لما جاء بالثانية أوغل بها في الوصف ووكّده وحرّ قوله :
« الذي لم يثلب » فإن عيون الوحش غير مثقبة وهي بالخزع الذي لم يثلب أدخل
في التشبيه (١) .

ومنه قول ذي الرمة :

قف العرس في أطلال مينة فأسأل
رسوماً كالأخلاق الرداء المسلسل
فقدم كلامه قبل « المسلسل » ثم قال : « المسلسل » فزاد شيئاً . ثم قال :
أظن الذي ينادي عليك مؤلفاً
دموعاً كتبت يد الجذمان المسلسل
منه كلامه ثم احتاج إلى الفافية فقال : « المسلسل » فزاد شيئاً (٢) .

وتقسم السكاكي والقرظيني للمبالغة لا يخرج عما سبق فهي تبايع واغراق
وغلر . ولكن أصحاب البديعيات اعتبروا كل لون من هذه الألوان الثلاثة
فنأ قائماً بذاته وقال ابن حجة : « وهذا النوع أعني المبالغة شرکه قوم مع
الافراق والعلو لعدم معرفة الفرق وهو مثل الصبح طاهر (٣) » . ولو رجعنا
إلى التعريفات أربناها متقاربة . ومعنى ذلك أن السكاكي وأصحابه ميزوا
بين كل قسم غير أنهم لم يفرّدوها في فصول مستقلة . قال القرظيني في تعريف
المبالغة : « المبالغة أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً
أو مستبعداً » لتلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف » ثم قال : « وتختصر
في التبايع والافراق والعلو (٤) » . وفي هذا تحديد لكل نوع وترتيب له حسب

(١) نزهة الشعر ص ١٩٦ .

(٢) خزنة الأدب ص ٢٢٥ .

(٣) الألفحاح ص ٣٦٥ .

قربه من الوقوع فهو التبليغ ثم الاغراق ثم الغلو . ولم يزد اصحاب الدينيات على هذا الترتيب فهي عند ابن حجة : المبالغة ثم الاغراق ثم الغلو . وأي فرق بين عمل الاوائل وصنيع المتأخرين غير زيادة أبواب البديع ؟ ومعظم البلاغيين جمعوها في باب واحد كابن الاثير وابن قيم الجوزية الذي قال : « المبالغة وتسمى الافراط والغلو والايغال » . ومعنى هذه الاسماء متقاربة وبعضها أرفع من بعض^(١) . وعلى هذا الاساس يمكن ان تبحث المبالغة في باب واحد وتقسم حسب رفعها أو حسب بعدها ووقوعها وبذلك تقل المصطلحات وتوحد الفنون المشابهة .

المذهب الكلامي :

وهو الفن الخامس من بديع ابن العزري . قال : « وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي . وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً . وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٢) » . ولم يحدد معنى هذا الفن . ولعله يريد به اصطلاح أساليب البلاسة والتكلمين في الجدل والاستدلال . ولذلك نقاه عن القرآن الكريم .

وذكر أبو هلال أن ابن العزري جعل هذا الفن الباب الخامس من البديع ونسبه إلى التكلف . وتحدث في أول كتابه « الصناعتين » عن وضوح الدلالة وقرع الحجة ، وهو ما يدخل في هذا الباب كقوله تعالى : « وَصَرَّبْنَا مثلاً ونسجاً مختلفاً » . قال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ^(٣) » . فهذه دلالة واضحة على أن الله تعالى قادر على إعادة الخلق مستغنية بنسجها عن التريادة

(١) لغزاة ص ١٩٤ .

(٢) البديع ص ٤٥ .

(٣) يس ١٦ و ١٧ .

فيها ، لأنّ الاعادة ليست بأصعب في العقول من الابتداء ، ثم قال تعالى : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون »^(١) . فزادها شرحا وقوة ، لأنّ من يفرج النار من أجزاء الماء وهذا خداع ليس بتكرار عليه أن يعيد ما أفناه . ثم قال تعالى : « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم »^(٢) . « فتوّاها أيضا وزاد في شرحها وبلغ بها غاية الإيضاح والتوكيد لأنّ إعادة الخلق ليس بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء »^(٣) .

وقال ابن رشيّق عن هذا الفن أنّه « مذهب كلامي فلسفي »^(٤) . « ولذلك سمّاه بعضهم » الاحتجاج النظري »^(٥) . « وسمّاه الزركشي » إبطال الخصم بالحجة » . وقال عنه : « هو الاحتجاج على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه . والعجب من ابن المعتز في بدعيه حيث أنكر وجوب هذا النوع في القرآن . وهو من أساليبه »^(٦) .

١ وعرفه الفروني بقوله : « هو أن يورد التكلم حجة لما يدّعيه على طريق هل الكلام »^(٧) . « وذكر له أمثلة من القرآن الكريم . كقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(٨) . وقوله : « وهو الذي يبدأ الخلق » ثمّ يُعيداه . وهو أهونٌ عليهم »^(٩) . وقوله : « فكلمّا

(١) يس ٨٠ .

(٢) يس ٨٦ .

(٣) كتاب الصانعين ص ٤١٠ .

(٤) المسألة ج ٢ ص ٨٠ .

(٥) الفتاوى ص ١٢٦ .

(٦) جردان في علوم القرآن ج ٣ ص ٤٦٨ .

(٧) الإيضاح ص ٣٦٦ .

(٨) التوبة ٢٢ .

(٩) الروم ٢٧ .

أَقْلَ قَالَ : لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ^(١) .

ومنه قول النابغة الغبيري يعتذر إلى النعمان بن المنذر :

حَلَلْتُ فَلَمْ أَتْرَكْ لِنَفْسِكَ رِيَّةً

وليس وراء الظفر قدمي مَذْقَبٌ

لَنْ كُنْتُ قَدْ بُلَعْتُ هِيَ خِيَانَةٌ

لِمَا لَكَ الْوَثِي أَغْشَى وَأَكْذَبُ

وَلَكَايَ كُنْتُ أَمْرٌ لِي جَانِبُ

من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ وَمَنْذَبُ

مَؤَلَّكٌ وَإِحْرَانٌ إِذَا مَا أَنْتَهُم

أَحْكَمُ فِي أَمَوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ

كَلْعَاكَ فِي قَوْمٍ لَرَأَاكَ أَصْغَبَهُم

فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحٍ ذَلِكَ أَذْهَبُوا

أراد النابغة أن يعتذر إلى النعمان فاستخدم هذا الأسلوب المتعطي الذي يتقود إلى القناع فقال له : أنت أحسنت إلى قوم فمدحوك وأنا أحسن إلى قوم فمدحتهم . وكذا أن مدح لولئك لك لا يعد ذنباً فكللت مدحي لمن أحسن إلي لا يعد ذنباً .

ومنه قول الفرزدق :

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ

وَنَفْسٌ بَعْصِيهَا فَنَى وَيُطْعِمُهَا

وَنَفْسٌ مِنْ نَفْسِكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى

إِذَا قُلٌّ مِنْ أَحْرَارِهِنْ شَفَعُهَا

(١) الأدم ١٦ .

يقول : لكل انسان نفسان : نفس كريمة تأمر بالخير ونفس تأمر بالشر
 فيصعبها مرة ويطيعها أخرى . وأنت نفسك الأمارة إذا أمرتك بترك الكرم
 شغعت النفس الكريمة في الحالة التي يقل الشفيع في الكرم من النفوس . وهذا
 الأسلوب يعود إلى أنه أكرم الناس وأجدرهم بالمديح .

والمذهب الكلامي بعد ذلك له أمثلة من كتاب الله والشعر قديمه ومتأخره .
 وقد أوضح ابن حجة هذه المسألة ورفض ما ذكره ابن المعتز . وقال : « وقيل :
 إن ابن المعتز قال : « لا أعلم ذلك في القرآن » أعني المذهب الكلامي . وليس
 عدم علمه مانعاً من علم غيره ^(١) » .

حسن التعليل :

هو أن يدعى الوصف علة . والنية له باعتبار لطيف غير حقيقي ^(٢) . وهو
 عند عبد القاهر نوع من التخيل . « وقد قال عنه وهو يتحدث عن التخيل :
 « ونوع آخر . وهو أن يدعى في الصفة لثابة للشيء أنه إنما كان لعله يضعها
 الشاعر ويخلفها إما لأمر يرجع إلى تعظيم المدح أو تعظيم الأمر من الأمور ^(٣) » .
 ومن الغريب في ذلك قول الشاعر :

لو لم تكن نية البهوزاء خدمته

لما رأيت عليها عيشة مستعينة

فقد علل اجتماع النجوم حول البهوزاء بأنها امتعزاز لخدمة المدح والاعتراف
 بما انقطعت تلك الأنظمة .

ومنه قول المتنبي :

(١) خزنة الأدب ص ١٦٤ .

(٢) الانشراح ص ٣٦٧ .

(٣) أعرار البهولة ص ٢٥٩ .

لَمْ تَحُلْكَ لِمَالِكَ السَّحَابِ وَأَمَّا حَمَلَتْ بِهِ قَصِيْبُهَا الرُّحْفَاءُ
فَالسَّحَابُ لَمْ تَنْزِلِ الْمَطَرُ إِلَّا لِأَنَّهَا حَمَلَتْ مِنْ لَائِلِ الْمَدْلُوحِ وَكَرَمِهِ فَكَانَتْ
كَالْعَرَقِ الَّذِي يَنْصَبُّ مِنْ جِسْمِ الْمَحْضُومِ .
ومنه قوله :

وَمَا رَجَّحَ الرِّيَاضُ لَهَا وَلَكِنْ كَسَاهَا دَفْنُهُمْ فِي الشَّرْبِ طِيْبًا
ومنه قول أبي العباس الغُبَيْبِي :
لَا تَرْكَنْ إِلَى الْفَسَادِ قَرِ وَإِنْ سَكَتَتْ إِلَى الْعَنَاقِ
فَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا تَهْجُرُ مِنْ فَرْقِ الْفِرَاقِ
فَصَمْرَارُ الشَّمْسِ عِنْدَ الْغُرُوبِ بِسَبَبِ سَاعَةِ الْوَدَاعِ وَالْفِرَاقِ .
وقول ابن المعتز :

قَالُوا اشْكَيْتَ عَيْنَهُ فَقَاتِ لَهَا مِنْ كَثْرَةِ الْقَتْلِ نَالَهَا الْوَحْشَ
حُمِرَتْهَا مِنْ دَعَاءٍ مَنَ قَتَلْتُ وَالِدَمَ فِي النِّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ
وقوله :

صَدَّتْ شَرِيرٌ وَأَزِيغَتْ مَجْشَرِي
وَصَكَّتْ ضَمَائِرُهَا إِلَى الْقَسْرِ
قَالَتْ كَبَّرَتْ وَشَبَّتْ قَلَّتْ لَهَا
هَلَا غَيْبٌ وَقَالَعِ الدَّهْرُ
وقول أبي تمام :

كَانَ السَّحَابُ الْعَرَّ غَيْبًا لَهَا
حَبِيبًا فَمَا تَرَكَا هَسْنٌ مَدَامِيعُ
وقد تكون لشيء علة مشهورة عن طريق العادات والظواهر ثم يأتي الشاعر
فيضع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى . كقول المتنبي :

ما يسه قتل أعدائه ولكن ينفي إعلافة ما ترجو الذئاب

والمعروف ان قتل الرجل لعدهه يكون للدفاع عن النفس أو حماية الوطن ، ولكن المتن لم يذكر هذه العلة وإنما قال ان سيف الدولة يقتل أعدائه لأجل طعام الذئاب التي وعدوا أن يقدم لها لحم الأعداء ، وهو يفعل ذلك لأجل أن لا يخلف في وعده لها .

ومنه قول أبي طالب المأمون يمدح بعض الوزراء :

«مزم بالثناء صبت بكساً»

«لا يذوق الإغواء إلا رجسها»

ودراسة عبد القاهر لهذا الفن من أروع الدراسات وأحسنها . ولم يهدف إليها أحداً ما يكسبها جادة أو يطورها وكل ما فعله المتأخرون أنهم تحسوا كلامه وأعطته . فالقزويني مثلاً قسم حسن التعليل إلى أربعة أقسام : لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته ، أو غير ثابت أريد اثباته ، والاول إما أن لا يظهر له في العادة علة . أو يظهر له علة غير المذكورة . والثاني إما ممكن أو غير ممكن . وكلام عبد القاهر أقرب من هذا الكلام لأنه لم يقسم الفن هذا التقسيم العقلي ، ولا دخل للممكن أو غير الممكن فيه لأن الأمر يتعلق بالتخييل ، والتخييل بما لا يكون ممكناً . ومن هنا جاءت دراسته طريقة هذا الفن الذي يرتبط بالتخييل لا صورته . وهذا ما أشار إليه الدارصون المحدثون فقال حامد عيد القادر : « اما التعليل الأدبي وهو المنسج لحسن التعليل فأساسه الخيال والعاطفة . والغرض منه التأثير في الوجدان وإدخال السرور على السامع بمدحه أو التخفيف من وقع مصيبة أصابته أو شدة ألم ألم به أما التعليل العلمي فمردة إلى التعليل والتدبر العقلي والبحث في طبائع الأشياء . » وفرق بينهما من جانب آخر فقال : « إن التعليل العلمي تعليل واقعي موضوعي يرجع فيه العالم إلى الواقع والحقيقة ، وإن التعليل الأدبي تعليل ذاتي نفسي يرجع فيه الأديب إلى فوقه

الخيال الأدبي وعاطفته الجمالية^(١) .

التورية :

وتسمى الأبيام والتوجيه والتخييل والمغالطة ، ويرى ابن حجة الجسوي أن « التورية » أولى بالتسمية لقربها من « مطابقة المعنى » لأنها مصدر « ورئت الخمر تورية » إذا سترته وأظهرت غيره . « كأن المتكلم يجعله وراءه بحيث لا يظهر .^(٢)

والتورية أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية فيريد المتكلم المعنى البعيد ويوري عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك . ولأجل ذلك سمي هذا الفن [رباعاً] .

ولم يكن المتقدمون يعنون بهذا النوع كثيراً . ولكن المتأخرين شغلوا به جداً ، وأكثروا منه . وأصبح سمة واضحة في أشعارهم . وإلى ذلك أشار ابن حجة بقوله : « لأن هذا النوع أعني التورية ما تنبّه لحاسته إلا من تأخر من حذائق الشعراء وأغنياء الكتاب . ولعمري أنهم بذلوا الطاقة في حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من باب . فإن التورية من أعلى فنون الأدب وأعلامها رتبة ، وسحرها ينبت في القلوب ويفتح لها أبواب عطف ومحبة . وما أجزز شمسها من غيوم النقد إلا كل ضامر مهزول ولا أحرز قصبات سبلها من المتأخرين غير الضحول^(٣) » .

(١) دراسات في علم النفس الأدبي ص ١٩ - ٢٩ .

(٢) حركات الأدب ص ٢٢٩ .

(٣) حركات الأدب ص ٢٢٩ .

ومن أمثلتها قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى »^(١) ، « لأن الاستواء على معنيين :

أحدهما : الاستقرار في المكان . وهو المعنى القريب المورى به الذي هو غير مقصود ، لأن الحق تعالى وقُدس منزّه عن ذلك .

وثانيهما : الاستيلاء والملك وهو المعنى البعيد المقصود الذي وُرى عنه بالقرب المذكور .

ومعناها قوله — عليه السلام — حين سئل في محبته عند خروجه إلى بدر فقيل لهم : من أنتم ؟ فلم يرد أن يعلم السائل . فقال : « من ماء » أراد إذا مخلوقون من ماء . فوُرى عنه بقبيلة يقال لها ماء .

ومعناها قول أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — في الهجرة وقد سئل عن النبي — صلى الله عليه وسلم — : « من هذا ؟ » فقال : « هاد يهديني » أراد : هادياً يهديني إلى الإسلام . فوُرى عنه بهادي الطريق وهو الدليل في السقر . ومن الثبوتية قول النبي :

برغم شبيب فارق السيف كفتيه
وكأنا على العلات يصطحبسان
كأن رقابة الناس قالت السيفه
رفقتك قيسي^٢ وأنت يمانسي

يقول : إن كف شبيب وسيفه متنافران فلا يجتمعان ، لأن شيئاً كان قسيّاً والسيف يقال له يمانى . فوُرى به عن الرجل الشوب إلى اليمن ، ومعلوم ما بين القيسيين واليمانيين من التنافر .

(١) طه ٥ . وقال الزمخشري في الكيفيات : « إنها كناية عن الملك كما في قوله : « يدعون يسوعاً » و « يدعون مفلوكاً » بمعنى أنه جواد أو بخيل » . الكشف ج ٢ ص ٥٢ .

ومن ذلك قول الحمادي :

فلما ثأث عنا العشرة كلها

أثأثنا ففعلنا السيوف على الدهر

فما أسلمتنا عند يوم كريمة

ولا نحن أغضبتنا الجفون على ونشر

فإن الانغضاء مما يلائم جنن العين لا جنن السيف وإن كان المراد به إغمد
السيوف لأن السيف إذا أغمد انطبق الجفن عليه وإذا جرد انفتح .

وقد ذكر ابن حجة أن^١ المتنبي أول من كشف غطاء التورية وجلا ظلمة
إشكالها بينيه السابقين ، وهذا صحيح ، لأن القدماء لم يهتموا بها كثيراً ، وإن
وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف وشعر المتقدمين . وقال السكاكي :
« وأكثر التشابهات من هذا القليل^٢ » . ولكن التأخرين عنوا بها عناية
كبيرة ووشحوا بها كلامهم ووضعوا فيها المؤلفات ككتاب « فض الحتام عن
التورية والاستخدام » لصالح الدين الصفدي ، والفصل الطويل الذي كتبه ابن
حجة الحموي في « خزائن الأدب » وقد رغب في أن يؤلف فيها كتاباً يسميه
« كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » ، لأن الصفدي لم يشغف القلوب
بترتيبه ولا تفقه في بديعه وغريبه .

والتورية أربعة أنواع^٣ :

الأول : التورية المجردة ، وهي التي لم يذكر فيها لازم من لوازم المورى
به وهو المعنى القريب ولا من لوازم المورى عنه وهو المعنى البعيد . ومثاله قوله
تعالى : « الرحمن على العرش استوى^٤ » ، ولم يذكر من لوازم ذلك شيء .

(١) مفتاح العلوم ص ٩٠٩ .

(٢) خزائن الأدب ص ٥١١ وقد يفتأ .

(٣) ط ٥ .

فالتورية مجردة ومثلها حديث الرسول - عليه السلام - السابق وقول أبي بكر الصديق (رضي) .

الثاني : التورية للترشحة . وهي التي يذكر فيها لازم المورى به سميت بذلك لتقريبها بذكر لازم المورى به ، ثم تارة يذكر اللازم قبل لفظ التورية وتارة بعده فهي بهذا الاعتبار قسمان :

١ - الأول منها هو ما ذكر لازمه قبل لفظ التورية . كقوله تعالى : « والسَّامِ بِتَنْبِيئِهَا بِأَيْدٍ ^(١) » . فان قوله « بأيدٍ » يحتمل الجارية وهو المعنى القريب المورى به وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح « البيان » . ويحتمل القوة وعظمة الخالق . وهذا المعنى البعيد المورى عنه وهو المراد فان الله تعالى منزّه عن المعنى الأول .

ومنه أيضاً بيتا الخمامي السابقان .

٢ - والقسم الثاني منها هو ما ذكر لازمه بعد لفظ التورية . كقول الشاعر :

مَدُّ هَيْبَتٍ مِنْ وَجْدِي فِي عَالِمَا

وَلَمْ أَصِلْ مِنْهُ إِلَى التَّلَاسِمِ

قالت : فقروا واستمعوا ما جرى

عَالِي قَسَدٍ هَامٍ بِهِ عَمَلِي

فالخال يحتمل أن يكون خال النسب وهو المعنى القريب المورى به وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية على جهة الترشيح وهو العم .

الثالث : التورية المُبَيَّنَّة . وهي ما ذكر فيها لازم المورى عنه قبل لفظ التورية أو بعده . وهي قسمان :

١ - الأول هو ما ذكر لازمه من قبل . كقول الجحري :

(١) تارة ٤٧ .

وراء "سديدة" الشاع مليسة

بالحسن تملح في القلوب وتعدب

١ - « تملح » تحتمل أن تكون من الملوحة وهو المعنى القريب المورى به ،
وتحتمل أن تكون من الملاحة وهو المعنى البعيد المورى عنه . وقد تقدم
من لوانه على جهة التنبيه « ملية بالحسن » .

٢ - والقسم الثاني هو الذي يذكر فيه لازم المورى عنه بعد لفظ التورية ،
كقول ابن سناء الملك :

لما ولت لولا خوف سخطك كان عليّ ما ألقى برحطك
ما كنت الخافقن فتحت عجباً وليس هما سوى قبي وقرطك

يحتمل : الخافقن « أن يريد ملك المشرق والمغرب وهو المعنى القريب
المورى به . ويحتمل أن يريد قلبه وقرط محبوبته وهو المعنى البعيد المورى عنه ،
وهو المراد فإن الشاعر صرح بهد « الخافقن » بذكر القلب والقرط .

الرابع : التورية النهاية . وهي التي لا تقع فيها التورية ولا تنهى إلا باللفظ
الذي قبلها أو باللفظ الذي بعدها . أو تكون التورية في لفظين لولا كل منهما
لماحيات التورية في الآخر . فاللهية بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام :

١ - الأولى . وهو الذي تنهى فيه التورية من قبل كقول ابن سناء الملك :

وصيرك فيما سيرة "عديسة"

فروحت عن قلب وأفرجت عن كرب

وأظهرت فيما من سميتك سلسة

فأظهرت فاك القرض من فاك التدب

يحتمل « القرض » و « التدب » أن يكونا من الاحكام الشرعية وهذا هو
المعنى القريب المورى به . ويحتمل أن يكون « القرض » بمعنى العطاء و
« التدب » صفة الرجل السريع في قضاء الخرائج الماضي في الامور . وهذا هو

المعنى البعيد المورى عنه . ولولا ذكر « السنة » لما ثبتت التورية فيها ولا فهم من القرض والتدب الحكمان الشرعيان اللذان صححت بهما التورية .

٢ - والقسم الثاني هو الذي تنهيا فيه التورية بلفظة من بعد ، كقول الشاعر :

لولا التطيرُ بالخيلاف وأنهم
قالوا مريض لا يعود مريضاً
لقضيت نعماً في جنابك خدمةً
لأكون منادياً قفى مفروضاً

فالمنادوب يحتمل أن يكون أحد الاحكام الشرعية وهو المعنى القريب المورى به ، ويحتمل الميت الذي يبكي عليه وهو المعنى البعيد المورى عنه .

٣ - والقسم الثالث ، هو الذي تقع التورية فيه في لفظين لولا كل منهما لما ثبتت التورية في الآخر ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

أيا المنكح الثريا سهيلاً عسرك الله كيف يلتقيان
هي شامة إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل بماني

يحتمل أن يكون « الثريا » ثريا السماء ، و « سهيل » النجم المعروف بسهيل وهو المعنى القريب المورى به . ويحتمل أنه يكون « الثريا » بنت علي بن عبد الله ابن الحارث بن أمية الأصغر ، و « سهيل » بن عبد الرحمن بن عوف . وهو المعنى البعيد المورى عنه .

ولئن التورية من القنون التي تحتاج إلى معرفة واسعة وإدراك عميق وربط بين المعاني والصور ، وهي بذلك من القنون التي تخدم الأديب حينما لا يريد الإفصاح عن مغزاه . ولولا ما لحق بها من تعميل وإسراف لظلت فناً جميلاً يصنع به الأدباء في كل زمان .

الاستخدام :

ربط القدماء بين هذا الفن والتورية ، لأن بينهما صلة في فكر معينين ، وفيه رأيان :

الأول : رأي الخطيب القزويني . ويتضح في تعريفه للاستخدام ، وهو أن يراد باللفظ له معنيان أحدهما . ثم بضميره معناه الآخر . أو يراد بأحدهما بضميره أحدهما . وبالأخر الآخر^(١) .

فالأول كقول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعبنا وإن كانوا غيبا
أراد السماء : الغيث . وبضميرها « التبت » .

والثاني كقول البحري :

فسق الغضا والساكنية وإن هم شيوه بين جوانح وضلع
أراد بضمير « الغضا » في قوله « والساكنية » المكان ، وفي قوله « شيوه » الشجر .

وعلى هذا الرأي سار أصحاب البديعيات .

الثاني : رأي بدر الدين بن مالك . وهو أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين . ثم يأتي لفظين يفهم أن أحدهما أحد المعنيين . ومن الآخر المعنى الآخر . ثم أن اللفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك وقد يكونان متقدمين . وقد يكون اللفظ المشترك متوسطاً بينهما^(٢) . كقوله تعالى : « ليكنن أجلك كتاباً » . يتمحو الله ما يشاء ويُنشئ^(٣) . « فان لفظة « كتاب » تشمل أن يراد بها الأجل المحتوم والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظين

(١) الأنصحر ص ٣٥٤ .

(٢) تنظر حركة الألف ص ٥٤ ، لأن الاستخدام سقط في نسخة الصباح المطبوعة .

(٣) الرعد ٣٨ و ٢٩ .

«أجل» و «بحو» فاستخدمت أحد مفهوميهما وهو «الأمد» بقرينة «الاجل» واستخدمت المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب بقرينة «بحو» .
وهذان الرأيان في الاستخدام يرجعان إلى مقصود واحد هو استعمال المعنيين وهذا هو الفرق بينه وبين الثورية التي لا يراد منها إلا أحد المعنيين .
وقد يلتبس الاستخدام بالثورية ولذلك عدوه من الفنون الصعبة للسلك .
وهو أعلى رتبة منها عند علماء اليدبع .

الإرصاد :

وهو أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي . ويسمى «التشهير» ، وهو مأخوذ من الثوب المسهم وهو الذي يدل أحد سهامه على الآخر الذي قبله لكون لونه يقتضي أن يليه لون مخصوص به لمجاورة اللون الذي قبله . ويسمى «التوشيح» ، وفضل أبو هلال أن يسمى «التبيين» ، وقال في تعريفه : «سمي هذا النوع التوشيح ، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ولو سمي تبييناً لكان أقرب» ، وهو أن يكون مبتدأ الكلام بني من مقطعه وأوله يغير بآخره ، وصدره يشهد بعجزه حتى لو سمعت شعراً أو عرفت رواية ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه . وغير الشعر ما تسابق صدورهم وأعجازه ومعاليه وألفاظه^(١) .

ورأى ابن الأثير أن تسميته بالإرصاد أول وذلك حيث ناسب الاسم وسماه ولاق به ، أما التوشيح فتوع آخر من علم البيان^(٢) ، وسماه أبو هلال تبييناً ولكنه جازى السابقين وسماه توشيحاً كقدامة بن جعفر الذي عدّه من نعت التلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت ، وقال عنه : «هو أن يكون

(١) كتاب الصناعات ص ٣٨٢ .

(٢) الفل السراج ٢ ص ٣٥٠ .

أول البيت شاهداً بقايتيه ومعناه متعلقاً به حتى أن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته ^(١) . وذكر ابن رشيق تسمية قدامة وأن سماء تسهياً كما سماء علي بن هارون المتجم ، وسماء ابن وكيع ، المطيع ^(٢) . وذكر ابن سنان أن بعضهم يسميه توشيحاً وبعضهم يسميه تسهياً ^(٣) . وعقد ابن حجة فصلين لكل واحد منهما وعرف التوشيح بقوله : « اتفق علماء اليدبع على أن التوشيح أن يكون معنى أول الكلام دالاً على لفظ آخره ، ولهذا سموه التوشيح فانه ينزل فيه المعنى منزلة الوشاح وينزل أول الكلام وآخره منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح المذين يحول عليهما الوشاح ^(٤) » وعرف التسهيم بقوله : « ولعرفه أن يتقدم مسن الكلام ما يدل على ما يتأخر تارة بالمعنى وتارة باللفظ كآيات أخت عمرو ذي كلب ، فإن الحدائق تعاني الشعر وتأليفه يعلمون معنى قولها : « فاقسم يا عمرو لو نبهاك » يقتضي أن يكون تمامه : « إذا نبها منك داء عضالا » دون غيره من القوافي لانه لو قال مكان « داء عضالا » : « لئلا غضوبا » أو « أفعى فتولا » أو ما ناسب ذلك لكان « الداء العضال » أبلغ إذ كل منهما ممكن مغالطة والتوقي منه والداء العضال لا دواء له . هذا مما يعرف بالمعنى ، وأما ما يدل على الثاني دلالة لفظية فهو قولها بعده :

إذا نبها لست عريسة	مقيتاً مقيتاً نفوساً ومالا
وعرق تجاوزت مجهولاً	بوجناء حرف تشكى الكلالا
فكنت النهار بسبه شمس	
بقتضي أن يتلوه :	وكننت دجا الليل فيه الملالا

(١) لغة الشعر ص ١٩٦ .

(٢) أسنن ج ٢ ص ٤٦ .

(٣) سر القصة ص ١٥٧ .

(٤) خزائن الأدب ص ١٠٠ .

ومنه قول البحري :

أَحْكَمْتُ دَمِي مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ وَحَرَّمْتُ
فَالَيْسَ الْمَلِكُ مُسْجِلًا شَيْئًا عَصِيًّا

ومن هنا يعرف المأذوب أن الأئمة : وليس الذي قد حرمت إعرام^(١)

ومعهم الإجماع على أن الموتين الذين يمكن استعمالهما في أي واحد
منهما ، وبذلك يبقى تعيينهما غير واضح .

وهذا الذي من غير ذلك استعمله ابن خنير الكلام ما دل بعضه على بعضي
كما ذكر أبو عبد الله أن الأئمة لم يمتثلوا لأمره تعالى : « وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ
إِلَّا أَمْرٌ وَاحِدٌ » واعتكفوا على كلمة « مَبْكُوتٌ » من ربك^(٢) لتقصي
بَيْتِهِ فيما فيه يتخلل^(٣) . فإذا وقف السامع على قوله تعالى : « لَتَقْصِيَّ
بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ » عَرَفَ أن بعده « يَتَخَلَّلُونَ » لما تقدم من الدلالة عليه .

ومنه قوله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ
الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا . وَإِنْ أَوْهَنَ الْيَبُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ^(٤) »
فإذا وقف السامع على قوله - عز وجل - : « وَإِنْ أَوْهَنَ الْيَبُوتُ » علم أن
بعده : « لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ » .

ومنه قول النابغة الذباني :

فداء لأمريء سارت إليسه
بعلقة ربا عني وخصائي

(١) حراة الآدم من ٢٧٤ .

(٢) يونس ١٩ .

(٣) العنكبوت ١١ .

ولو سكتي اليمين بكتك غونا لأفردتُ اليمين عن الشمال
وليس يذهب على السامع وقد عرف القافية في البيت الأول ان البيت الثاني
ينتهي بـ « الشمال » .

وقول أبي صخر الغنلي :

عجبتُ لسعي الدهر بيني وبينهم فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وقول الراعي :

وان وزن الحصى فوزنت قومي وجدت حصى غزيرتهم رزينا
قال أبو هلال : « إذا سمع الانسان أول هذا البيت وقد تقدمت عنده
قافية القصيدة استخرج لفظ قافيته » لانه عرف ان قوله « وزن الحصى » سيأتي
بعده « رزين » لعائين :
إحداهما : أن قافية القصيدة توجه .

والأخرى : ان نظام البيت يقتضيه « لأن » الذي يتأخر برجاحة الحصى
ينبغي أن يصقه بالوزنة (١) .

الاستطراد :

هو أن يأخذ المشكك في معنى بيتا يمر به بأخذ في معنى آخر وقد جعل
الأول سببا إليه وذكر الخافعي في « حلية المحاضرة » انه نقل هذه التسمية عن
البحراني الشاعر . ويقال ان البحراني نقلها عن أبي تمام . وهو الذي سماه ابن
العز الحروج من معنى إلى معنى وبمعنى في باب حسن الخروج . وقال عنه أبو

(١) كتاب المناقب ص ٢٨٤ .

هلال انه يقرب من باب حسن الخروج^(١) . وعرفه ابن رشيقي بقوله : « هو ان يرى الشاعر انه في وصف شيء » . وهو انما يريد غيره ، فان قطع أو رجع الى ما كان فيه فذلك استطراد وان تهادى فذلك خروج . وأكثَر الناس يسمي الجميع « استطراداً » والصواب ما بينته^(٢) . وقال العلوي إنه من علم البلاغة دقيق المجري عزيز القوائد . يستعمله الفصحاء ويعول عليه أكثر الباحثين . وعرفه بقوله : « ومعناه في مصطلح علماء البيان أن يشرح التكلم في شيء من فروع الكلام ، ثم يستمر عليه فيخرج الى غيره ثم يرجع الى ما كان عليه من قبل . فان تهادى فهو الخروج . وان عاد فهو الاستطراد^(٣) » .

ومنه قوله تعالى : « أقِمِ الصَّلَاةَ لَدُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً » . وعين الليل فتشبهه به فاقوله^(٤) لك^(٥) . وقوله : « وَقُرْآنَ الْفَجْرِ » من الاستطراد الرائق لانه يخرج من ذكر الليل الى ذكر قرآن الفجر . ثم عاد بعده الى ذكر الليل . وهذه هي قاعدة الاستطراد وحقيقتها .
ومنه قوله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ لَوْ كَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الْقَابِلَيْنِ لَفُتِحَتْ لَكُمُ الْبَابُ وَالْغَيْثُ وَالْجَبَلُ لَفُتِحَتْ لَكُمُ الْبَابُ وَالْغَيْثُ وَالْجَبَلُ لَفُتِحَتْ لَكُمُ الْبَابُ » . فبينما يدل الله - سبحانه - على نفسه بالآيات الغيث والغيث والجنات والنبات دليلاً عليه ولم يكن في تقدير السامع لأول الكلام إلا انه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر دون الدلالة على الاعادة ، فاستوفى المعنيين جميعاً .

(١) ينظر البديع ص ٦٠ . وكاتب الصائغين ص ٥٠٠ . وتحرير التحرير ص ١٢٠ . وعزلة الكتب ص ٥٥ .

(٢) المعاني ص ٢٩ .

(٣) التمرار ص ١٢ .

(٤) الأبرار ص ٦٩ .

(٥) قصائد ص ٢٩ .

ومما جاء منه قول أبي بكر الطخّاف :

عرضت عليها ما أُرادتُ من لذي	لرعى فقلت قم فيجني بكوكب
فقلت لها هذا التعتُّ كُلاه	كن يتشهى لحم عتقاء مُعزَّب
سلي كل شيء يستقيم حلاليه	ولا تذهبي بأبدر في كل مذهب
فأقسم لو أصبحت في عز مالك	وقدرته أعبأ بما رمت مطلي
ففي شقيتُ أمواله ينسأله	كما شقيت بكر بأرماح تغلب

قال ابن أبي الأصبع : « وهذا أبداع استطراد سمعته في عمري ، قاله قد
حجج أحسن قسم . وأبداع مخلص ، وأرشق استطراد ، وتضمن مدح المدحوس
بالكرم وقيلته بالشجاعة والظفر ، وهجاء أعدائهم بالضعف والخور . وهذا
لم ينفق لمن قبله ولا لمن بعده إلى وقتنا هذا ^(١) » .

وقول الآخر :

وأحسبتُ من حبيها الباخلين	حتى ومقتُ ابن سلم سعيدا
إذا سيل عرفاً كسا وجهه	ثيابا من اللؤم بيضا وسودا

فقوله : « حتى ومقت ابن سلم سعيدا » من الاستطراد ؛ لأن صبر البيت
يذكر كونه حبا لكل الخيل .

ومنه قول السموال :

وإنا لقوم لا نرى القتل سيئة إذا ما رأته عامرٌ وسلولٌ

فقد افتخر بقومه ، ثم هجا عامرا وسلولا . وعاد بعد ذلك إلى الفخر
فقال :

يقرب حب الموت آجالنا لنا ولكرمه آجالهم فتطول

(١) لحرار التحرير ص ١٢٦ .

ومنه قول حسان بن ثابت :

إن كنت كاذبة التي حدثني فنبوت منحي الخارث بن هشام
ترك الأجمة أن يقاتل دونهم فنجنا برأس طسرة وبخام
فقد خرج من الغول إل هجو الخارث بن هشام .

وقول بشار :

خليل من كعب أعينا أملاكنا على دهره إن الكريم معيل
فلا تبخلنا بخل ابن قزعة إنسه عاقلة أن يرجي نداء حزين
إذا جتته في الخلق أفاق بابسه فلم تلتقه إلا وأنت كين
وقول أبي تمام :

وسابع هشام المتجدد حنان على الجراء أعين غير خزان
أطى الفصوص ولم تضاموا منه لخل عينيك في طمان ريان
فلوتراه مشيحاً والحصى زيم بين السابك من ملى ووحدان
أبقت إن لم تثبت سنان حافره من صخر تدمر أو من وجه عثمان

قال الصولي : « ثم قال لي : ما هذا من الشعر ؟ قلت : لأدري . قال هذا
لشطره . أو قال الاستطراد . قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يرى أنه يريد
وصف القوس ، وهو يريد هجاء عثمان ^(١) . »

وذكر القزويني نوعاً من الاستطراد سماه : إيهام الاستطراد . وذلك بأن
يكون الثاني هو المقصود فيذكر الأول قبله لينتقل إليه ^(٢) . كقول أبي إسحاق
الصائي :

(١) أخبار أبي تمام ص ٢٠٠ . وأخبار القزويني ص ٤٩ . وأخبار التبريزي ص ١٠٤ .
(٢) المصباح ص ٣٥٠ .

إن كنتُ حنكاً في المودة ساعةً
فلذت سيف الدولة المصودا
وزعت أن له شريكاً في العلى
وجعلته في فضله التوحيدا
قسماً لو لي حالفٌ بغيرها
لغير دين ما أريد مزبدا

تأكيد المدح بما يشبه الدم :

ذكره ابن المعتز في بديعه ، وهو عنده من محاسن الكلام ، وسماه بعض
الباحثين ، الاستثناء ^(١) ، لأن حسنة المعنوي من أثر أداة الاستثناء التي يبنى
عليها . والى ذلك أشار ابن أبي الأصبغ غير أنه قال : « وكنت أرى أنها باب
واحد إلى أن ينهي عليه عند قراءته من ألفت له هذا الكتاب فرأيت إفراجه
منه ^(٢) » . وهذا الفن نوع من الغلو والافراق ^(٣) ، وهو ضربان :

الأول : أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقديرها فيها ،
وهو أفضل الضربين ، كقول النابغة الذبياني :

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
بين فلولٍ من قراعِ الكتاب

أي : إن كان فلول السيف من قراع الكتاب من قبيل العيب ، فأثبت
شيئاً من العيب على تقدير أن فلول السيف منه وذلك محال ، فهو في المعنى تعريض
بالمحال كقولهم : « حتى يبيّض القار » .

وعلى القزويني فائدة هذا الفن بأن التأكيد فيه من وجهين ^(٤) :

الأول : بأنه كادعوى الشيء ببينة .

(١) ينظر كتاب الصنائع ص ٤٠٨ ، وإيجاز القرآن ص ١٠٩ ، والعمدة ج ٢ ص ٤٨ .
(٢) تحرير النحرير ص ١٢٤ .
(٣) القواعد ص ١٩٥ .
(٤) الأصبغ ص ٢٧٢ .

والثاني : إن الأصل في الاستثناء أن يكون متصلاً . فإذا قلنا لشككنا
 بـ « إلا » أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها مفسر
 بما قبلها فيكون شيء من صفة الدم ثابتاً وهذا ذم . فإذا أتت بعدها صفة مدح
 تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح .

والضرب الثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بإداة استثناء تليها
 صفة مدح أخرى له . كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « أنا أفصح
 العرب زيد أي من قریش » .

ومنه قول النابغة الجعدي :

فنى كنت أخلاقه غير أنه جواد فما يهني من المال باقوا

وأصل الاستثناء في هذا الضرب أن يكون منقطعاً لكنه باقٍ على حاله لم
 يتقدر متصلاً فلا يفيد التأكيد إلا من الوجه الثاني . ولذلك كان الأول عند
 البلاغيين أفضل .

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضرب ثالث وهو أن يأتي الاستثناء فيه مفرغاً
 كقوله تعالى : « وما تنقمُ ميثاً إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاء كُنَّا »^(١)
 أي : وما تعيب منا إلا أصل المناقب والمخاطر كلها . وهو الايمان بآيات الله .

ويجري الاستدراك في هذا الباب مجرى الاستثناء كما في قول أبي الفضل
 يبيع الزمان القمذاني :

هو البدر إلا أنه البحر زاحسر سوى أنه الصرغام . لكنه الويل

وقد أشار القزويني إلى أن في هذا الفن نوعاً من الخلابة . ولكن ما هي ؟
 لم نستطع أن نوضح هذه الخلابة وبين أهمية هذا الفن وقيمته في التعبير إلا ما
 كان من دعوى الشيء بيينة . والتعليلان الفقهوي والنحوي لا يجديان في اظهار

(١) الأعراف ١٦٦ .

جمال هذا النوع وخلابته ، وقد صرح أن يعقوب المغربي أن في هذا التعليل تمحلاً^(١) وإن قال من الثاني إنه أبلغ وأنه توجيه يستملح ويطلع به الصدر في إفادة التأكيد حقيقته ، والأول إنما أفاد التأكيد بأمر تحصيل^(٢) . ويرى الأستاذ أمين الخولي أن السر النفسي لجمال هذا الفن ما فيه من معنى المباغة والمفاجأة التي تكسبه طرافة وتثير حوله تنبيهاً سواء أكانت هذه الطرافة تقوم على اتصال الاستثناء أم يتحول معها منقطعاً . فإن المباغة هي الأصل لا ملاحظة الاستثناء وحالته^(٣) .

وهذا التعليل أقرب من تعليل القدماء وإن كان يقوم على ما أشاروا إليه من التأكيد والاستثناء غير أنه على غير وجهته الحقيقية وبذلك يثير انتباهاً لما فيه من مباغة مثيرة .

تأكيد الفهم بما يقبه المدح :

وهو كالفن السابق يقوم على الاستثناء وما فيه من مباغة . وهو ضربان^(٤) :
 الأول : أن يستثنى من صفة مدح منقبة عن الشيء صفة ذم بتقدير دخولها فيها . مثل : « فلان لا خير فيه إلا أنه سي » أن من يحسن إليه .
 الثاني : أن يثبت للشيء صفة ذم ويعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له . مثل : « فلان فاسق إلا أنه جاهل » .

التفسير :

وهو من مستطربات قدامة بن جعفر . وقد تحدث عنه في أنواع المعاني

(١) مواهب اللذات (شرح النخعي) ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٢) مناهج تجريد ص ١٩٧ .

(٣) الأنصاف ص ٣٧٤ .

وقال عنه : « هو أن يضع الشاعر معاني يزيد أن يذكر أحوالاً في شعره التي يصنعها فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ولا يزيد أو ينقص ^(١) »

وقال ابن رشيق : « هو أن يستوفي الشاعر شرح ما أبدأ به جملته ، وقدمه بجيء هذا إلا في أكثر من بيت ^(٢) » ، كقول الفرزدق :

لقد خُشيت قوما لو بلغت إليهم طريد دم أو حاملًا نقل منفرم
لألفيت منهم مُعطياً أو مطاعاً وراءك شرراً بالوشح المقوم ^(٣)

فلما كان البيت الأول محتاجاً إلى تفسير جاء بالبيت الثاني ففسر قوله : « حاملًا نقل منفرم » بأنه يلقي فيهم من عطيه . ففسر قوله : « طريد دم » بقوله أنه يلقي فيهم من يطاعن دونه ويحميه .

ومنه قول الحسين بن مطير الشامي :

فله بلا حزن ولا بمسرة فحدث يراوح بينه وبكساء
ففسر « بلا حزن » بكاء . « ولا بمسرة » بضحك .

وأكثر ما في التفسير عند ابن رشيق السلامة من سوء التفصيل كقول الشاعر :

مضى ما يجيء يوماً إلى المال والرتي يجد جميع كف غير ملأى ولا سفر
يجد فرساً مثل العنان وصارماً حساماً إذا ما هز لم يرض بالخير
واسمر عطياً كأن كعوبه توى القصب قد أربى ذراعاً على عشر

قال : « فهذه التفسير الصحيح السليم من ضرورة التفصيل : لانه لم يعلق

(١) لغة الشعر ص ٥٥ .

(٢) المذهب ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) دم : تار من سبيل المطار . النعم : ما يلزم أدائه من المال . اللوتج : شعر الرماح . المقوم : الشلق المدلج .

كلامه : « لو » كما فعل القرزوقي ولا بما يقتضي الجواب القضاة كالأمر ، فلهذا حسن عندني (١) .

ومن التفسير ما ينسر الأكثر فيه الأقل^٢ . وهو من باب الإيجاز والاختصار وذلك ما أتت فيه الجملة بعد الشرح . كقول الشني :

من مبلغ الأعراب أنني بعددنا	جالست رسطاليس ^٣ والاشكندرا
وملت نحو عشارها فأضافني	من ينجر البدر ^٤ التنصار لمن قري
وسمعت بطليموس دارم كتبه	متملكاً . متبدأ . متحضرأ
ولقيت كل الفاضلين كأنما	رد ^٥ الآلهة تقوسهم والأعصرأ
تسفوا لنا نسي الحساب مقدما	وثنى . فملك إذ أثرت مؤعرا

والبيت الأخير تفسير يتبع للدعى .

وقائدة هذا الفن تظميم المبهم واعطافه ، لأنه هو الذي يطرق السمع أولاً فيذهب السامع فيه كل مذهب (١) . وفي ذلك ما يؤكد المعنى ويثير التخيل والتصور .

ولا يأتي التفسير حسناً في كل صورة . بل قد يجيء على خلاف ذلك . وهو ما ساء قدامة ، فساد التفسير ، ومثال ذلك البيتان اللذان ذكرهما في كتابه نقد الشعر . وهما :

فيا أيها الحيران في ظلم الدجسى	ومن عاف أن يلقاه بقي من العدى
لعال ^٦ إليه لثق من نور وجهه	ضياء ومن كفيه بحر ^٧ من الندى

ووجه العيب فيهما أن الشاعر لما قدم في البيت الأول « الظلم » و « بني العدى » كان يجيد أن ينسر هذين المعنيين في البيت الثاني بما يليق بهما فأتاه

(١) مقدمة ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) ينظر الترتيب ص ١٢٩ .

بإزاء الاضطراب بالقبضاء وذلك صواب ، وكان الواجب أن يأتي بإزاء باقي العدى بالنصرة أو العصاة أو بالناجى أو بما جانس ذلك مما ينتمي به الإنسان من أعدائه . فلم يأتي بذلك وجعل مكانه ذكر الندى ، ولو كان ذكر الفقر أو العدم لكان ما أتى به صواباً ^(١) .

وسمى قزم هذا الفن « التبيين » ^(٢) ، وسماء السكاكي والفزويني « الف والنشر » ، وقال عنه الأول : « وهو أن تلف بين شيئين في الذكر ثم تتبعهما كلاماً مشتقاً على متعلق بواحد وتأخر من غير تعيين ثقة بأن السامع يرد كلاماً منهما إلى ما هو له » ^(٣) . وقال الثاني : « وهو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الاجمال ثم ، ذكر ما لكل واحد من غير تعيين . ثقة بأن السامع يردّه إليه » ^(٤) .

ويأتي على ضربين :

الأول : أن يكون النشر على ترتيب الف كقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ليتسكّنوا فيه وليتأمنوا من فضله » ^(٥) .

والثاني : أن يكون على غير ترتيبه كقول الفرزدق :

لقد نحت قوداً لو بخت إليهم طريد دم أو حاملاً ثقل مغرم
لأليت فيهم معطياً أو مطاعناً وراءك شرراً بالوشح المقوم

ونسبة هذا الفن بالتفسير أشمل لأنه يدخل فيه الامثلة التي ذكرها البلاغيون فيه أو في الف والنشر .

(١) ينظر ثقة الشعر ص ٢٣٠ . ودر الأضاح ص ٢١٨ . والمثل السائر ج ٢ ص ٢١١ .

(٢) خزائن الأدب ص ١٠٨ .

(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠٠ .

(٤) الأنشاج ص ٢٥٥ .

(٥) القصص ٧٢ .

تجاهل العارف :

وهو من خامس بنوع ابن المعتز^(١) ، وقال عنه أبو هلال : « تجاهل العارف ومزج الشك باليقين هو : إخراج ما يعرف صحته هرج الشك فيه إيزيد بذلك تأكيداً^(٢) » . وسماه ابن رشي « التشكك^(٣) » . ولم يقبل السكاكي نسبته لتجاهل العارف وسماه « سوق المعلوم مفاق غيره^(٤) » .

ويأتي للتوبيخ كقوله تعالى : « أَصَلَاثُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَتَّبِعُهُ أَتَابُكَ أَمْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْرِ إِنَّمَا نَشَأُ^(٥) » . وقول الخارجية :

أَبَا شَجَرِ الْخَابِرِ . الْإِثْمُ مَوْزُقْسُ . كَأَنَّكَ لَمْ تَجْعَلْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ
وَالْمَبَالِغَةَ فِي الْمَدْحِ كَقَوْلِ الْبَحْرِيِّ :

أَنْتَ بَرَقَ سَرَى أَمْ ضَوْءُ مَصْبَاحٍ . أَمْ ابْتِسَامُهَا بِالْمَنْظَرِ انْفِصَاحِي
لَوْ فِي الْقَدَمِ كَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ الْخَالِ أَدْرِي . أَقَوْمٌ أَمْ حِصْنٌ أَمْ نِسَاءٌ ؟
وَأَتَدَلُّهُ فِي الْخَبِّ كَقَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ :

أَبَا شَيْبَةَ لَيْلِي مَا لَيْلِي مَرِيئِي سَسَةً . وَأَنْتَ صَحِيحٌ إِنْ ذَا لِمَحْصَلٍ
أَقُولُ لِقَبِي مَرَّي وَهُوَ رَاسِعٌ . آتَتْ أَلْحَوْلِيلُ ؟ فَقَالَ : يُقَالُ
وَقَوْلِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ :

بِاللَّهِ بِالْغُلِيَّاتِ الْقَاعُ قَدَّانٌ لِنِسَاءِ . لَيْلَايَ وَمَكْنَنٌ أَمْ لَيْلِي مِنَ الْبَشَرِ ؟

(١) « بنوع ص ٦٩ .

(٢) « كتاب التصانيف ص ٣٩٦ .

(٣) « المصباح ج ٩ ص ٦٦ .

(٤) « منتزح المعلوم ص ٦٠٢ .

(٥) « هود ٨٧ .

وقول ذي الرمة :

أيا طيبة الوعاء بين جلاليل وبين النقا أأنت أم أم ساجر ؟

وقول الآخر :

أأنت ديارُ الحى أبشها الربى الـ أتيقة أم دارُ لها والنعاسم
وسربُ طياء الحش هذا الذي أرى يربك أم سربُ الظباء النواعم
وأدعنا اللاتي عقاك انسجامها وأبلاك أم صوبُ الغمام الدوام
وأباعدنا فبك المواني نصرمت مع الوصل أم أصدعات أحلام ناسم

وقول الآخر :

أقول والنجم قد مالت مياسره إلى الغروب تلمع نظرة حصار
لنحة من سنا يرقى رأى يصصري ووجه نعم بدا لي أم سنا ناسر
بلى وجه نعم بدا واللبل معتكر فلاح من بين حجاب وأستار

وللتحقير كما في قوله تعالى في حق النبي - صلى الله عليه وسلم - حكاية
عن الكفار : « هل ندرككم على رجلٍ يستبشكم إذا مترقنم كلبٌ مُمَرِّقٍ »
أنكم لقيتم عتقاً جديداً^(١) ، والتعريف كما في قوله تعالى : « أأنت قلت
لنساءنا اتخذيْن مني وأمتي يميناً من دون الله^(٢) » . وقوله : « أأنت
فعلت هذا بآلهتنا بإبراهيم^(٣) » .

وقول مهيार الديلمي :

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها وإن كان مصقول التراب أكعلا
أأنت أثمرت الصبح أن يصدع الدجى وعلمت غصن البان أن يتملا

(١) سبأ ٧ .

(٢) لقطة ١١٦ .

(٣) الأنبياء ٦٢ .

المصادر والمراجع

الألماني (أبو القاسم الحسن بن بشر)

١ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري . ت . السيد احمد صقر . دار المعارف - القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م .
ابراهيم سلامة (الدكتور)

٢ - بلاغة أرسطو بين العرب واليونان . ط ٢ ، القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
ابن أبي الاصبغ المصري .

٣ - تحرير الشخبير في صناعة الشعر والشروبيان إعجاز القرآن . ت . الدكتور حنفي محمد شرف . القاهرة ١٣٨٣ هـ .

٤ - بديع القرآن . ت . الدكتور حنفي محمد شرف . القاهرة ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م .
ابن الأثير (ضياء الدين)

٥ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور . ت . الدكتور مصطفى جواد والدكتور جميل سعيد . بغداد ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦ م .

٦ - النثر السائر في أدب الكاتب والشاعر . ت . محمد مهدي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م .

ابن الأثير (أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري)

- ٧ - النهاية في غريب الحديث والأثر . ت . طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي . القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
أحمد إبراهيم موسى (الدكتور)
- ٨ - الصيغ اليدعي في اللغة العربية . القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
أحمد بدوي (الدكتور)
- ٩ - من بلاغة القرآن . ط ٢ ، القاهرة
أحمد مطلوب (الدكتور)
- ١٠ - اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة . بيروت ١٣٩٣ هـ -
١٩٧٣ م .
- ١١ - البلاغة عند السكاكي . بغداد ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .
- ١٢ - عبد القاهر الجرجاني (بلاغته ونقده) . بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
- ١٣ - القزويني وشروح التلخيص . بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
- ١٤ - مصطلحات بلاغية . بغداد ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
- ١٥ - مناهج بلاغية . بيروت ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .
الاصفرائيبي (إبراهيم بن محمد بن عريشاه)
- ١٦ - الأطلول (الشرح الأطلول على التلخيص) . تركيا ١٣٨٤ هـ .
الاصفهانى (أبو الفرج)
- ١٧ - الاغانى ج ١٩ . ت عبد الكريم إبراهيم الغزالي . القاهرة ١٣٩١ هـ -
١٩٧٢ م .
الباعونية (عائشة)
- ١٨ - شرح بديعة الباعونية . (مطبوعة على حاشية كتاب خزائن الادب لابن
حبيب الحموي) . ط ١ ، القاهرة ١٣١٤ هـ .
الباقلائي (أبو بكر محمد بن الطيب)
- ١٩ - إعجاز القرآن . ت . السيد أحمد صقر . دار المعارف - القاهرة
١٩٦٣ م .

- ٢٠ - نكت الانتصار لنقل القرآن . ت . الدكتور محمد زغلول سلام .
الاسكندرية ١٩٧١ م .
التفتازاني (سعد الدين بن مسعود بن عمر)
٢١ - المطول (الشرح المطول على التلخيص) تركية ١٣٣٠ هـ .
تعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى)
٢٢ - قواعد الشعر . ت محمد عبد المنعم خطاطي . القاهرة ١٣٦٧ هـ -
١٩٤٨ م .
الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
٢٣ - البيان والتبيين . ت . عبد السلام هارون . القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
٢٤ - الحيوان . ت . عبد السلام هارون . القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م .
الخرجاني (عبد القاهر)
٢٥ - أمرار البلاغة . ت . هـ - رينر . استامبول ١٩٥٤ م .
٢٦ - دلائل الإعجاز . ت . محمد رشيد رضا . ط ٥ ، القاهرة ١٣٧٢ هـ .
الخرجاني (علي بن عبد العزيز)
٢٧ - الوساطة بين المنتهي وخصومه . ت . محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي
محمد البجاوي . ط ٣ ، القاهرة .
الجندي (علي)
٢٨ - فن التشبيه . ط ٢ . القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
٢٩ - فن الجناس . القاهرة ١٩٥٤ م .
ابن جني (أبو الفتح عثمان)
٣٠ - الخصائص . ت . محمد علي النجار . القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
جواد أحمد عاوش (الدكتور)
٣١ - شعر صافي الدين الخلي . بغداد ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م .

حاتم عبد القادر

٣٢ - دراسات في علم النفس الأدبي . القاهرة ١٣٦٧ هـ ... ١٩٤٩ م .
الحسوي (أبو بكر علي بن حجة)

٣٣ - نزاهة الأدب وحياة الأرب . القاهرة ١٣٠٤ هـ .

الحفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن عثمان)

٣٤ - سر المصاحبة . ت . عبد المتعال الصبيدي . القاهرة ١٣٧٢ هـ .
١٩٥٣ م .

الخولي (أمين)

٣٥ - مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب . القاهرة ١٩٦١ م .
الدسوقي (محمد بن محمد بن عرفة)

٣٦ - حاشية الدسوقي على شرح السعد التفتازاني (مدفوع في ترويح التلخيص)
القاهرة ١٩٣٧ م .

الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)

٣٧ - نهاية الأيماز في دراية الأعجاز . القاهرة ١٣١٧ هـ .

الرعي (أبو جعفر أحمد بن يوسف بن مالك الغرناطي)

٣٨ - طراز الحلة وشفاء الغالة . مخطوطة مكتبة الاوقاف العامة ببغداد رقم
١٢١٤٢ .

الرماني (أبو الحسن علي بن عيسى)

٣٩ - التكت في إعجاز القرآن . (مطبوع في ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)
ت . محمد خلف الله أحمد والدكتور محمد زغلول سلام . دار المعارف

- القاهرة .

الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)

٤٠ - البرهان في علوم القرآن . ت . محمد أبو الفضل إبراهيم . القاهرة
١٣٧٦ هـ ... ١٩٥٧ م وما بعدها .

زكي مبارك (الدكتور)

٤١ - المباحث النبوية في الأدب العربي . القاهرة ١٩٦٧ م .

الرحماني (جاز الله محمود بن عمر)

٤٢ - الكشاف . ط ٢ . القاهرة ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م .

الزملكاني (عبد الواحد بن عبد الكريم) .

٤٣ - البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن . ت . الدكتور أحمد مطلوب

والدكتورة خديجة الخديجي . بغداد ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

٤٤ - البيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن . ت . الدكتور أحمد

مطلبوب والدكتورة خديجة الخديجي . بغداد ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

السبكي (بهاء الدين)

٤٥ - عروض الأفراح في شرح تلخيص المفتاح . (مطبوع في كتاب شروح

التلخيص) القاهرة ١٩٣٧ م .

السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي)

٤٦ - مفتاح العلوم . القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

سيبويه (عمر بن عثمان بن قنبر)

٤٧ - كتاب سيبويه . القاهرة ١٣١٦ هـ .

الصيوطي (جلال الدين)

٤٨ - الالتفات في علوم القرآن . القاهرة ١٣٦٨ هـ .

٤٩ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . ت . محمد أبو الفضل

أبراهيم . القاهرة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

شوقي ضيف (الدكتور)

٥٠ - البلاغة تطور وتاريخ . دار المعارف - القاهرة ١٩٦٥ م .

الصفدي (صلاح الدين خليل بن أبيك)

٥١ - نصره الثائر على المثل السائر . ت . محمد علي سلطاني . دمشق ١٩٧٢ م

الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى)

- ٥٢ - أخبار أبي تمام . ت . خليل محمود عساكر ومحمد عبيد عزام ونظائر
الاسلام الهندي . ط ١ . القاهرة .
- ٥٣ - أخبار البحري . ت . الدكتور صالح الاثري . ط ٣ . دمشق ١٣٨٤ هـ
- ١٩٦٤ م .
- طه حسين (الدكتور محمد)
- ٥٤ - البيان العربي من الاحتفال عند القاهرة . (بحث نشر تمهيدا لكتاب
" نقباء النثر " المصروف الى طبعته ط ٤ . القاهرة ١٩٣٨ م .
- طه حسين (الدكتور محمد)
- ٥٥ - أبو حنيفة العسكري وعلاوه البلاغة والنقدية . ط ٢ . القاهرة ١٣٧٩ هـ
- ١٩٦٠ م .
- ٥٦ - البيان العربي . ط ٤ . القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٥٧ - قدامة بن جعفر والنقد الاثري . ط ٢ . القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
- أبو عبيدة (معمر بن)
- ٥٨ - تجلذ القرآن . ت - الدكتور محمد فزاد سركين . القاهرة ١٣٧٤ هـ -
١٩٥٥ م .
- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله)
- ٥٩ - كتاب الصنائع . ت . علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم .
القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م .
- العقاد (عباس محمود)
- ٦٠ - فصول من النقد عند العقاد . (تقديم محمد خليفة التونسي) . القاهرة .
- ٦١ - اللغة الشاعرة . القاهرة .
- ٦٢ - الديوان (الاثر الك مع إبراهيم عبد القادر المازني) ط ٣ . القاهرة ١٩٧٢ م .
- العلوي (يحيى بن حمزة)
- ٦٣ - الطراز المظمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاصجاز . القاهرة
١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

- ابن فارس (أبو الحسين احمد)
- ٦٤ - الصحاح في فقه اللغة ومن العرب في كلامها . ت . الدكتور مصطفى الشويخي . بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .
- الهرام (أبو زكريا يحيى بن زياد)
- ٦٥ - معاني القرآن . الجزء الثالث . القاهرة ١٩٧٣ م .
قدامة بن جعفر .
- ٦٦ - نقد الشعر . ت . كمال مصطفى . القاهرة ١٩٦٣ م .
القزويني (الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن)
- ٦٧ - الانبساط . ت . لجنة باشراف محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة .
- ٦٨ - تلخيص . ت . عبد الرحمن البرقوقي . ط ٢ . القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م .
- القيرواني (أبو علي الحسن بن رشيد)
- ٦٩ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ت . محمد محي الدين عبد الحميد . ط ٣ . القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م .
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد)
- ٧٠ - الفوائد (المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان) . القاهرة ١٣٢٧ هـ .
الكتبي (محمد بن شاكر بن احمد)
- ٧١ - قوافي الوفيات . ت . محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٥١ م .
- ابن مالك (بدر الدين أبو عبد الله محمد بن جمال)
- ٧٢ - المصباح (تلخيص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي) القاهرة ١٣٤١ هـ .
- المبرد (أبو عباس محمد بن يزيد)
- ٧٣ - الكامل . ت . الدكتور زكي مبارك . القاهرة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
محمد الخضر حسين .
- ٧٤ - الغيال في الشعر العربي . ط ٢ . دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
محمد خلف الله احمد
- ٧٥ - من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده . ط ٢ . القاهرة ١٣٩٠ هـ

- ٥ - ١٩٧٠ م .
مصطفى ناصف (الدكتور)
٧٦ - الصورة الأدبية . القاهرة ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .
الطبرزي (أبو المفطر ناصر)
٧٧ - الألفاسح في شرح مقالات الحريري . إيران ١٢٧٢ هـ .
ابن المعز (عيد الله)
٧٨ - البديع . طبعة كراشكوفسكي لندن ١٩٣٥ م .
٧٩ - ابن معصوم (علي صدر الدين لنداني)
٨٠ - أنوار الربيع في أنواع البديع . ت . شاكر هادي شكر . النجف ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
المغربي (ابن يعقوب)
٨١ - مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح (مطبوع في شروح التلخيص)
ابن منقذ (أسامة)
٨٢ - البديع في نقد الشعر . ت الدكتور أحمد أحمد بلوي والدكتور حامد عبد المجيد . القاهرة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
النابلسي (عبد الغني)
٨٣ - فحاحات الأزهار . دمشق ١٢٩٩ هـ .
ابن نقيب (أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين البغدادي)
٨٤ - الجمعان في تشبيهات القرآن . ت . الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الخديجي . بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٨ م .
الوطواط (رشيد الدين)
٨٥ - حقائق السحر في دقائق الشعر . ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي . القاهرة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م .
ابن وهب (أبو الحسين اسحاق بن إبراهيم بن سليمان الكاتب)
٨٦ - البرهان في وجوه البيان . ت . الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الخديجي . بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

الموضوعات

المقدمة

الكتاب الاول

البيان

١١	الفصل الاول : البيان :
١١	في اللغة
١٢	في القرآن الكريم
١٢	في الحديث الشريف
١٣	الملاحظ
١٥	ابن وهب
١٦	الرماني
١٧	ابن رثيق
١٨	ابن سنان
١٨	البرجاني
١٩	ابن الاثير
٢٠	السكاكي
٢٦	التقريبي

الفصل الثاني : التشبيه :

٢٧	التشبيه من أصيل
٣٠	تعريفه
٣٤	التشبيه والمجاز
٣٦	أركاناه
٣٦	طرفا التشبيه
٤١	وجوه التشبيه
٤٣	أقسامه
٤٦	التشبيه الملفوف
٤٦	التشبيه المفروق
٤٧	تشبيه التسوية
٤٧	تشبيه الجمع
٤٧	أداة التشبيه
٤٩	التشبيه المرسل
٤٩	التشبيه المؤكد
٤٩	وجه الشبه
٥٠	التشبيه المجمل
٥٠	التشبيه المفصل
٥١	التمثيل
٦١	التشابه
٦١	التشبيه المتلوب
٦٦	مراتب التشبيه
٦٧	أغراض التشبيه
٧٩	الفصل الثالث : المجاز :
٧٩	الحقيقة

٨٠	تعريفها
٨٢	أقسامها
٨٤	المجاز
٨٩	تعريفه
٩١	أقسامه
٩٥	المجاز العقلي
١٠٤	أقسامه
١٠٥	قريبته
١٠٥	علاقته
١٠٩	المجاز المرسل
١١١	علاقته
١٢٢	الفصل الرابع : الاستعارة :
١٢٣	تعريفها
١٢٨	أركانها
١٢٨	قريبته
١٢٩	أقسامها
١٤٨	بين التشبيه والاستعارة
١٥٢	بلاغتها
١٦٢	الفصل الخامس : الكناية :
١٦٣	تعريفها
١٧٠	الكناية والمجاز
١٧٤	أقسامها
١٨٢	التعريض
١٨٦	بلاغة الكناية

الكتاب الثاني

البدع

١٩٥

الفصل الأول : البدع :

١٩٥

في اللغة

١٩٦

المصطلح

١٩٨

الملاحظ

١٩٩

ابن المعتز

٢٠٠

قديمة

٢٠١

العسكري

٢٠١

القاضي الخرجاني

٢٠٢

البافلاني

٢٠٢

ابن رشيق

٢٠٢

عبد القاهر

٢٠٣

ابن منقذ

٢٠٣

المصري

٢٠٤

السكاكي

٢٠٥

ابن مالك

٢٠٧

القزويني

٢١١

الفصل الثاني : البدعيات :

٢١٢

نشأتها

٢١٢

الأربلي

٢١٤

الحلي

٢١٤

ابن جابر

٢١٥

الموصل

٢١٦

الحموي

٢١٨

السيوطي

٢١٨	الياعونية
٢١٩	آخرون
٢٢٣	الفصل الثالث : المحسنات اللفظية :
٢٢٣	الجناس
٢٣٧	رد العجز على الصدر
٢٤٤	السجع
٢٥٠	الترصيع
٢٥٢	التصريع
٢٥٦	الموازنة
٢٦٠	لزوم ما لا يلزم
٢٦٥	التشريع
٢٦٩	الفصل الرابع : المحسنات المعنوية :
٢٦٩	المطابقة
٢٧٦	المقابلة
٢٧٩	مراعاة النظر
٢٨٢	المبالغة
٢٨٧	الذهب الكلامي
٢٩٠	حسن التعليل
٢٩٣	التورية
٢٩٩	الاستخدام
٣٠٠	الأرصاد
٣٠٣	الاستطراد
٣٠٧	تأكيد المدح بما يشبه الذم
٣٠٩	تأكيد الذم بما يشبه المدح
٣٠٩	التفسير
٣١٣	تجاهل العارف
٣١٥	المصادر والمراجع :

المؤلف

- ١ - البلاغة عند السكاكي . بغداد ١٩٦٤ م .
- ٢ - القزويني وشروح التلخيص . بغداد ١٩٦٧ م .
- ٣ - النقد الأدبي الحديث في العراق . القاهرة ١٩٦٨ م .
- ٤ - الرصافي - آراءه اللغوية والنقدية . القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٥ - مصطلحات بلاغية . . بغداد ١٩٧٢ م .
- ٦ - مناهج بلاغية . بيروت ١٩٧٣ م .
- ٧ - عبد القاهر الجرجاني - بلاغته وقده . بيروت ١٩٧٣ م .
- ٨ - اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة . بيروت ١٩٧٣ م .
- ٩ - فنون بلاغية - البيان - البديع . بيروت ١٩٧٥ م .
- ١٠ - أساليب بلاغية - المعاني . تحت الطبع .